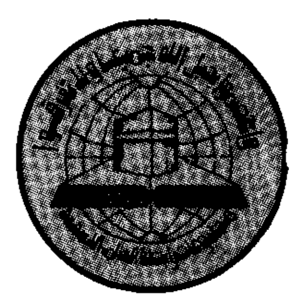
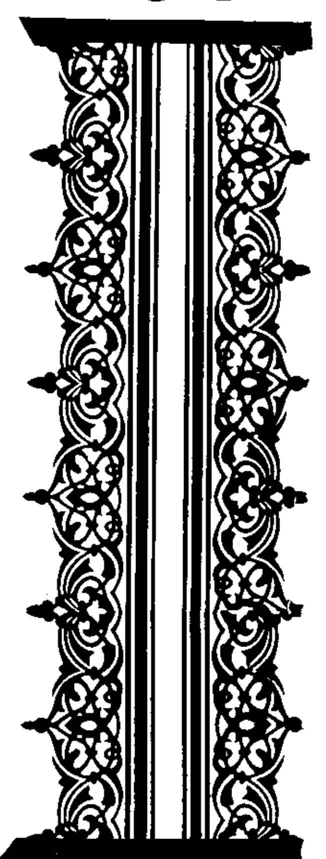


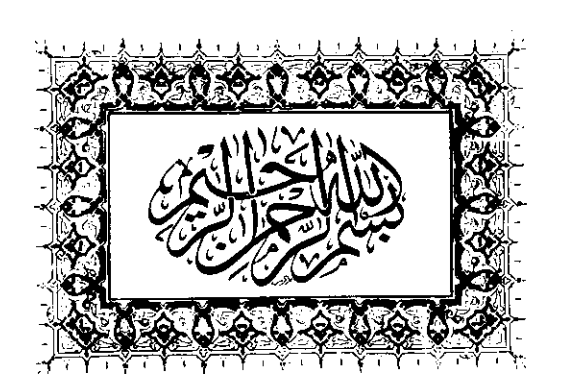
السنة الثانية ١٤٠٢ هـ جمادى الأولى العدد (١٤)

دعوة الحق
سلسلة شهرية
تصدر مع مطلع كل شهر عربي





تأليف
الأستاذ علي محمد مختار


بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين والصلاة والسلام على أشرف الانبياء والمرسلين سيدنا محمد النبى الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين ·

وبعـــد :

فمما لا يخفى على الناس ادراكه ما للمسجد من مكانة ســـامقة في نفوس المسلمين ومن أثر عظيم في حياة الفرد والجماعة ولذلك كان من أول الاعمال التى قام بها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هجرته الى المدينة أن بنى مسجده الشريف وقد حث الله تعالى ورسوله على بناء المساجد فقال تعالى « انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش الا الله فعسى اولئك أن يكونوا من المهتدين » وقال عليـه الصلاة والسلام « من بنى لله مسجدا ولو كمفحص قطاة بنى الله له بيتـــا في الجنـــة » ·

وبناء المساجد وعمارتها من أفضل القربات الى الله تعـالى متى كانت عمارتها خالصة لوجه الله الكريم خالية من الرياء والسمعة وكما اتخذها المسلمون من صدر الاسلام أماكن لاداء الصلوات جماعة فقد كانت مـكانا لمنتدياتهم العلمية والادبية والسياسية واجتماعات مجالس الشورى وتبادل الرأى فيما يهم المسلمين حربا وسلما ·

لذا فقد دعونا المسلمين جميعا في كافة أنحاء المعمورة الى اعـادة المسجد الى ما كان عليه في صدر الاسلام وقد بدأت أصداء هذه الدعوة تتردد في جنبات الارض فأقيمت مجالس قارية للمساجد على مســـتوى القارات ومجالس محلية على مستوى البلدان للرفع من مستوى المسـاجد والاهتمام بها للقيام بالمهام التى كانت تقوم بها ·

وفي الكتاب الذى أقدمه للقراء اليوم وقد ألفه سعادة السيد علـى محمد مختار الأمين العام المساعد للمجلس الاعلى العالمى للمساجد برابطة العالم الاسلامى مجموعة من البحوث التى تهم المسلم كلها تدور حـول المسجد ومكانته وأهميته وادارته والاغراض المتعددة التى يؤديها المسـجد كما تتحدث عن الآداب التى ينبغى للمسلم التحلى بها في داخل المسـجد وخارجه ومن جانب آخر تتحدث بعض البحوث عن نشأة المساجد وأشكالها الهندسية على مر التاريخ الاسلامى في مختلف الاقطار الاسلامية ٠

وقد دعا المؤلف الى الابتعاد عن الزركشة والمباهاة في بناء المساجد والعودة بالمساجد الى الاغراض السامية التى انشئت من أجلها وعمارتها واقامتها بالطاعة والاهتمام بالائمة والوعاظ والدعاة الذين يوجهون الامة ويرشدون العامة والرفع من مَستوى ثقافتهم واعادة الحلقات العلمية التى كانت تذخر بها المساجد المشهورة الى عهد قريب ٠

وفي رأيى أن الكتاب بذل فيه مؤلفه جهدا مشكورا فهو دراسـة وبحوث تاريخية واجتماعية ودينية وفكرية وأدبية وسوف يجد فيه القارىء الكريم بغيته فيما يتعلق بهذا الموضوع ٠

وانى اذ اقدم هذا الكتاب الى كل مسلم يهمه أمر المسجد في ماضيه وحاضره ومستقبله لادعو الله تعالى أن ينفع به القارىء وأن يجزى مؤلفه خيرا عما قام به من جهد وأن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم والله من وراء القصد وهو حسبنا ونعم الوكيل ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ٠

محمد على الحركان

الامين العام لرابطة العالم الاسلامى

المسجد في الاسلام

المسجد والجامع :

المسجد : الموضع الذي يسجد فيه – قال الزركشي وكذا الزجاج (١) : (كل موضع يتعبد فيه فهو مسجد لقوله صلى الله عليه وسلم « وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا ») .

وفي هذا يقول القاضي عياض (٢) : (وهذا من خصائص هذه الأمة لأن من قبلنا كانوا لا يصلون إلا في موقع يتيقنون طهارته – ونحن خصصنا بجواز الصلاة في جميع الأرض إلا ما تيقنا نجاسته) .

وقال القرطبي : (هذا ما خص الله به نبيه وكانت لأنبياء قبله انما أبيحت لهم الصلوات في مواضع مخصوصة كالبيع (جمع بيـَعة) – وهو معبد اليهود (والكنائس) وهي معابد النصارى .

ويعلق الزركشي على ذلك فيقول : (فكأنه قال : جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا – وجعلت لغيري مسجدا ولم تجعل له طهورا) .

وليس معنى الحديث ما ذهب إليه الزركشي فلم تكن كل الأرض مسجدا لغير النبي صلى الله عليه وسلم وأمته . . فلكل أصحاب دين مكان للعبادة لا تجوز العبادة في غيره فليس كل

---

١ – ٢ – اعلام الساجد باحكام المساجد (ص ٢٧) .

الأرض مسجدا عند غير المسلمين الذين أكرمهم الله بأن جعل لنبيهم كل الأرض مسجدا . . أما طهر الأرض من حيث اباحة التيمم منها فلم يكن لأحد من الرسل قبل محمد عليه السلام ولا في دين غير الإسلام إباحة التيمم . بل جعل الله الأرض طهورا خصوصية انفرد بها نبينا الأكرم دون كل الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم جميعا .

فالخصوصية التي خص الله نبينا عليه الصلاة والسلام هي في صلاح الأرض كلها لأن تكون موضع السجود ثم الخصوصية الأخرى في صلاح الأرض لأن تكون طهورا ــ وكلتا الخصوصيتين مما تفرد به رسول الإسلام دون كل الرسل الكرام .

ويفسر الزركشي السبب في اختيار كلمة ــ مسجد ــ لمكان الصلاة فيقول (لما كان السجود أشرف أفعال الصلاة لقرب العبد من ربه اشتق اسم المكان منه فقيل : مسجد ــ ولم يقولوا مركعا) .

أما الجامع فنعت للمسجد ــ وإنما نعت بذلك لأنه علامة الاجتماع (١) وما كانوا في الصدر الأول يطلقون كلمة الجامع على المسجد وإنما يقرون على كلمة المسجد وطورا يصفونه فيقولون ــ المسجد الجامع ــ واونة يضيفونها إلى الصفة فيقولون : مسجد الجامع ــ ثم تجوز الناس بعد ذلك واقتصروا على الصفة .

وقالوا للمسجد الكبير وللذي تصلى فيه الجمعة ــ وإن كان صغيراً ــ الجامع لأنه جمع الناس لوقت معلوم (٢) . وفي هذا يقول هشام بن عمار : (لما افتتح عمر بن الخطاب رضي الله عنه

---

١ ــ الازهر : تاريخه وتطوره (ص ١١٦) .
٢ ــ تاريخ مساجد بغداد وآثارها (ص ٥ ، ٦) .

البلدان كتب إلى أبي موسى وهو على البصرة يأمره أن يتخذ مسجداً للجماعة ويتخذ للقبائل مساجد فإذا كان يوم الجمعة انضموا إلى مسجد الجماعة) .

وكتب إلى سعد بن أبي وقاص وهو على الكوفة مثل ذلك وكتب إلى عمرو بن العاص وهو على مصر بمثل ذلك وكتب إلى أمراء أجناد الشام (١) .

أما المسجد – بكسر الميم وسكون السين وفتح الجيم – فهو مكان للسجود والمسجد – بفتح الميم والجيم – جبهة الرجل حيث يصيبه السجود . . والمسجد بالكسر – الخمرة – وهي الحصيرة الصغيرة .

وهناك أحاديث (٢) تدل على ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلي على الخمرة – وهي حصيرة صغيرة بقدر ما يسجد عليه – تنسج من السعف . ففي الحديث لأم سلمة أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لها : ناوليني الخمرة .

ويقول الشهرستاني (٣) في وصف الخمرة (هي مقدار ما يضع الرجل عليه وجهه في سجوده من حصير أو نسيجة خوص أو ما نحوه من النبات) .

ثم يضيف : (ولا تكون الخمرة إلا في هذا المقدار – وسميت خمرة لأن خيوطها مستورة بسعفها) .

ثم اتخذ المسلمون ما يسمى (السجادة) – وعند بعض الناس

---

١ – السيوطى : حسن المحاضرة (٦ : ١٤٩) .
٢ – البيهقى : السنن (٧ : ٤٢١)
٣ – الشهرستانى : الملل والنحل (ص ٦) .

يسمى المصلاة – وهي قطعة من نسيج تتسع للمصلى أن يقعد ويسجد .

وإذا ذهب بعض شراح الحديث إلى أن الخمرة بمقدار ما يضع الرجل عليه وجهه في سجوده ولا تكون إلا في هذا المقدار فإن ما جاء في سنن أبي داود إطلاق الخمرة على الكبير – ففي سنن أبي داود عن ابن عباس قال : (جاءت فأرة فأخذت تجر الفتيلة فجاءت بها فألقتها بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم على الخمرة التي كان قاعداً عليها فأحرقت منها مثل موضع درهم) .

قال ابن الأثير في « النهاية » : (وهذا صريح في إطلاق الخمرة على الكبير من نوعها) .

ومن هذا يمكن إطلاق الخمرة على السجادة – بضم السين عند العامة وبفتحها في الفصيح من اللغة – فقد جاء في « لسان العرب » مادة خمر : (الخمرة : حصيرة أو سجادة) بفتح السين .

هيئة المسجد وادارته

عند مناقشة الصورة المثلى التي يجب أن يكون عليها المسجد وإدارته من المحتم أن نضع في الاعتبار عدة نقاط مهمة :

١ — انتشار المساجد في أنحاء الأمصار الإسلامية وغيرها .

٢ — ترابط المساجد في كل قطر من الأقطار في وحدة إدارية شاملة .

٣ — مراعاة النواحي الإسلامية في الشكل المعماري والهندسي للمسجد .

٤ — حسن اختيار وتدريب القائمين على شئون المسجد .

هذه هي النقاط الأساسية التي يجب مراعاتها عند تشييد أي مسجد وهناك بعض النقاط المتداخلة ، سنناقشها كوحدة .

أولا — انتشار المساجد :

حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على بناء المسجد ، وكان صلى الله عليه وسلم حريصاً على آدابه ، وقد سن لنا هذا لحرصه على الأمة الإسلامية من بعده ، فأوجد لهم المكان النقي الطاهر النظيف الذي يجمعهم على الحب والتعاطف والرحمة .

وكثرت المساجد في حياة الرسول فبلغت ثمانية عشر مسجدا

كما يقول ابن هشام (١) ، وكثرت بعده كثرة عظيمة .

وفي هذا المقام يقول هشام بن عمار : « لما افتتح عمر بن الخطاب رضي الله عنه البلدان كتب إلى أبي موسى وهو وال على البصرة يأمره أن يتخذ مسجدا للجماعة ، ويتخذ للقبائل مساجد ، فإذا كان يوم الجمعة انضموا إلى مسجد الجماعة ، وكتب إلى سعد بن أبي وقاص وهو على الكوفة بمثل ذلك ، وكتب إلى عمرو بن العاص وهو على مصر بمثل ذلك ، وكتب إلى أمراء أجناد الشام » .

وعلى هذا المبدأ يمكن أن نسير ، فيكون لكل قرية صغيرة مسجد صغير المساحة يتناسب وأهل القرية عددا ، وبين كل عدة قرى يبنى مسجد جامع لصلاة الجمعة وإقامة المناسبات الدينية ، وإلقاء المحاضرات ، ومناقشة الأمور المهمة للمسلمين فيه .

كذلك في المدينة الصغيرة ، يبنى مسجد جامع في وسطها ، ولكل حي من أحيائها مسجد غير جامع ، أما المدن الكبيرة ، فيكون لكل حي من الأحياء مسجد جامع ، والعديد من المساجد صغيرة المساحة .

أما في المدن الكبيرة مثل الرياض ومكة والمدينة المنورة وجدة والدمام والطائف وغيرها فيكون لكل شارع صغير مسجد غير جامع ، وفي كل شارع كبير مسجد جامع أو أكثر .

ثانيا ـ ترابط المساجد في وحدة ادارية شاملة :

المقصود هنا أن تتحد المساجد بعضها مع البعض الآخر في

---

١ ـ سيرة ابن هشام (٢ : ١٢٩) .

كل النواحي الإدارية وغير الإدارية وأن تتضافر جهود القائمين على شئون المساجد بالأقطار الإسلامية في وحدة شاملة كاملة بتوافق الحب والإخلاص ، حتى تخرج رسالة المسجد في أروع صورها ، بالتكاتف والتفاني في العمل .

وليس المقصود أن نلغي إدارات بعض المساجد ، بل على العكس يجب أن يكون لكل مسجد مجلس إدارته المستقل والخاص به يعمل بكل حرية على أن يرتبط المسجد غير الجامع بالمسجد الجامع التابع له ، بمعنى أن ينتخب عضو أو عضوان من مجلس إدارة المسجد غير الجامع ليمثلاه في إدارة المسجد الجامع ويكون في كل مدينة أو مقاطعة مجلس يسمى « مجلس المساجد » ينتخب من مجالس إدارات المساجد الجامعة التابعة للمدينة أو المقاطعة ، ويتكون في كل عاصمة هيئة تسمى « الهيئة العليا للمساجد » تنتخب من مجالس المساجد بحيث تمثل كل مقاطعة بعضو وتهيمن الهيئة العليا للمساجد على جميع مساجد القطر الإسلامي .

أما عن مجالس إدارات المساجد ، فلتكن كالتالي :

١ – المسجد غير الجامع :

يكون لكل مسجد غير جامع مجلس إدارته الخاص به للإشراف عليه وإدارة شئونه وينتخب المجلس من أهل الحي أو القرية ، وينتخب هذا المجلس رئيساً له وآخر ينوب عنه ، ويتكون هذا المجلس من خمسة أفراد على الأقل ، على أن يكون كل فرد منهم لجنة من رواد المسجد ، مثل :

(أ) لجنة الإشراف المالي ، أو أمانة الصندوق لجمع الزكاة

والتبرعات وتوزيع الصدقات بالحق ، والإشراف على نواحي الصرف المختلفة .

(ب) لجنـــة اجتماعية وتناقش أهم أعمالها اللجان التالية بالتفصيل فيما بعد .

(جـ) لجنة الكتاب .

(د) لجنة التعليم .

(هـ) لجنة الاعمار والاصلاح .

٢ ـ المسجد الجامع :

أما المسجد الجامع ، فمجلس إدارته أكثر عددا ، ويكون من بين أعضائه رؤساء مجالس المساجد غير الجامعة التابعة له ، وينبثق من هذا المجلس العديد من اللجان التي تشرف على الأنشطة المختلفة للمسجد ، ويرأس هذه اللجان أحد أعضاء مجلس الإدارة ، أما بقية أعضاء اللجان فمن رواد المسجد ، ومن هذه اللجان :

اللجنة الاولى ـ لجنة الاعمار والاصلاح :

ويكون على عاتق هذه اللجنة المهام التالية :

(أ) المحافظة على مظهر المسجد الجامع والمساجد الأخرى التابعة له وصيانتها والمحافظة على نظافتها وطهارتها وفقاً لما تتطلبه شريعتنا الإسلامية الطاهرة النقية .

(ب) اصلاح كافة المرافق التي قد تتلف أو يتعرض جزء منها للتلف .

(ج) التوسع في الإنشاءات كلما دعت الضرورة إلى ذلك .

اللجنة الثانية ـ لجنة الكتاب :

وتقوم هذه اللجنة بما يلي من أعمال :

(أ) انشاء المكتبات في المسجد الجامع ، والمساجد التابعة له ، والإشراف عليها وتنظيمها وإمدادها بما تحتاج إليه من كتب ومراجع .

(ب) الإشراف العام على المكتبات ، ومعاونة أمين المكتبة ومساعدته في عمله .

اللجنة الثالثة ـ اللجنة الثقافية :

وتتركز مهمة هذه اللجنة في تنظيم الندوات الدينية والثقافية داخل المسجد لتوعية كافة المسلمين والإسهام في رفع مستواهم الديني والثقافي الإسلامي والعام ، كما تقوم هذه اللجنة بدعوة كبار رجال الفكر الإسلامي لإلقاء المحاضرات .

ومن مهام هذه اللجنة أيضاً عمل ندوة أسبوعية على الأقل في كل مسجد غير جامع في القرية أو المدينة بالتعاون مع اللجان المماثلة في المسجدغيرالجامع .

اللجنة الرابعة ـ لجنة التعليم :

وتتكون هذه الاجنة من العلماء الذين يترددون على المسجد ، أو آخرين ممن يتطوعون لهذه المهمة الجليلة من خارجه .

أما عن مهمة لهذه اللجنة فيمكن تلخيصها فيما يلي :

(أ) الإشراف على المدارس أو الكليات التابعة للمسجد ـ من

حيث توفير الإمكانات والظروف المناسبة للتعليم من احتياجات المعلمين والطلبة كذلك حل الإشكالات التي قد تنشأ .

(ب) تعليم وتحفيظ القرآن الكريم لعامة المسلمين ، وتعليم الفقه والشريعة والأحكام وعلوم الحديث .

(جـ) فتح فصول لمحو الأمية بين القاعدة العريضة من المسلمين لتوسيع مداركهم الثقافية .

(د) تنظيم دورات في اللغات الأجنبية ، خاصة وأننا بحاجة ماسة لجهد المسلمين المخلصين الذين يجيدون اللغات الأجنبية ويعرفون دينهم حق المعرفة للذود عنه وتوضيح صورته الحقيقية في أذهان الغرب .

اللجنة الخامسة ـ اللجنة الاجتماعية :

وينبثق من هذه اللجنة اللجان التالية :

(أ) لجنة للمصالحات ، تقوم بإصلاح ذات البين وفض الخلافات التي قد تنشأ بين رواد المسجد من أهل الحي ، ويراعى في اختيار أعضاء هذه اللجنة أن يكونوا من ذوي النفوذ الإجتماعي ، وممن عرفوا بالتقوى والإصلاح بين الناس .

(ب) لجنة لحل المشكلات الاجتماعية العامة بين المسلمين على ضوء الأحكام الشرعية ليستعيد الناس ثقتهم بدينهم ، وشريعة نبيهم المنزلة من السماء وتمشياً مع قوله تعالى : **« فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » .**

---

١ ـ (النساء ـ ٦٥) .

(ﺟ) لجنة تعاون لجنة التبرعات للإشراف على صناديق التبرعات المخصصة للعائلات الفقيرة .

(د) تهيئة العمل المناسب – ما أمكن ذلك – للعاطلين من المسلمين .

اللجنة السادسة ـ لجنة التبرعات :

وينبثق منها :

(أ) لجنة لجمع زكاة المال من أثرياء المسلمين ، وأيضاً جمع زكاة الفطر .

(ب) جمع التبرعات للمسجد من أهل الخير .

(ﺟ) الإشراف على الإنفاق على المسجد وملحقاته من مدارس ومكتبات وملاعب والمساجد غير الجامعة .

(د) الإشراف على صناديق التبرعات المخصصة للعائلات الفقيرة مع عمل مسح احصائي – بمعاونة اللجنة الاجتماعية – لمعرفة الوضع المادي لهذه العائلات في الحي أو القرية سيما تلك العائلات التي لا يصل إليها والأيتام ، وتوزيع ما يتجمع لديها بصورة عادلة وفي وجوهها الصحيحة كيلا تجرح شعور أولئك الذين لا يسألون الناس إلحافا ويحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف .

ومن صالح العمل أن تترابط هذه اللجان بعضها مع البعض بطريقة أو بأخرى حسب طبيعة الأعمال والمهام الموكولة إليها ، أو حسب ما يراه أعضاء هذه اللجان حتى يعمل الجميع بتوافق وانسجام في وحدة شاملة كاملة ليخرج العمل في أروع صوره .

ثالثا ـ الشكل العام والمعمارى للمسجد :

عند بدء العمل في التصميم الهندسي لبناء المسجد ، جامع أو غير جامع فإن أول شيء يجب مراعاته جيداً هو القبلة ، ووضعها بالنسبة إلى المسجد حتى يستطيع المصلون استقبالها على النحو الصحيح ، بمعنى أنه لا يجب أن تكون القبلة في أحد أركان المسجد مما يسبب بعض القلق للمصلين خشية الاعتقاد بعدم استقبالها استقبالا حسنا ، لذا يجب أن يكون البناء على النحو الذي تكون فيه القبلة على أحد حوائطه وليس في ركن منه حتى يطمئن كل مسلم في صلاته وتتساوى الصفوف ـ رمز الوحدة الإسلامية والتكاتف العظيم ، وتتوازى جيدا لأن الله لا ينظر إلى الصف الأعوج .

وهناك أشياء أخرى مشتركة بين المسجد الجامع والمسجد غير الجامع كدورة المياه ، ومكان المسجد وما إلى ذلك . . إلا أن التصميم الهندسي والمعماري للمسجد الجامع يختلف بعد ذلك عن التصميم الهندسي للمسجد غير الجامع كما يلي :

١ ـ المسجد الجامع :

يحسن أن يكون المسجد الجامع في مكان رحب فسيح ، في وسط الحي أو المركز أو القرية الكبيرة تؤدى فيه الصلاة ويكون بالشكل الآتي :

(أ) يتوسط المسجد فراغ حوله من كل جانب ، أمامه مكان رحب فسيح يصلح لممارسة الألعاب الرياضية المختلفة ويجهز على هذا الأساس ، حتى يستطيع المسجد أن يقوم بدوره

في التربية البدنية ، فقد أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بتعليم الشباب الرياضة كالرماية والسباحة وركوب الخيل وقد ثبت أن هذه الأنواع من الرياضة هي أهم الألعاب بالنسبة للبدن الصحيح ، لذا فهي تكون الألعاب الثلاث الأساسية من أحدث رياضة في الربع الأخير من القرن العشرين ، وهي رياضة « الإنسان الحديث » .

(ب) يلحق بكل مسجد دورة مياه مناسبة المساحة ، وعدة دورات أخرى صغيرة كما في بقية مرافق المسجد ، تصمم جميعها على أساس الصرف الصحي السليم كما يجب مراعاة اتجاه الرياح في البلد المنشأ فيها المسجد عند التصميم الهندسي بحيث يكون اتجاه الرياح من المسجد لدورة المياه وليس العكس .

(ج) يتكون المسجد من طابقين ، الأول للرجال ، والعلوي للسيدات لمن يردن صلاة الجمعة في المسجد . ويمكن استغلال الطابق العلوي في غير أوقات الجمعة في الكثير من الأغراض :

* ممارسة بعض الألعاب الرياضية الخفيفة للشباب مثل تنس الطاولة ، رفع الأثقال ، وبعض أنواع الرياضة الأخرى التي لا تحتاج إلى مكان فسيح .
* عقد الندوات الشعرية أو كمنتدى للأدباء والشعراء ، وفي هذا المقام يحدثنا ابن ظافر الأديب المصري من أدباء القرن السابع الهجري عن ندوة فوق سطح جامع عمرو ابن العاص بمدينة الفسطاط جمعت ابن قلاس وابن

المنجم وابن مؤمن وسيحاج المغربي تباروا فيها في وصف الغروب بأشعار رقيقة وخيال رائق .

* عقد حلقات دروس و وعظ للسيدات ، وفي هذا المقام أيضاً كانت تقام في مسجد عمرو بن العاص مثل هذه الحلقات في الدولة الفاطمية حوالي سنة ٤١٥هـ ، وكانت تقوم بالوعظ واعظة زمانها أم الخير الحجازية .
* كما يمكن استغلال المكان صباحاً أو مساء بعض الأيام في تعليم سيدات الحي أو القرية بعض الأعمال اليدوية التي يمكن مزاولتها في المنزل حتى يزداد الدخل العام للأسرة المسلمة .

(د) صحن المسجد : انه من الأمور الشائعة اليوم تزيين المساجد بزينات ونقوش كثيرة ، وهذا الإفراط في الزينة غير مستحب ويفعل المسلمون ذلك ظناً منهم أن هذا العمل يقربهم من الله ، وهذا ظن خاطيء ، فالغرض من المسجد ليس زينته كمعابد اليهود وكنائس النصارى ، ولكن المساجد لما بنيت له : إقامة الصلاة وتدارس العلم والجهاد وغير ذلك من الأمور التي ناقشناها في الباب الأول بتفصيل ، والإفراط في الزينة يشغل المصلي عن صلاته ، والصلاة تحتاج إلى الخشوع . وهذا لا يعني أن نترك صحن المسجد مهملا ، كلا ، وألف كلا . ان الإسلام دين بسيط ، دين النظافة والنظام ، فإذا شرع في بناء مسجد تدهن حوائطه جيداً بلا إفراط في زينتها أو نقشها بنقوش كالتي نراها في أغلب المساجد اليوم .

(هـ) يلحق بالمسجد وفي مبنى مستقل قاعة واسعة مناسبة ،

للمحاضرات العامة و لإقامة الاحتفالات الدينية المختلفة وغيرها من المناسبات المهمة في حياة المسلمين ، كما يمكن استخدامها أيضاً في غرض التعليم ، وهناك أغراض أخرى مثل الاحتفال بعقد القران أو عمل الندوات أو تلقي العزاء .

(و) مكتبة المسجد : ان الإسلام دين علم ، وأول آية نزلت من قرآنه المجيد على رسول الله صلى الله عليه و سلم : « **اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم** » .

نزلت هذه الآية وغيرها على رسول الله صلى الله عليه وسلم النبي الأمي مثل قوله تعالى : « **وقل رب زدني علما** » وهناك الكثير والكثير من الآيات القرآنية الكريمة وأيضاً الأحاديث النبوية الشريفة الكثيرة التي تحث على العلم والنهل منه لذا ساد المسلمون العالم يومها، وظلوا سادته قرونا طويلة ، غزوا العالم بالعلم ، العلم الديني والمادي فانهارت أمام الإسلام كل الموانع والسدود لعجز كل الأفكار والفلسفات أمام الفكر الإسلامي ، فكيف إذن لمسجد أن يستطيع القيام بمهمته خير قيام دون أن تكون به مكتبة تليق بمكانته .

وقد رأينا في الباب الأول ــ فصل المسجد والعلم ــ حرص آبائنا وأجدادنا العظام على اقتناء الكتب الأصيلة ، ورأينا حرصهم على وجود عدة نسخ من الكتاب الواحد وصلت في بعض الأحيان إلى مئات النسخ ــ على الرغم من عدم وجود آلات الطباعة الحديثة التي نتمتع بها اليوم .

أما اليوم ، فتكاد تخلو أغلب المساجد من الكتاب ، وأن وجدت فهي للزينة فقط والكتب التي بها مقفل عليها بقفل كبير ، فكيف إذن لإمام المسجد أن يحضر لخطبة الجمعة أو لأي درس ديني في أمسيات الأيام دون أن تكون لديه المراجع الأصيلة الصحيحة الكافية ؟

ولكن أين تكون المكتبة ؟

وما هي نوعية الكتب التي تحتويها ؟

ومن يشرف عليها ؟

ومن يمولها ؟

أما عن مكان المكتبة فمن الأفضل أن تكون في مبنى مستقل عن المسجد كأن تكون مثلا فوق قاعة المحاضرات (بند هـ) وتكون بالسعة المناسبة ، فسيحة رحبة بها أماكن مريحة للجلوس والاستمتاع بالقراءة ، وكلما كانت أرحب كلما كان ذلك أجدى وأنفع نظراً للزيادة المضطردة المتوقعة للكتب حتى نجد الكتب والمراجع الجديدة لها مكاناً بها .

وأما عن الكتب التي تحويها المكتبة فإن أهم كتاب هو كتاب الله القرآن الكريم ، وكتب التفسير المختلفة ونسخ متعددة تصل للمئات ، وأيضاً كتب الصحاح الستة والكتب التي تتناول الفقه والشريعة وكتب السيرة النبوية العطرة وكتب التاريخ الإسلامي وكتب الحضارة الإسلامية والكتب الأدبية الراقية والكتب العلمية الشيقة وغيرها من الكتب في مختلف الفروع بحيث يراعى كثرة النسخ .

أما من يشرف عليها ، فهو رجل متخصص في المكتبات

يعاونه المتطوعون من المسلمين رواد المسجد في الفترات المسائية حتى يستطيعوا فهرسة الكتب وتنظيمها بصورة جيدة وتسهيل الاستعارة الداخلية والخارجية وتنظيم العمل بها ، وأما عن أمين المكتبة فهو متفرغ تماماً لهذا العمل الكبير ، وهذا يتيح الفرصة لأن تظل المكتبة مفتوحة طوال النهار ، وجزء يسير من الليل ، بلا معوقات .

أما عن تمويل المكتبة ، فيخصص لها جزء لا بأس به من ميزانية المسجد هذا بالإضافة إلى الكتب التي يتبرع بها المسلمون ، والكتب المهداة من المؤلفين .

ومكتبة بهذه الصورة تشجع المسلمين على الاطلاع ، وتأخذ بيد الجاهل منهم إلى قمة الثقافة الإسلامية ، وغير الإسلامية ، حتى يكونوا أهلا لهذا الدين الذي يعتنقوه .

وهنا أوجه دعوتي للكتاب أن يعيدوا كتابة التاريخ الإسلامي بصورة صحيحة وأن ينقوا الكتب الإسلامية من الإسرائيليات التي دست على شريعتنا السمحة وأن تكون كتاباتهم بأسلوب سهل بسيط حتى يستطيع العامة استيعاب ما يقرأون .

كما أوجه دعوتي للكتاب الإسلاميين بإهداء بعض نسخ من مؤلفاتهم للمساجد حتى يتمكن كل مسجد من تكوين مكتبة ملائمة .

(ز) يلحق بالمسجد دار لتحفيظ القرآن الكريم وتجويده للصغار والكبار ولمحو أمية من فاتهم قطار العلم .

(ح) يلحق بالمسجد مركز للخدمة الإجتماعية ، وذلك لحل المشكلات التي قد تعترض رواد المسجد، وتقديم الخدمات

الإجتماعية المستطاعة للمسلمين وتكون نوعية المشرفين على هذه المراكز حسب المكان المقام فيه المسجد فالمشرف الاجتماعي للقرية غير ذلك الذي يعمل في حي شعبي ، غير من يعمل في البادية . . الخ . . وكذلك نوع الخدمات المقدمة .

(ط) يلحق بكل مسجد عيادة طبية ، الغرض منها توفير العلاج الجيد والرخيص للمسلمين ، يسهم في هذه العيادة كبار الأطباء بالتناوب بأن يحضر الطبيب كل أسبوع يوما ، أو كل خمسة عشر يوماً حسب عدد الأطباء وأعتقد أن أي طبيب مسلم لن يمانع في التطوع لهذا العمل الجليل ، وفي **المملكة العربية السعودية** صورة مشرفة لهذا النوع من العمل ، إذ أن هناك بعض المساجد ملحق بها عيادات يتناوب كبار الأطباء العمل بها دون مقابل يوماً كل أسبوع .

كما يلحق بالمسجد صيدلية خاصة به ، لتوفير الدواء بأرباح رمزية .

ويختار من بين كل عدة مساجد ، مسجد يتوسطها لإقامة مستشفى خاصة به لعلاج بعض الأمراض ، وإجـــراء الجراحات بأقل التكاليف الممكنة .

٢ ـ المسجد غير الجامع :

وأما المسجد غير الجامع ، سواء كان في القرية أو في المدينة ، فهو صورة مصغرة للمسجد الجامع ، بمعنى أن يكون في مكان رحب فسيح نوعاً ويشترط فيه ما يلي :

(أ) أن تكون به شرفة لصلاة الجماعة للسيدات .

(ب) عدم زخرفته بإسراف .

(ج) أن تلحق به دورة مياه صحية وعلى النحو الذي ذكرنا في المسجد الجامع .

(د) أن تكون به مكتبة مناسبة .

(هـ) أن تكون به عيادة بسيطة (اسعاف أولي) .

رابعا ـ اختيار القائمين على المسجد وتدريبهم :

ان كثيراً من المساجد اليوم عامرة بالبنيان مفتقرة إلى تزويدها بالعلم والحكمة والدعوة الحية للإسلام ، ولأجل أن نعيد للمسجد عمله ونحيي رسالته ومدرسته ، ولأجل أن تتيح هذه المدرسة أولئك الرجال الذين وصفهم القرآن الكريم بقوله : « **من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه** » فإن علينا أن نهيئ للمسجد قائده العالم العامل ، والداعي الدؤوب ، والعامل الحكيم ، والمربي الرحيم الذي يعلّم الناس بالحكمة والموعظة الحسنة ، مستمداً ـ هذا الداعي ـ أخلاقه وسيرته من خلق الداعي الأول النبي الكريم صلى الله عليه وسلم ، ومن هديه وسيرته في الدعوة ، كما سجل ذلك القرآن الكريم ، مزوداً هذا الداعي بكل الأساليب التربوية والعلوم الكونية التي يفتقر إليها نجاح الدعوة .

ان ديننا الحنيف هو دين الفطرة ، وأعتقد أن الفطرة الإنسانية أقوى من محاولات كل قوى الشر في العالم التي تحاول طمسها وتغيير ملامحها « **أما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث**

في الأرض » وليست المشكلة في رأي المطلعين المخلصين هي مشكلة الدين من حيث هو ، فالتدين غريزة كما هو معلوم وكما يقرر الإسلام « **فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله – ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون** » وإنما المشكلة هي عدم وجود الدعوة الصحيحة التي تفتح آفاق الفكر وتطلق الطاقات الكامنة في النفس ، وتدفع إلى السمو الروحي والعمل المادي .

ولو كان كل متخرج من الكليات الدينية على مستوى الداعي الحقيقي وعلى مستوى رسالة المسجد لما بقي كفر وإلحاد ، ولقضى على الفسق والفجور والفساد ولتلألأ كوكب الأرض بنور الله وقرآنه ، ولكان العالم – برسالة المسجد العامة – مغموراً بالسعادة والنعيم ، سيما وقد ثبت إفلاس الأديان الأخرى وذلك بإقرار قادتها ودعاتها أمام قوة الإسلام .

وليس من المشكوك فيه أبدا أننا إذا عزمنا على اعداد نماذج من هذا المصنع لإنتاج الداعي والداعية الحقيقيين اللذين يحملان الكفاءة العلمية والفكرية والروحية والخلقية تحت إشراف مربين ناجحين منتجين دعاة إلى الله مخلصين ، فإن الأرض ستبدل غير الأرض بدعوة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولأصبحنا كما وصف القرآن الكريم : « **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله** » وسيتبدل خوفنا أمنا ، وضعفنا قوة وهزائمنا نصرا وتقدما ورفعة ، وسيعود المسلمون كما كانوا من قبل « **ليكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول شهيداً عليهم** » .

ويتحتم في الداعية أن يجيد – بالإضافة إلى علوم القرآن

والحديث – علم مقارنة الأديان وعلم الحضارة الإسلامية ، وأن يجيد لغة أجنبية عالمية وأن تكون له قدرة على حسن الأداء ، ومعرفة بأفانين القول .

وأنه من المؤكد أن الإسلام ، والإسلام وحده – من خلال رسالته العظيمة ودستوره الخالد هو الذي توفر فيه العلم ومكارم الأخلاق ، لأنه الدين الذي رفعت معالمه وكرمت مبادئه وحفظ من التغيير والتحريف والتبديل والتصحيف « **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** » وأنه الكفيل بأن يحقق للإنسان ما ينشده من ارتقاء وما يرجوه من كمال ورفعة « **قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم** » .

وإيماناً بحق الله علينا ووفاء لهذا الدين الحنيف الذي شرفنا الله بالانتساب إليه أنشأت رابطة العالم الإسلامي بالتعاون مع جامعة الملك عبد العزيز ووزارة الحج والأوقاف معهداً لتدريب الأئمة والوعاظ والمرشدين لإعدادهم ليكونوا خير دعاة للإسلام في بلادهم ، وقد تم بفضل الله حتى الآن تخريج ثلاث دفعات من هذا المعهد ، ونبتهل إلى الله العلي القدير أن يحقق الآمال ويستمر العمل في هذا المعهد بنفس القوة التي بدأ بها ، وأن يوتي ثماره يانعة في سبيل خير الإسلام والمسلمين .

وأيضاً هناك معهد لتدريب الأئمة تابع للأزهر الشريف ، يدرس فيه كبار العلماء والمفكرون الإسلاميون لرفع مستوى وكفاءة الأئمة حتى يكونوا أهلا للقيام بمهمتهم خير قيام .

١ ـ اختيار القائمين على شئون المسجد :

ان اختيار الأفراد القائمين على أمر المسجد يجب أن يكون بميزان دقيق حساس وبمقاييس أقرب إلى المثالية ، لأن مهمة هؤلاء الرجال عظيمة وجليلة وكريمة ، وتحتاج لمجهود ضخم وخاصة في بدء العمل حتى يجذبوا المسلم إلى المسجد من جديد ، وينهضوا بفكره ويرتقوا بغرائزه حتى يصبح مسلماً حقا ، ومن هنا يمكن أن يقوم المسجد بدوره المرسوم له من جديد في قيادة المجتمع الإسلامي خير قيام .

ولن يقدر على هذه المهام إلا كل مسلم غيور على إسلامه ، حريص كل الحرص على عقيدته النقية السمحة ، قادر على أن يعطي من وقته الكثير للمسجد خاصة وأن الكثير من القائمين على شئون المسجد سيكونون من المتطوعين ، وفي اعتقادي أن خير من يقوم بهذه المهمة هم خريجوا كليات الدعوة ، ومعاهد تدريب الأئمة نظراً لطبيعة دراساتهم وإمكانياتهم التي دربوا عليها خير تدريب ولكن عددهم ليس بكاف لملء هذا الفراغ ، وهنا يجب الاستعانة بذوي الكفاءة من المسلمين وهم كثيرون يحبون المسجد ويتمنون رجوع القيادة له من جديد ــ غير أنه في اعتقادي ــ هناك بعض الشروط التي يجب أن توضع في الاعتبار ــ عند اختيار هؤلاء الرجال ، منها :

١ ــ حفظ القرآن الكريم حفظاً جيداً وكاملا ــ وحسن قراءته مجوداً قراءة صحيحة مع الإلمام ببعض التفاسير ، وحسن معرفة السنة والسيرة النبوية الشريفة والتاريخ الإسلامي بصورته الصحيحة ، وهذا الشرط أساسي ولازم خصوصاً

عند اختيار رئيس مجلس إدارة المسجد ، وكذا عند اختيار إمام المسجد .

٢ – حسن التعليم ، ويفضل دائماً من أكمل تعليمه لدرجة كافية ويشترط عند الاختيار معرفة شيء – ولو اليسير – من العلوم المادية والنواحي التكنولوجية الحديثة .

٣ – إتقان إحدى اللغات الأجنبية – خاصة – بالنسبة لرئيس مجلس الإدارة ، وخطيب المسجد ، وذلك لأن الإسلام بدأ يشق طريقه سريعاً بين شعوب أوربا وأمريكا واليابان وحتى الصين واستراليا ، ويأتي العديد من المسلمين الجدد إلى البلاد الإسلامية للتعرف بصورة أكثر على دينهم الجديد عن قرب ، وقد قابلت عدداً لا بأس به منهم – من أمريكا وسويسرا وانجلترا ، هذا من ناحية ، وأما من الناحية الأخرى فإن هناك حملات مسعورة على الإسلام ما زالت قائمة وستظل كذلك ، ومعرفة اللغة الأجنبية خير معين للدفاع عن الإسلام لدى أمم الغرب والشرق .

٤ – التواضع وحسن السيرة للعضو المختار ، وأن يكون مشهوداً له بين جيرانه ومعارفه بحسن الخلق .

٥ – المقدرة على ممارسة العمل ، وهذا لن يعرف إلا بعد الممارسة الفعلية للعمل ولذا يجب إسقاط عضوية من لا يثبت صلاحيته.

شروط أخرى :

بالإضافة إلى الشروط السابقة . هناك شروط أخرى يجب التنويه عنها وخاصة عند اختيار رئيس مجلس إدارة المسجد ،

وإمام المسجد ، وأمين المكتبة ورئيس اللجنة الاجتماعية وأمين الصندوق .

١ ـ رئيس مجلس ادارة المسجد :

إن هذا الرجل يقع على كاهله عبء كبير جداً ، فهو يشارك في كل المسئوليات حتى النهاية وهو المسئول عن كل صغيرة وكبيرة تحدث ، لذا يجب أن تتوفر فيه إمكانيات خاصة ومقدرة كبيرة لتولي هذا العمل الجليل حتى يستطيع تحمل كل المسئوليات الملقاة عليه .

(أ) أن يكون خريجاً من إحدى الكليات الدينية ، و يفضل من له بحوث في موضوع الدعوة وأن يكون مشهوداً له بالتقوى والصلاح بين معارفه .

(ب) أن يكون ذا خبرة مناسبة في النواحي الفنية والإدارية حتى يستطيع تحمل المسئوليات الملقاة على عاتقه ، قادراً على مواجهة الصعاب والشدائد فيحتوي المواقف ولا تحتويه .

٢ ـ امام المسجد :

إن إمام المسجد هوأهم الشخصيات التي يجب الاعتناء بها ، وبناؤها بناء جيداً صحيحاً قبل كل شيء ، فهو كالمرآة التي تعكس صورة المسجد ، وهو الذي سيؤم المسلمين في صلاتهم فلا بد وأن يكون قدوتهم في كل شيء ، في سلوكه العام والخاص ، في ثقافته وسعة أفقه ، في سعة صدره للدعوة الإسلامية الحقة ، وفي قدرته على تحمل مهام وظيفته ، وحرصه على أدب المسجد وآدابه .

وعلى هذا الإمام أن يكون واسع الثقافة ، ومن رأيي أن التخصص ليس شرطاً هنـــا ، إذ لا مانع من أن يكون الإمام طبيباً ، أو مهندساً ، أو عالماً كيماوياً أو مهندساً زراعياً أو غير ذلك ، كل ما يهم هو أن يكون هذا الإمام واعياً بإسلامه وعياً صحيحاً مؤمناً بدعوته أحسن إيمان حافظاً لكلام الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم دارساً للفلسفات الأخرى والتـــاريخ ، ويجيد إحدى اللغات الأجنبية وكلما زادت درجته العلمية كان ذلك أجدى وأنفع للمسلمين عامة وللدعوة الإسلامية خاصة ، فالعلم دائماً يزيد من أتساع الأفق وسعة الصدر ، والزيادة في العلم المادي كلما زاد ذلك من قوة الدعوة ، لأن مثل هذا الإمام سيبتعد عن الخرافات وسيكون المنطق السليم منهجه الفكري ، والعالم من أقدر الناس على تبسيط العلم للأذهان لمقدرته على الاستيعاب ، وهو خير من يفسر الإشارات العلمية في القرآن والإسلام دين عقل ومنطق ، ومزج العقل والمنطق بالروح من أروع صور الإسلام ، فالإسلام ليس مادياً إلى الدرجة المنفرة كالديانة اليهودية الحالية وليس روحياً لدرجة مفرطة كما هو مذكور في الأناجيل الأربعة الحالية ، وخير من يعبر عن الإسلام بصورته هذه خاصة ونحن نعيش عصراً مادياً — هم العلماء الحافظون لكلام الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

أما إذا كان الإمام من خريجي إحدى الكليات الدينية فعليه أن يكون ملماً إلماماً كافياً بالنواحي العلمية والتكنولوجية الحديثة حتى يستطيع أن يواكب العصر وحتى تكون خطبه مقنعة لمن يستمع إليه ، وعليه أن يتحلى بالمرونة الكافية حتى يستطيع جذب الشبان والرجال الذين ابتعدوا عن المسجد باللين والكلمة الطيبة الصادقة ، فالقرآن يقول :

« ادْعُ إلى سَبِيلِ رَبِّكَ بالحكْمَةِ والمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ » .

وإمام بهذه الصورة المشرقة يبعث على الثقة فيمن حوله ، فيقبل المسلمون عليه بعقول مفتوحة ، وقلوب صافية نقية ، وصدور يملؤها الحب .

إن إمام المسجد هو صاحب الكلمة المباشرة للمسلمين ، والمعبر عن رأي إدارة المسجد وهو الذي سيواجه كل الطعنات المتوقعة على المسجد بصدر رحب وابتسامة الواثق من توفيق الله له مطمئناً بإخلاصه له – لذا فعليه التأسي بخلق رسول الله صلى الله عليه وسلم في حكمته على مواجهة الصعاب الذي خاطبه ربه بالقول :

« ولو كُنتَ فَظاً غَلِيظَ القَلْبِ لانفَضُّوا من حوْلك » .

ولأن مهمة الإمام كبيرة وعظيمة ، فيجب أن يكون متفرغاً تماماً لهذا العمل الجليل وأن توفر له كل الإمكانيات التي تساعده على القيام بالعمل على الوجه الأكمل من توفير الكتب والمراجع المناسبة التي تعاونه في مهمته ، إلى السكن المريح القريب من المسجد ، لأن عمله سيبدأ مع الفجر ولن ينتهي إلا بخروج آخر مسلم من المسجد بعد صلاة العشاء ، أو بعد ذلك حسب الأحوال والظروف .

مكان المسجد ومكانته :

حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم في مهد الرسالة النبوية أن يعلم أتباعه نظام دينهم الجديد ، أفكاره ومبادئه ، فاتخذ دار الأرقم بن أبي الأرقم مقراً يجتمع فيه بأصحابه ، ويعلمهم أمر دينهم .

وبدأ الإسلام ينتشر بطيئاً أول الأمر ، وبعد بذل الرسول صلى الله عليه وسلم من الجهد الجاهد دون أن يعرف الملل أو الكلل إليه سبيلا أخذ الإسلام طريقه إلى العقول والقلوب التي بدأت تتفهمه حتى أدركت أنه دين الحق .

وسمع أهل يثرب عن الإسلام وعن النبي الذي ظهر في مكة فتاقت أنفسهم للتعرف على هذا النبي ، فما أكثر ما سمعوا من جيرانهم اليهود ومن النصارى عن النبي المنتظر نبي آخر الزمان الذي لا نبي بعده .

إنهم عرفوا من كتبهم أن النبي سيظهر في فاران(١) : مكة وأنه من نسل قيذار بن إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام(٢) ، واسمه مشتق من الحمد حيث يقول داود عليه السلام في (المزامير) : (أسست حمداً بسبب أضدادك)(٣) ويقول المسيح عنه (وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية ، ذاك يمجدني لأنه يأخذ مما لي ويخبركم)(٤) .

ويعرفون من النصارى أنه ملقب بالصادق الأمين (وسيسرى به) وهو ما حدث لنبينا عليه السلام (ثم رأيت السماء مفتوحة وإذا فرس أبيض (٥) والجالس عليه يدعى أميناً وصادقاً وبالعدل يحكم ويحارب(٦) كل شيء عنه يعرفون ، وإلى معرفته تواقون) .

١ ـ الكتاب المقدس : العهد القديم ـ سفر التثنية (٣٣ : ١ ، ٢) .
٢ ـ سفر اشعيا (٤٢ : ٧ ـ ١٧) .
٣ ـ المزمور (٨ : ٢) .
٤ ـ العهد الجديد ـ انجيل يوحنا (١٦ : ١٢) .
٥ ـ كناية عن البراق .
٦ ـ العهد الجديد ـ رؤية يوحنا (١٩ : ١١) .

وسعى فريق من يثرب إلى النبي صلى الله عليه وسلم ودعاهم للإسلام فاستجابوا ووحد الإسلام صفوفهم بعد فرقة ، وقوى نفوسهم بعد ضعف .

وتمت بيعة العقبة الكبرى وأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم مصعب بن عمير رضى الله عنه إلى يثرب يعلم مسلميها القرآن ، ويعرفهم أصول الإسلام ويؤمهم في الصلاة .

وكذلك فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل مدن شبه الجزيرة العربية وقراها وبواديها عندما كان الإسلام ينتشر بها .

وبدأت الهجرة وكان أول شيء فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم فور وصوله (قباء) — إحدى ضواحي المدينة المنورة — هو إنشاء مسجد فيها حتى يصلي فيه المسلمون ، ويجتمع فيه مع صحابته رضي الله عنهم ، يشاورهم في الأمر وتبع ذلك مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة .

ومن حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على رسالة المسجد حث المسلمين على بناء المساجد في كل مكان حتى صارت تسع مساجد في عهده .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم حريصاً كل الحرص على أن يشيد مسجداً في أي مكان تطؤه قدماه ، فهذه تبوك ، علي الرغم من أن إقامته بها لم تتجاوز بضع عشرة ليلة ، إلا أنه أقام فيها مسجداً(١) .

ويبدأ النور في الانتشار من المدينة ومكة ليضيء الجزيرة العربية والعالم اجمع ، وبدأ الدين الجديد يروي ظمأ تلك النفوس

---

١ — مع المصطفى : دكتورة بنت الشاطىء (ص ٢١٨) .

التي كانت قد غمرتها الوثنية والشرك والجاهلية والمجوسية ، وجرى الإسلام في شقوق النفس فأحال جديبها خصباً ، وأخرجها من الظلمات إلى النور ، وتحول الجهلة إلى علماء والكفرة إلى مؤمنين اتقياء ، والفاسدون إلى صالحين مصلحين ، والأذلة إلى سادة وقادة عظماء مفلحين ، وازدهر الإسلام ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً .

ومع انتشار الإسلام وازدهاره انتشرت المساجد ليذكر فيها اسم الله ولتدبر فيها حال المسلمين ، وتصرف شؤونهم وتعقد في رحابها الطاهرة مؤتمراتهم ومجامعهم الخيرة .

وكان أبطال الإسلام الفاتحون قد تعلموا من رسول الله صلى الله عليه وسلم قيمة المسجد وفضله على المسلمين . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قدوتهم ، وان أول فعل فعله فور وصوله قباء ويثرب تشييد المسجد وكان سكنه ملاصقاً له ، حتى أن أبواب حجرات المسكن التسع كانت تفتح على ساحته .

هكذا كان تفكير الأبطال العظام ، وإذا ما بدأ وا في إنشاء مدينة إسلامية جديدة – شيدوا مسجداً جامعاً في قلب المدينة ، وكل الطرقات تؤدي إليه .

فعندما فتح عتبة بن غزوان البصرة سنة ١٦ هـ – في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه – أنشأ بها أول ما أنشأ المسجد ، وشيد بجواره دار الإمارة وحولها خطط لكل قبيلة خطه ، وكان لكل منها مسجد ومقبرة(١) .

---

١ – التاريخ السياسي للاسلام : دكتور حسن ابراهيم (١ : ٦١١) .

وفي سنة ١٧ هـ فتح سعد بن أبي وقاص الكوفة فأسس بها أول ما أسس مسجداً جامعاً ، وبنى في مقدمته مظلة مقامة على أساطين من الرخام .

وجعل المسجد في وسط المدينة وغير بعيد منه تقع دار الإمارة ثم تحيط بهما الدور والمساكن حيث تفرعت الطرق والدروب وبنى في نهاية أحد الطرق دار الإمارة ، وكانت تبعد عن المسجد مائتي ذراع(١) .

وكذلك فعل أبو عبيدة بن الجراح عندما أسس مسجد دمشق ودار الولاية وفعل عمرو بن العاص الشيء نفسه عندما أسس المسجد الكبير بالفسطاط على النيل ، وفي القيروان بدأ عقبة ابن نافع في بناء المسجد ودار الإمارة ليكونا مركزاً في وسط المدينة تتجمع حوله مساكن الناس(٢) .

وتبع المسلمون الأسلوب نفسه على مر الزمن ، فالاهتمام بالمسجد كان هدفهم الأكبر فجعلوا أقرب بيت للمسجد بيت الحاكم ، فهذا أحمد بن طولون أسس مسجداً جامعاً سنة ٢٦٣ هـ في مدينة القطائع (إحدى أحياء القاهرة الآن) إلا أنه نهج النهج نفسه ، فالمسجد في وسط المدينة ، ومنزله ملاصق للمسجد .

وتبعه الفاطميون عندما أسسوا الجامع الأزهر سنة ٣٥٩ – ٣٦١ هـ بمدينة القاهرة .

ونظراً لأهمية المسجد في الإسلام فقد كان رسول الله صلى

---

١ – المرجع السابق (ص ٦١٧) .
٢ – فيليب حتى : ترجمة مبروك نافع (ص ٣٢٦) .

الله عليه وسلم هو الذي يؤم المسلمين في الصلاة ، في كل صلاة ، وهو الذي يخطب الجمعة وعندما مرض أناب أبا بكر الصديق رضي الله عنه في إمامة المسلمين في صلاة الجماعة .

ونهج الخلفاء الراشدون وحكام المسلمين من بعدهم نهج رسول الله صلى الله عليه وسلم في إمامة المسلمين في الصلاة وفي الجمعة .

وكان الحاكم يشاور المسلمين في المسجد ، فإذا حدث أمر مهم يؤذن المؤذن « الصلاة جامعة ، الصلاة جامعة » فيهرع المسلمون إلى المسجد لأداء الصلاة ، ثم يستشير الحاكم ذي الرأي والتجربة من الرعية فيما جد من أحداث ويتفق على القرار ، ثم يعلنه الحاكم على الجميع في المسجد فيلتزم به(١) وهكذا كانت المساجد يؤدى بها عمل مجالس الشورى ، والبرلمانات والمعاهد والجامعات الآن .

ولمكانة المسجد ، كان الحاكم ينتخب فيه ، وأول شيء يفعله الحاكم أن يلقي خطبته على المسلمين عند توليه الحكم على منبر المسجد .

و لمكانة المسجد في نفوس المسلمين كان العائد من السفر يبدأ بالمسجد قبل بيته ، فيصلي فيه ركعتين أسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم فهذه سنة ، فقد روى الإمام البخاري(٢) بسنده عن كعب بن مالك : (كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فصلى فيه » .

---

١ ـ الازهر : تاريخه وتطوره ، المقدمة .
٢ ـ صحيح البخارى (١ : ١٢٠) .

آداب المسجد :

حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على بناء المساجد ، ففي الصحيحين عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه ، أنه قال (سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من بنى مسجداً يبتغي به وجه الله ، بنى الله له مثله في الجنة)(١) .

وعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت : (أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ببناء المساجد في الدور ، وأن تنظف وتطيب) .

كما حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على إعلاء مكانة المسجد حتى يكون جديراً بالدعوة التي يدعو لها ، ففيه يعد المسلم إعداداً جيداً فيه يصلي وفيه يتعلم ، وفيه يعد للدفاع عن دين الله الأوحد دين الإسلام ، وفيه يعقد قرانه وفيه يقف ممثلا للقضاء ، وفيه يقضي وقت فراغه ، أي أن المسجد كل شيء في حياة الفرد المسلم ومن ثم فلا بد للمسجد من آداب سنها لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بوحي من ربه ، آداب يجب أن يتحلى بها كل مسلم في دخوله المسجد ، وجلوسه فيه ، ومكوثه فيه ، وصلاته فيه ، وخروجه منه .

ومن يخالف أمر الله سبحانه وتعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فانما يحطم نفسه ويحطم من حوله .

وإذا بدأنا بالمسجد ذاته ، فيجب أن يكون نظيفاً ، وأن يتعهد بالرعاية والنظافة ، وأن يطيب وبخاصة يوم الجمعة . . فيجب تنظيفه وكنسه والتقاط العيدان والقذى منه .

---

١ ـ رواه الشيخان .

قال أبو هريرة رضي الله عنه : (إن رجلا أسوداً أو امرأة سوداء كان يقم المسجد فمات فسأل النبي صلى الله عليه وسلم عنه فقالوا مات ، قال أفلا كنتم اذنتموني به ، دلوني على قبره ، أو على قبرها ، فأتى القبر فصلى عليه)(١) .

وقالت عائشة رضي الله عنها (أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ببناء المساجد في الدور وأن تنظف وتطيب) . وإذا دخل المسلم المسجد فمن الأفضل أن يدخل بقدمه اليمنى ، وأن يكون نظيف الجسد على وضوء ، وأن يكون حسن المظهر ، قال الله تعالى :

« يا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُم عِندَ كلِّ مسْجِدٍ وكُلُوا واشرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إنّهُ لا يُحِبُّ المُسْرِفين » .
(الأعراف : ٣١)

يقول ابن كثير : (ولهذه الآية وما ورد في معناها من السنة يستحب التجمل عند الصلاة ، ولا سيما يوم الجمعة ويوم العيد ، ويستحب الطيب لأنه من الزينة ، والسواك لأنه من تمام ذلك ، ومن أفضل اللباس البياض) .

قال عبد الله بن عمر رضي الله عنه (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول إذا دخل المسجد « أعوذ بالله العظيم ، وبوجهه الكريم ، وسلطانه القديم ، من الشيطان الرجيم » ، قال : فإذا قال ذلك قال الشيطان : حفظ مني سائر اليوم)(٢) .

وروى الإمام مسلم بسنده عن أبي حميد قال : قال رسول الله

---

١ ـ صحيح البخارى (١ : ١٢٤) .
٢ ـ صحيح البخارى (١ : ٢٦) .

صلى الله عليه وسلم (إذا دخل أحدكم المسجد فليقل : اللهم افتح لي أبواب رحمتك وإذا خرج فليقل : اللهم إني أسألك فضلك) .

وإذا دخل المسلم المسجد يجب أن لا يتخطى رقاب الناس وأن يجلس حيث ينتهي به المجلس ، ويجب مراعاة تكملة الصفوف ، كما يجب عدم المرور بين يدي المصلين إلا لسد الفرج التي في الصف الأول لتقصير من في الصف الثاني .

وإذا ما دخل المسجد فليصل ركعتين تحية المسجد ، وروى الإمام البخاري بسنده عن أبي قتادة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس)(١) . يقول ناصر الدين : (أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم سليك القطفاني بصلاة التحية حينما دخل المسجد ورسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب ، وأمر الجالسين بمثله أمراً عاماً)(٢) .

وإذا جلس الإنسان في المسجد فلا يرفع صوته ، قال الإمام ابن الحاج (ينبغي أن يمنع من يرفع صوته في المسجد في حال الخطبة وغيرها – لأن رفع الصوت في المسجد بدعة لما ورد عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : (جنبوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم وخصوماتكم وبيعكم وشراءكم وسل سيوفكم ورفع أصواتكم وإقامة حدودكم وصبروها أيام جمعكم)(٣) .
وفي الجامع الكبير عن ابن المبارك عن عبيد الله بن أبي جعفر

---

١ ـ المرجع السابق (ص ١٢٤) .
٢ ـ اصلاح المساجد : محمد جمال الدين القاسمى (ص ٩٢ ـ ٩٣) .
٣ ـ مخرج من الاجوبة الرائعة (ص ٥٥) .

أرسله إلى النبي صلى الله عليه وسلم (من أجاب داعي الله وأحسن عمارة المسجد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم) من رأيتموه ينشد شعراً في المسجد فقولوا فضّ الله فاك ثلاثاً ، ومن رأيتموه ينشد ضالة في المسجد فقولوا لا وجدتها ثلاثاً ومن رأيتموه يبيع ويبتاع في المسجد فقولوا لا أربح الله تجارتك) .

قال القاسمي : (فما احق هؤلاء المنشدين للقصائد الملحونة والموشحات المحرفة بتلك الزعقات المؤلمة والصيحات المهولة بالدعاء النبوي المذكور عليهم إذ الأمر فيه ان لم يكن للوجوب فللندب ، وإذا كان من يرفع صوته لحاجة مهمة كضالة يتعرفها قد شرع الدعاء عليه ، فما بالك برافعي اصواتهم لا لحاجة بل الضرر والتشويش) (١) .

روى البخاري عن السائب بن يزيد قال : (كنت نائماً في المسجد فحصبني رجل فإذا عمر بن الخطاب فقال : اذهب فائتني بهذين ، فجئته بهما فقال من انتما ، قالا : من اهل الطائف ، قال : لو كنتما من اهل البلد لأوجعتكما — ترفعان اصواتكما في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) ؟

وروى الإمام مالك والبيهقي عن سالم بن عبد الله ان عمر ابن الخطاب رضي الله عنه بنى إلى جانب المسجد رحبة سماها البطيحاء ، فكان يقول (من اراد ان يلفظ او ينشد شعراً او يرفع صوته فليخرج إلى هذه الرحبة) (٣) .

---

١ — اصلاح المساجد (ص ١١١-١١٢) .
٢ — صحيح البخارى (١ : ١٢٧) .
٣ — رواه مالك فى الموطأ (١ : ١٧٥ ، ٩٣) بدون اسناد ، البيهقى (١٠ : ١٠٢) .

وعن آدب المسجد وآدابه ، عدم اللهو والتجارة به ، قال تعالى : « **في بيوت أَذِن الله أن تُرفعَ ويُذكرَ فيها اسمه يسبح له فيها بالغدوّ والآصال رجالٌ لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقامِ الصلاةِ وإيتاءِ الزكاةِ يخافون يوماً تتقلبُ فيه القلوب والأبصار** » .

(سورة النور : ٣٥ ــ ٣٦)

وقال ابن كثير في تفسير هذه الآية : (اي امر الله تعالى المساجد وتطهيرها من الدنس واللغو والأفعال التي لا تليق) .

ان المساجد لما بنيت له ، لعبادة الله الواحد الأحد ، وإقام الصلاة والتذكير بالنهج الإسلامي تاركين احوال الدنيا ملبين الحق ، لذا فهناك اشياء لا ينبغي ان تفعل في المسجد حرصاً على آدابه .

روى ابن ماجة عن ابن عمر قال : (خصال لا تنبغي في المسجد : لا يتخذ طريقاً ، ولا يشهر فيه سلاح ، ولا ينبض فيه بقوس ، ولا تثني فيه نبل لما خشى من إصابة بعض الناس، فيه لكثرة المصلين فيه) ولهذا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم (إذا مر رجل بسهام أن يقبض علي نصالها لئلا يؤذي أحداً كما ثبت ذلك في الصحيح. وأما النهي عن المرور باللحم النيء فيه فلما خشى من تقاطر الدم منه كما نهيت الحائض عن المرور فيه إذا خافت التلويث) .

(واما انه لا يضرب فيه حد ولا يقتص فيه لأحد ، فلما يخشى من إيجاد النجاسة فيه من المضروب او المقطوع) .

(واما انه لا يتخذ سوقاً فقد تقدم ما ذكرنا عن البيع والشراء) .

ومن آداب المسجد ان لا تقام صلاتان للجماعة في آن واحد لأن هدف صلاة الجماعة هو جمع قلوب المسلمين وعود بركة بعضهم على بعض .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اتموا الصفوف) (١) وقال (اتموا الصف القوم) (٢) .

وفي الموطأ : سمع قوم الإقامة فقاموا يصلون ، فخرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : (أصلاتان معاً ، أصلاتان معاً) .

وقال الشيخ عليش المصري (٣) : (امرنا الله تعالى بهدم مسجد الضرار الذي اتخذ لتفريق المؤمنين فكيف يأذن في تفريقهم وهم بمحل واحد مجتمعين) .

وقال أيضاً : لم يأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتعدد الجماعة ولا في التخلف عنها ، فيجب على العلماء واولي الأمر

---

١ ـ صحيح مسلم (٢ : ٣) .
٢ ـ صحيح أبو داود (ص ٦٧٥) .
٣ ـ فتاويه عن اصلاح المساجد (ص ٨٠،٨١) .

وجماعة المسلمين إنكارها (يقصد بدعة صلاتين للجماعة في آن واحد) وهدم منارها .

حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على ان يكون المسجد خالياً من اية روائح كريهة ، فأمر انه إذا اكل احد شيئاً كالثوم والبصل والكرات وما شابه ذلك فلا يدخل المسجد لعلة التأذي منه في حالة واحدة وهي ما إذا كان اكله لضرورة به .

روى البيهقي في السنن الكبري من رواية المغيرة بن شعبة قال : اكلت الثوم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتيت المسجد وقد سبقت بركعة فدخلت معهم في الصلاة فوجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : من اكل من الشجرة الخبيثة فلا يقربن مصلانا حتى يذهب ريحها . فتممت صلاتي فلما سلمت قلت يا رسول الله اقسمت عليك الا اعطيتني يدك فناولني يده فأدخلتها في كمي حتى انتهيت بها إلى صدري فوجده معصوباً فقال ان لك عذراً او ارى ذلك عذرا (١) .

ومن ادب المسجد وآدابه الا يتخذ فيه قبرا ، فهذا مخالف لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم مخالفة صريحة .

روى الإمام البخاري عن ام المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعن اليهود والنصارى اتخذوا قبور انبيائهم مساجد (٢) .

---

١ - البيهقى (٣ : ٧٧) ، أحمد (٤ : ٢٤٩) ، أبو داود (٢ : ١٤٧)، ابن حبان (ص ٢١٩) .
٢ - صحيح البخارى (٢ : ١٢٨) .

وروى ابن حبان ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ان من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم احياء ، والذين يتخذون القبور مساجد .

ويروي لنا التاريخ ان امير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه بنى على الحجرة التي دفن فيها الرسول وصاحباه وخلف بيوت زوجات الرسول في المسجد بعد وفاتهن جميعاً ، وكان دخول هذه البيوت في عهد عبد الملك بن مروان او ابنه الوليد — حيطاناً مرتفعة مستديرة حوله لئلا يظهر في المسجد فيصلي إليه العوام ويؤذن ذلك إلى المحذور الذي نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم من اتخاذ المساجد على القبور .

ثم بنوا جدارين من ركني القبر الشماليين حتى التقيا . كل ذلك حتى لا يتمكن احد من استقبال القبر ولهذا قالت عائشة رضى الله عنها كما في صحيح البخاري : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور انبيائهم مساجد — لولا ذلك ابرز قبره غير انه خشي ان يتخذ مسجدا .

وقال تعالى « **« وأن المساجد لله فلا تدعو مع الله أحداً »** .

(الجن : ١٨)

يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية : قال قتادة : « كان اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم اشركوا بالله . فأمر نبيه صلى الله عليه وسلم ان يوحدوه وحده » .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لم يكن يوم نزلت هذه الآية في الأرض مسجد إلا المسجد الحرام ومسجد إيلياء ببيت المقدس .

وقال الأعمش : قالت الجن يا رسول الله ائذن لنا فنشهد معك الصلوات في مسجدك ، فأنزل الله تعالى : «**وأَنَّ المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً**» .

وقال سفيان عن خصيف عن عكرمة : نزلت في جميع المساجد .

وروى البخاري (١) بسنده عن ام المؤمنين عائشة رضي الله عنها ان ام سلمة رضي الله عنها ذكرت لرسول الله صلى الله عليه وسلم كنيسة رأتها بأرض الحبشة يقال لها مارية فذكرت له ما رات فيها من الصور . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اولئك قوم إذا مات فيهم العبد الصالح او الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور . اولئك هم شر خلق الله .

وقال ابن حجر في الزواجر : الكبيرة الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة والثامنة والتسعون اتخاذ القبور مساجد وإيقاد السرج عليها واتخاذها اوثاناً والطواف بها واستلامها والصلاة إليها .

وفي فتاوى الامام النووي : سئل عن مقبرة مسبلة للمسلمين بنى فيها إنسان وجعل فيها محراباً . هل يجوز ذلك . وهل يجب هدمه ؟ فأجاب بأنه لا يجوز له ذلك ويجب هدمه .

وقال ابن القيم في زاد المعاد : ان الوقف لا يصح على غير بر ولا قربة كما لا يصح وقف هذا المسجد (٢) .

وعلى هذا فيهدم المسجد إذا بني على قبر . كما ينبش الميت إذا دفن في المسجد . نص على ذلك الامام أحمد وغيره . فلا يجتمع

---

١ - صحيح البخارى (١ : ١١٨) .
٢ - يقصد مسجد الضرار حسب النص المسبق .

في دين الإسلام مسجد وقبر بل ايهما طرا على الآخر منع منه وكان الحكم للسابق فإذا وضعا معا لم يجز ولا يصح هذا الوقف ولا تصح الصلاة في هذا المسجد لنهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك ولعن من اتخذ القبر مسجدا أو أوقد فيه سراجا .

هيئة المسجد ومظهره :

ان المقصود ببناء المسجد اي مسجد ــ عبادة الله سبحانه وتعالى وتجريد العقل من ملهيات العالم المادي وتخليصه من فتن المظاهر الدنيوية والذهاب بالروح إلى باب الرحمة القدسية لتطرقه بيد التجريد والعبودية الخالصة لترجع إلىعالمها بنورانية تعينها في الجهاد وتحميها من فتن الدنيا . :

إذن فليس المقصود ان يكون المسجد قطعة فنية مزخرفة يتباهى بها المسلمون . لذا كان المسجد في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده غاية في البساطة والتواضع من ناحية المظهر عميق الأثر في الجوهر ، والبســـاطة مع النظافة ابلغ واعمق اثراً من الزخرفة المبالغ فيها لأن ذلك يشغل المسلم عن صلاته ويفتن الناس ويصرفهم عن العبادة الحقة وتحليق ارواحهم في العالم القدسي .

فهذا اول مسجد بناه رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ مسجد قباء ــ كان غاية في البساطة والتواضع ، حيطانه من اللبن ، ارضه من الحصى ومنبره جذع شجرة ، سقف منه جزء وترك اغلبه مكشوف .

وايضاً مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة بني بعضه من حجارة مرصوصة وبعضه من جريد يمسكه الطين والسقف من جريد وقيل ان القبلة من اللبن وقيل من حجارة .

وفي هذا المسجد جهز الرجال الذين انطلقوا فأضاءوا الدنيا عدلا ونورا . روى الإمام البخاري ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه امر ببناء المسجد وقال : اكن الناس من المطر . . وإياك ان تحمر وان تصفر .

وروى ابو داود عن ابن عبـــاس رضي الله عنهما قال : تزخرفنها كما زخرفت اليهود والنصارى .

وهذا لا يعني ان نهدم المساجد ونعيد بناءها من جديد باللبن والجريد ، او عند بناء مسجد جديد نبنيه من اللبن والجريد ونغرس ارضه بالحصى . . لا . إنما المراد هنا البساطة والتواضع . فالإسلام بسيط في كل شيء ، وهذا سر قوته ، فلم نعقده نحن المسلمين ، ونعقد كل الأمور حتى في بناء المساجد فليس في زخرفة المساجد او الإسراف فيها ما يقرب من الله او يغفر الذنوب . ولكن الزخرفة البسيطة تعطي للمسجد المجال الحقيقي فلا يصرف مصلي عن صلاته ولا نتشبه باليهود والنصارى الذين اعتاضوا عن جمال العقيدة والشريعة بتجميل جدران المعابد ، وعن نور الإيمان بأنوار الهياكل حتى جعلوا شعائر الدين اشبه باحتفالات الولائم لشدة ما تلتهي الأذهان بالنقوش والزخارف عن صلب العقيدة .

وإذا قريء القرآن في المسجد فيجب الإنصات ، فلا لفظ لقوله تعالى : « **وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون** » .

(الأعراف : ٢٠٤)

ولو ان هذه الآية واردة في الصلاة فالعبرة لعموم اللفظ لا لخصوص السبب .

مهام المسجد :

لقد ارتبط تاريخ الأمة الإسلامية بالمسجد ارتباطاً وثيقاً وذلك لأن الإسلام لم يقصر رسالة المسجد على اداء الصلوات الخمس فحسب ، بل اراد رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يكون للمسجد دور إيجابي واهداف سامية تخدم المجتمع الإسلامي ككل . . فبجانب اداء الصلوات الخمس هو موطن تلاوة وتدبر ومعهد علم وتهذيب . ومجلس صلح وقضاء . وملتقى تعاون وتكافل ومكان رأي ومشورة .

كما امتدت مهمة المسجد في ايام رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى استقبال سفراء الدول ووفود القبائل ، وعقد المعاهدات وبجانب هذا فهو المنتدى الذي يلتقي فيه المسلمون ويعقد فيه القرآن .

ولقد ادى المسجد رسالته خير اداء فالتفت حوله القلوب فأصبح مشعلا حضارياً ومركزاً ثقافياً انبعث منه تيارات عظيمة أسهمت في تطور البشرية وغيرت تاريخ العالم .

المسجد والصلاة :

ان المساجد لم تعمر لهيا كلها ومظاهرها او لكي تكون مآثر وشواهد حضارة فن معماري وطراز هندسي وليست هي كمعابد اقامها الأولون او يقيمها بعض المستجدين في الديانات الأخرى واهل الكتاب . إنما المساجد لما بنيت له وهي إقامة الصلاة بها خمس مرات في اليوم الواحد . . جماعة يلتقي فيها المؤمنون بالجسد والروح نحو هدف واحد ومعتقد ثابت هو عبادة الله عز وجل وتذكير المنهج الإسلامي تاركين احوال دنياهم ملبين نداء الحق ودعوة مؤذن الفلاح لأمور الصلاح والإصلاح ليستشعروا

باجتماعهم هذا في بيت الله قربهم منه عز وجل وصلتهم به سبحانه لا وسيط ولا رقيب ، خاشعين ، خاضعين مستجيرين لائذين برب العباد ، راجين رحمته ورضوانه وعونه وتوفيقه فتذهب من نفوسهم هموم كثيرة وتغتسل افئدتهم بطهارة الإيمان ، يستمدون من تلك الروحانية عزيمة المؤمن القوي الصابر المكافح المناضل العامل المجد لخير الأعمال وافضلها والمنتج لأصلح الثمرات في دنياه وآخرته .

ان اهم رسالات المسجد لقاءات المؤمنين في رحابه خمس مرات يومياً في عبادة وتذاكر وتراحم ، لقاءات محبة ، وتعاطف وتعاون ، متماسكين كصفوفهم في الصلاة ، متجهين لله العزيز الحكيم ، نابذين كل ضغينة او حقد ، راجين مغفرته ورضوانه وخير العمل .

وصلاة المسلم في المسجد افضل من صلاته في بيته او في سوقه . روى الإمام البخاري بسنده عن ابي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : صلاة الجميع ، او الجماعة تزيد على صلاته في بيته وصلاته في سوقه خمساً وعشرين درجة . فإن احدكم إذا توضأ فأحسن وأتى المسجد لا يريد إلا الصلاة لم يخط خطوة إلا رفعه الله بها درجة وحط عنه خطيئة حتى يدخل المسجد ، وإذا دخل المسجد كان في صلاة ما كانت تحبسه ، وتصلي عليه الملائكة ما دام في مجلسه الذي يصلي فيه اللهم اغفر له ، اللهم ارحمه ما لم يحدث فيه .

وللصلاة في المسجد اهمية خاصة لأن المسلم في المسجد يتعلم الكثير بل الكثير جداً ، واول واهم هذه الأشياء التي يتعلمها الطاعة المطلقة بمحض الإرادة والاختيار طاعة كلها الخشوع .

وهنا تكمن حكمة الإسلام في الطاعة ، لا إجبار ولا إكراه ، يطيع المصلي الإمام ايا كان وصفه الاجتماعي – إذا قال الإمام – الله اكبر – ركع الجميع او سجد الجميع او قام الجميع في خشوع وقلب مطمئن ، هكذا صـــلاة المسجد تدريب على الطاعة للقائد ، وهذا يشدنا إلى اهمية المسجد في الجهاد وطاعة الجند للقائد .

والأمر الثاني اتباع النظام والتعود عليه ، لأن مما ينبغي مراعاته والتأكد منه في صلاة الجماعة تسوية الصفوف ، القدم بالقدم ، والكتف بالكتف ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سووا صفوفكم فإن تسوية الصفوف من تمام الصلاة » .

وقال : « رصوا صفوفكم وقاربوا بينها وحاذوا بالأعناق » .

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي ناحية الصف ويسوي بين صدور القوم ومناكبهم ويقول : لا تختلفوا فتختلف قلوبكم ، ان الله وملائكته يصلون على الصف الأول .

كما قال : سووا صفوفكم وحاذوا بين مناكبكم ، ولينوا في أيدي إخوانكم وسدوا الخلل ، فإن الشيطان يدخل بينكم بمنزلة الحذف ، يعني أولاد الضأن الصغار .

ومن أهم ما يتعلم الإنسان في المسجد التواضع . فالفقير بجوار الغني في خشوع كتف بكتف ، مساواة مطلقة ، وقد يكون الإمام أقل الناس مالا ، والمأموم أكثر منه ثراء جمعت بينهم وحدة القلوب في طاعة الله فما أعظم الرمز ، وما أجمل الصورة وأكملها .

وفي السجود رمز عظيم ، يسجد الإنسان على الأرض التي خلق منها وإليها يعود .

وعن الصلاة في المسجد يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : من توضأ فأحسن الوضوء ثم أتي المسجد فهو زائر لله . وحق للمزور أن يكرم زائره .

وقال : ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات . . قالوا بلى يا رسول الله . قال اسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخطى إلى المسجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة . فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط .

وقال أيضاً : اسباغ الوضوء على المكاره ، واعماد الأقوام إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة . . يغسل الخطايا غسلا . وقال : من وفد إلى المسجد وراح أعد الله له نزلا في الجنة كلما غدا وراح .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من صلى في مسجد جماعة أربعين ليلة لا تفوته التكبيرة الأولى من الركعة الأولى كتب الله له بها عتقاً من النار .

وقال تعالى : « **إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله** » . (التوبة : ١٨)

جاء ابن أم مكتوم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشكو إليه أنه ضرير والمدينة ذات هوام وآبار وقال أفلا تجد لي رخصة أن أصلي في بيتي ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أتسمع النداء . قال نعم قال ما أجد لك رخصة .

وروى الإمام أحمد بسنده عن معاذ بن جبل أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ان الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم ، يأخذ الشاة القاصية ، فإياكم والشعاب . وعليكم بالإيمان .

وهناك صورة رائعة مشرقة سمعها أخ لي من أحد أساتذته الأجلاء عن الصلاة وهي : إذا تصور إنسان أن الشمس تشرق على كل الدنيا في آن واحد وتغرب عنها في آن واحد . فهذا يعني أن مواعيد الصلاة في جميع بلاد العالم واحدة وثابتة . وأن المسلمين سيصلون معاً في وقت واحد . وإذا تخيل إنسان منظر مئات الملايين من المسلمين وهم يصلون فإنهم يكونون دوائر تشمل العالم كله ومركز هذه الدوائر الكعبة المشرفة .

منظر ما أبدعه وما أروعه . وصورة ما أشرقها وما أجملها يركع المسلمون معاً في كل الدنيا ويسجدون معاً ويقومون معاً ، رمز رائع لوحدة القلوب بين مئات الملايين من المسلمين في مختلف أنحاء الأرض .

وإذا أمسك إنسان خريطة العالم الجغرافية وحدد عليها مكان الكعبة الشريفة بدقة لوجدها مركز هذا العالم وقلبه .

فإذا ربطنا بين الفقرتين السابقتين لتجلت الصورة في الأذهان وعجز اللسان عن الوصف لأنها أبلغ وأرقى من كل بيان .

المسجد والعلم :

بعد الفتح وتأسيس المساجد بدأ صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم في نشر تعاليم الإسلام من نقطة انطلاق مهمة وأساسية هي أن الإسلام يناسب كل عقل ونفس ويصلح لكل مجتمع يجمع ما بين المادة والروح في توازن رائع لا مثيل له .

وأقبل المسلمون الجدد على المسجد لينهلوا من الثقافة الإسلامية الجديدة عليهم الحبيبة إلى نفوسهم بشغف ونهم ، فأشبعوا عقولهم علماً ونفوسهم حبا ، وقلوبهم صفاء .

فالإسلام لا يلغي العقل أبدا كما ألغاه محرفو الرسالات ، بل يدعو إلى إيقاظ العقل والدعوة إلى المعرفة فأول آية نزلت في القرآن الكريم : « **اقرأ باسم ربكَ الذى خلق ، خلق الإنسانَ من علق ، اقرأ وربّك الأكرم الذى علّم بالقلم علّم الإنسان ما لم يعلم** » .

وقال تعالى في سورة الزمر : « **قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون** » .

وقال تعالى : « **وقل ربِّ زدني علما** » . (طه : ١١٤)

أما رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم فيقول : (العقل نور القلب كمفرق بين الحق والباطل) .

ويفضل الإسلام العالم عن سواه ، بل ان العالم أقرب إلى ربه من العابد . قال تعالى : « **إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ** » . . (فاطر : ٢٨)

والعلم فريضة على كل مسلم ، وخرجت من الجزيرة العربية شعارات للحث على طلب العلم .. اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد .. وأيضاً اطلبوا العلم ولو في الصين .

لكل هذا تميزت الشعوب الإسلامية عن غيرها بحرصها البالغ على طلب العلم ، وأصبحت المساجد جامعات الإسلام عنيت بالطلبة الذين ملأتهم الرغبة في العلم ، وقد جاءوا للاستماع إلى

محاضرات العلماء في علوم الدين والشريعة والفلسفة والطب والرياضة والفلك والكيمياء وغيرها من العلوم . وجاء العلماء أنفسهم من جميع أنحاء العالم الذي يتكلم العربية وكانوا يلقون محاضراتهم بالطريقة التي تروقهم ، وقد تيقن ذوو الكفاية من هؤلاء العلماء إقبال الطلاب على حلقاتهم والاعتراف بفضلهم .

وكان المسجد يرحب بكل طالب علم مهما كانت جنسيته(١) ، وانعقدت حلقات العلم بالمساجد بل انتشرت إلى المكتبات ومنازل العلماء وفي قصور الأثرياء عندما ظهرت القصور عقب اتساع الفتوحات ، على أن المساجد كانت أهم المراكز الثقافية على الإطلاق (٢) .

وكان النظام المتبع في حلقات العلم أن يجلس المعلم على خشبة صغيرة أو كرسي من جريد أو خشب والطلبة حوله على شكل حلقة بترتيب معين فلكل طبقة مكان فيجلس الممتازون من الزوار على يمين الشيخ ويساره ، وتكمل الحلقة بالرفقاء على أن يترك فراغ ليجلس فيه من يسمع الدرس من الطارئين أو الذين لا يحضرون الدرس بانتظام (٣) . وكان الطلاب يحرصون كل الحرص على الجلوس قريباً من المعلم ولكنهم لا يتعدون المكان الذي هم أهل له .

وكان المعلم يبدأ الدرس بالبسملة وبحمد الله تعالى والصلاة والسلام على رسول الله وصحبه ، ثم يتلو بعض آيات الذكر الحكيم أو بعض أحاديث الرسول الحاثة على طلب العلم والتواضع

---

١ ــ دكتور محمود دياب : أبطال الكفاح الاسلامى المعاصر (ص٣٨) .
٢ ــ دكتور أحمد شلبى : تاريخ التربية الاسلامية (ص ٤٥) .
٣ ــ دكتور أحمد شلبى : تاريخ التربية : فصل نظام الحلقة .

في طلبه وعلى حسن الخلق والسيرة مبيناً لهم أن ذلك يعين على حل المشكلات وتذليل الصعاب ثم يبدأ الدرس بعد هذا التقديم .

فإذا كان الشيخ يلقي من محفوظاته أو من مذكرات كتبها ليقرأ منها فإن الدرس يسمى املاء وجمعه أمالي ويملي فقرة فقرة أو حديثاً حديثاً مع اتصال السند ، ثم يعقبه الشرح والتفسير والتوضيح ويدون الطلاب هذه الشروح على هوامش أوراقهم التي كتبوا فيها الأصول ، ويصحح لهم الشيخ ما كتبوا .

وإذا كان الدرس يلقى من كتاب يمكن الحصول عليه فقد كان المتبع أن يحصل الطالب على نسخة منه ، وأن يقرأ الدرس وحده أو مع أحد زملائه قبل أن يسمعه من المدرس ، وكان الطلاب يكتبون على هامش الكتاب ما يلقيه المعلم من شروح وإيضاح .

وكانت فقرات أكثر الكتب تنتهي بدائرة كهذه فإذا انتهى الدرس عند فقرة معينة وضع المعلم خطاً مائلا بالدائرة علامة على أنهم وقفوا عندها .

وكان من حق كل طالب أن يسأل عما خفي عليه أو أشكل ولكن الأسئلة كانت تخضع لآداب خاصة متعارف عليها ما لم يكن الطالب يسأل للتعجيز . ، أو الاعنات أو الرياء ، وكان عليه أن يختار الوقت المناسب للسؤال وكان من آداب الدرس ألا يقاطع الطالب معلمه وهو يتكلم أو زميله وهو يسأل .

على أن المعلم كان أحياناً يقوم مقام السائل فيلقي على طلبته بضعة أسئلة ليختبر فهمهم ، وليجيب بنفسه على ما تعسر عليهم

الإجابة عليه ، وهو بهذا يسهل على محدودي المواهب أن ينتفعوا مما تستدعيه الأسئلة وأجوبتها من إعادة للموضوع وزيادة في بسط المسألة (١) .

وإذا رأى المعلم نبوغاً في أحد تلاميذه تعهده بالرعاية المناسبة ويزيد له في العلم ، وأخيراً يجيز له المعلم أن يروي عنه وأن يدرس ما تعلمه بالإضافة إلى اجتهاداته الخاصة ، وهذه أمثلة من اجازات أجاز فيها المعلمون تلاميذهم للرواية عنهم ، انقلها من فهرس المخطوطات بدار الكتب المصرية :

١ – اجازة من أبي بكر بن أحمد بن سليمان الأذرعي الدمشقي الشافعي (٧٩٨ – ٨٥٨هـ) إلى زين الدين عبد القادر ابن شمس الدين محمد بن عبيد الحمصي الحنبلي (٢) .

أولها البسملة والحمد لله الذي علم الإنسان ما لم يعلم وبعد : فقد عرض على عبد القادر بن شمس الدين أبي عبد الله محمد ابن الحمصى الحنبلي مواضع متعددة من كتاب تجديد العناية في تحرير أحكام الهداية لعلاء الدين بن عباس البعلي وعرض علي أيضاً مواضع من أبيات الخلاصة الألفية عرضاً حسناً متقناً ، وقد رويت له الخلاصة الألفية عن شيخنا شهاب الدين أبي العباس أحمد بن حجر الشافعي ، وأذنت له في رواية ذلك عني وفي رواية ما يجوز عني روايته ، ومن ذلك رواية صحيح الإمام البخاري . . الخ . .

---

١ – الازهر تاريخه وتطوره (ص ٢٣٩ – ٢٤٠) .

٢ – مصطلح الحديث : المجلد الاول – دار الكتب المصرية .

وأتقن العرض المذكور على الوصف المذكور في السابع والعشرين من ربيع الآخر سنة ٨٥٣هـ بمنزلي بالعادلية الصغرى داخل دمشق .

٢ ـ اجازة من علي الحلبي الشافعي إلى محمد بن نور الدين الشهير بالحصيبي القدسي (١) .

أولها البسملة والحمد لله الذي جعل عماد الشريعة أئمة للاقتداء وبعد :

فإن محمد بن نور الدين الشهير بالحصيبي قد التمس مني . . . وهي الإجازة التي تتصل بالسند ، وقد أجزته أن يروي عني جميع ما تجوز لي روايته من الكتب العلمية والعقلية والنقلية التي أخذتها من مصادرها وأودعتها الثبت الذي جمعته . . الخ . .

وأن يروى عني جميع مؤلفاتي في الفنون العقلية والنقلية وأسأله ألا ينساني من دعواته ، قابل الله ذلك بالقبول ، وبلغنا إياه كل مأمول . . شوال ١٠٤٩هـ .

وهناك آلاف الإجازات التي تنم عن دقة العلم في الاختبار ، وأن هذه الإجازات لا تعطى اعتباطا ، بل بعد دقة بالغة في الاختبارات المتنوعة من العلم لطالب الإجازة ـ كما رأينا آنفاً .

والإجازات ليست في العلوم الدينية فقط ، بل شملت العلوم العقلية بفروعها المختلفة ، وكذا بقية العلوم النقلية .

وقد انتشرت الحركة العلمية في أغلب العالم الإسلامي ، وحرص الخلفاء على عقد مجالس العلم ليتناظر فيها العلماء . . ومما لا شك فيه أن هذه المناظرات أدت إلى رواج الحركة العلمية

---

١ ـ مصطلح الحديث : المجلد الاول ـ دار الكتب المصرية .

في مجالاتها المختلفة ، لأن المناظرة إذا كانت تتم أمام خليفة أو أحد كبار رجال الدولة فإن المشتركين فيها يحرصون على إتقان مادتها العلمية حتى يدعم كل منهم رأيه بالأسانيد المعقولة والمقبولة ويحظى بتقدير الحاضرين ، وكان للخلافات في الرأي التي تحدث بين رجال العلم أثر كبير في تقدم الحركة العلمية .

ذلك أنها شجعت العلماء على مواصلة البحث والدرس وإعداد أنفسهم حتى لا يخذلوا في مجلس المناظرة مما يسيء إلى سمعتهم ومكانتهم (١) .

وما من شك في أن مثل هذه المناظرات تنعكس بالخير على طالب العلم بالمسجد، لأن الطالب عندما يرى أستاذه دائم التنقيب دائب البحث – لداعي المناظرة على الأقل – يتعلم منه كيفية قواعد البحث وأصوله . . وأعتقد أن هؤلاء العلماء العظام كانوا يعتمدون اعتماداً كبيراً على النابغين من تلاميذهم في التحضير للمناظرات .

هكذا كان اهتمام المسجد بالعلم ، وأما عن اهتمامه بطلاب العلم والعلماء فقد كان أكبر ، وكان انتشار الحلقات العلمية بالمساجد سبباً في إيقاف أهل الخير الوقفيات على طلبة العلم والعلماء ، منها أوقاف مشروط صرفها نقوداً وأوقاف مشروط صرفها خبزاً ، ومنها أوقاف مشمولة بنظر شيخ المسجد فبجانب مجانية التعليم يتقاضى الطلاب الرواتب التي تعينهم على معيشتهم(٢)

---

١ – ابن طيفور : مناقب بغداد (ص ٣٦) .

٢ – الازهر تاريخه وتطوره : انظر فصل الاوقاف (ص ١٧٤–١٩٥) وبه اسماء الواقفين واوجه صرف ريع الاوقاف على الدارسين والمعلمين .

واهتم الخلفاء بتشجيع وحث الطلبة على تحصيل العلم وهذا مثل نضربه لذلك وفي بعض الروايات أن هارون الرشيد كتب إلى ولاة الأمصار كلها وإلى أمراء الأجناد يطالبهم بتشجيع العلم وأهله فقال : (فانظروا من التزم الآذان عندكم فاكتبوه في ألف دينار من العطاء ومن جمع القرآن وأقبل على طلب العلم وعمر مجالس العلم ومقاعد الأدب فاكتبوه في ألف دينار من العطاء ومن جمع القرآن وروى الحديث والفقه في العلم فاكتبوه في أربعة آلاف دينار من العطاء واسمعوا قول فضلاء عصركم وعلماء دهركم ، وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم — وهم أهل العلم — (١) .

وبلغ من تشجيع الرشيد للعلم والتعليم أن الغلام كان يحفظ القرآن الكريم وهو ابن ثمانية أعوام ، ويتبحر في الفقه ويروي الحديث ويناظر المعلمين وهو ابن أحد عشر عاما (٢) .

وكان الخلفاء والأمراء يحرصون على تعليم ابنائهم تعليماً حسناً ويختارون معلميهم من ائمة المساجد ، ويقول هارون الرشيد لمعلم ولده الأمين (اقرئه القرآن وعرفه بالآثار ، ، ورِوه الشعر وعلمه السنن ، وبصره مواقع الكلام ومبدأه ، وامنعه من الضحك إلا في وقته ، وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عليه ، وارفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه ، ولا تمرن عليك ساعة إلا وانت مغتنم فائدة تفيده إياها من غير ان تحزنه فتميت قلبه ، ولا تمعن

---

١ ـ دكتور عصام الدين عبد الرءوف : الحوافز الاسلامية الكبرى (ص ٢٤٥) .

٢ ـ ابن قتيبة : الامامة والسياسة (١:٩٩) .

في مسامحته فيستحلي الفراغ ، وعليك بالرفق به فإن لم يأت بالرفق فخذه بالغلظة) (١) .

ويقول ابن النديم ان المأمون بن الرشيد كان اعلم الخلفاء بالفقه والكلام وله عدة رسائل (٢) .

لذلك شجع العلماء على مواصلة البحث والدرس وعنى بمجالس المناظرة ويقول ابن طيفور ان المأمون كان يختار العلماء والفقهاء لمحادثتهم ومناقشتهم واختير له مرة مائة من الفقهاء لمجالستهم وناظرهم وناقشهم كثيراً حتى وقع اختياره على أفضلهم فكانوا عشرة (٣) .

وما دمنا بصدد اهتمام المسجد بالعلم والقائمين عليه بتشجيعه فهذا جانب آخر من الاهتمامات العلمية ، فمع نشأة الحلقات العلمية عني المسلمون بتكوين المكتبات . . فالكتاب معجزة نبيهم ، وأول آية نزلت فيه :

« **اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق ، إقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم** » .

(طه : ١١٤)

ويقول تعالى :

« **وقُلْ رَبِّ زِدْني عِلْماً** »

---

١ — المسعودى : مروج الذهب (٢٧٩:٢) .
٢ — الفهرست (ص ١٦٨) .
٣ — مناقب بغداد (ص ٣٦) .

ويقول :

« وَمَا يَعْلَمُ تأويلَهُ إلاَّ اللهُ والرَّاسِخُونَ في العِلْمِ » .

(آل عمران : ٧)

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (طلب العلم فريضة على كل مسلم) .

مكتبات المساجد :

وكانت المكتبات تلحق بالمساجد أو تستقل بمكان قريب منها ، ويقال إن أول من أنشأ مكتبة في العصر الإسلامي هو خالد بن يزيد الأموي بدمشق وبأمره ترجمت كتب الطب والكيمياء والطبيعة والفلك وغيرها من العلوم اليونانية والقبطية إلى العربية(١) .

وأسس هارون الرشيد مكتبة ببغداد ، ويقال أن مؤسسها هو الخليفة أبو جعفر المنصور(٢) سميت – بيت الحكمة – جمع فيها كل ما وجده من كتب العلوم العقلية والنقلية وحوت كثيراً من الكتب بلغات متعددة منها العربية واليونانية والفارسية والسريانية وبعض اللغات الهندية(٣) ، ثم وسعها المأمون وأحسن ترتيبها في خزائن وتبويبها في فهارس تسهيلا للدرس والمراجعة(٤) . والحق بها علماء خصص لهم رواتب معينة ، كما ألحق بها مرصداً(٥).

---

١ – الازهر تاريخه وتطوره (ص ٢٧٦) .

٢ – الحوافز الاسلامية الكبرى – دكتور عصام الدين عبد الرءوف (ص ٢١٦) .

٣ – ابن النديم : الفهرست (ص٢٤١) .

٤ – الازهر : (ص ٣٧٦) .

٥ – الحوافز الاسلامية الكبرى (ص٢٤٧) .

وقد انتشرت المكتبات بالمساجد في بغداد والشام والأندلس ومصر ففي بغداد أنشئت مكتبة أخرى تسمى مكتبة (الكرخ) أنشأها سابور بن ازدشير وزير بهاء الدولة وجعل فيها أكثر من عشرة آلاف مجلد كلها بخطوط الأئمة الأعلام .

وفي الشام كانت في طرابلس مكتبة سماها ابن خلدون – دار المعرفة – وقد بلغت كتبها ثلاثة آلاف مجلد(١) .

وقد نهجت الأندلس نهج بغداد في حب العلم وتكريم العلماء وإنشاء المكتبات ، ولقد كان الخليفة عبد الرحمن الناصر وابنه المستنصر يعشقان الكتب فكان رجالهما ينقبون عن المخطوطات في حوانيت الإسكندرية ودمشق وبغداد فيشترونها أو ينسخونها . . ولقد جمع بهذه الطريقة ٤٠٠ ألف مجلد(٢) كانت أسماؤها تملأ فهرساً مكوناً من ٤٤ مجلداً وكان الحاكم يستعمل شخصياً الكثير من الكتب(٣) ولقد كان المستوى العام للثقافة في الأندلس عالياً إذ ذاك لدرجة جعلت المستشرق الهولندي دوري(٤) وغيره من العلماء من بعده يذهبون إلى القول في حماسة شديدة بأن كل إنسان تقريباً في الأندلس كان يعرف القراءة والكتابة . . كل هذا كان في الأندلس بينما كانت أوروبا – المسيحية – لا تعرف إلا المعارف التي كان عرفانها لا يعدو طبقة قليلة معظمهم من الأكليروس .

---

١ – الازهر (ص ٣٧٧) .
٢ – ابن خلدون : تاريخه (١٤٦:٤) .
٣ – تاريخ العرب (ص ٦٩) .
٤ – تاريخ المسلمين (١٨٤:٧) .

واقتدى رجال الدولة في الأندلس بالحاكم ، فهيأوا للدارسين بغرناطة وحدها ٧٠ مكتبة من المكتبات العمومية(١) بالإضافة إلى مكتبات المساجد التي كان عددها ٧٠٠ مسجد في قرطبة وقيل ثلاثة آلاف(٢) .

ونهج الفاطميون بمصر نهج خلفاء بغداد والأندلس في إنشاء المكتبات وتنشيط الحركة العلمية بصفة عامة ، ومن أشهر ما أنشأوا مكتبة الجامع الأزهر (ودار الحكمة) وخزانة الكتب ، وبذلت الأمـــوال للاستكثار من الكتب المهمة في التاريخ والأدب والفقه والفلسفة والكيمياء والهندسة والطبيعة وغيرها من العلوم ، فكان القائمون على هذه المكتبات حريصين كل الحرص على أن يكون من الكتاب الواحد عشرات النسخ بل أحياناً مئات وآلاف النسخ . . ويذكر أنه كان بمكتبة خزانة – الجمهرة – لابن دريد مائة نسخة .

وتتكرر النسخ بالأعوام حتى بلغ عدد النسخ من كتاب (الطبري) مائة وألف نسخة . وقد بلغ عدد كتب هذه المكتبة ألف ألف وستمائة ألف كتاب(٣) .

هكذا كان دور المسجد والقائمين عليه في تهيئة مناخ العلم المناسب للدارسين والعلماء .

فالعلم للجميع بالمجان ، بل في بعض الأحيان يتقاضى طالب العلم راتباً لقضاء حوائجه فمن يريد أن ينهل من أي فرع من فروع العلم فليذهب إلى الحلقة التي يبغي ويريد فالحلقات كثيرة.

---

١ – الازهر تاريخه وتطوره (ص ٣٧٦) .
٢ – من جدول تاريخ العرب (ص ٦٧٩) .
٣ – المقريزى : الخطط (ص ٢٥٣–٣٤٤) .

أشهر الحلقات العلمية بالمساجد :

ومن أمثلة هذه الحلقات تلك التي كانت تعقد بجامع عمرو بن العاص بمدينة الفسطاط في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري فقد بلغت مائة وعشر حلقات وكانت الدروس تلقى فيها ليلا ونهاراً ، كما كانت تقام فيها حلقات دروس ووعظ للسيدات تصدرتها في الدولة الفاطمية سنة ٤١٥ هـ واعظة زمانها (أم الخير الحجازية) .

أما في الأندلس ، فقد أنشأ عبد الرحمن الناصر أعظم جامعة وأول جامعة حقيقة في العالم في جامع قرطبة الرئيسي وكان التعليم فيها مجاناً .

هذه الجامعة هي جامعة قرطبة التي كانت تجذب إليها الطلاب مسيحيين كانوا أم مسلمين لا من أسبانيا فحسب ، بل من أجزاء مختلفة من أوروبا وآسيا وأفريقيا . . وكان يستدعي الأساتذة من الشرق الإسلامي ليحاضروا في الجامعة وقد خصصت بعض الأموال لوظائفهم ومن بين هؤلاء الأساتذة المؤرخ ابن القوطية الذي كان يدرس النحو . . والعالم اللغوي البغدادي المشهور أبو علي القالي(٢) الذي لا تزال أماليه(٣) تدرس في البلاد العربية(٤) .

ومعلم المسجد يحفظ القرآن . . والقرآن يحث على العلم ويدعو إليه « **وقل رب زدني علما** » . . وينهج نهج رسول الله الله صلى الله عليه وسلم في الدعوة للعلم (طلب العلم فريضة

---

١ – ابن خلكان (١:١٢–١٣١) .

٢ – تاريخ العرب : فيليب حتى (ص ٦٨٩) .

على كل مسلم) . . و (اطلب العلم من المهد إلى اللحد) . . و (اطلبوا العلم ولو في الصين) .

ومعلم المسجد لا يكتم عن تلاميذه أبداً . . فالرسول الأعظم يقول (من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار) .

ويقول : (خيركم من تعلم العلم وعلمه) . . بل إن معلم المسجد كان يعيد الدرس ويكرره على صورة أسئلة كما بينا فيما سبق ويثير الغيرة العلمية بين تلاميذه ويرعى منهم ذوي المواهب الخاصة بالرعاية ويجيز لهم أن يرووا ما أخذوا عنه .

ويمكن تلخيص مهمة المسجد من ناحية التعليم — مما سبق في ثلاث نقاط :

الأولى : مجانية التعليم .

الثانية : الدعوة إلى العلم والحث عليه .

الثالثة : عدم كتمان العلم .

تلك هي النقاط الأساسية في التعليم بالمسجد ، ولهذه الأسباب تخرج في المسجد علماء أجلة أفذاذ ، بهروا العالم بعلمهم الغزير وأبحاثهم العميقة في العلوم النقلية والعقلية ، ومن أمثال هؤلاء الأفذاذ الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت (٨٠–١٥٠) (١) أول أئمة أهل السنة ميلاداً ، الذي رفض القضاء وكان يكسب رزقه من بيع الخبز .

---

١ — وفيات الاعيان : ابن خلكان (٥:٤٢) .

والإمام مالك بن أنس بن مالك (٩٣–١٧٩ هـ) ثاني أئمة أهل السنة والذي قال عنه الإمام الشافعي (ما هبت أحداً قط هيبتي من مالك بن أنس) .

والإمام الشافعي (١٥٠–٢٠٤ هـ) ثالث أئمة أهل السنة والذي ينطبق عليه القول الشريف (عالم قريش يملأ طباق الأرض علماً) لأنه قرشي محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان ابن شافع بن السائب القرشي(١) .

والإمام أحمد بن حنبل الشيباني (١٦٤–٢٤١ هـ) رابع الأئمة المشهورين الذي شهد له الإمام الشافعي : (خرجت من بغداد – أي الشافعي – وما خلفت فيها اتقى ولا أفقه من ابن حنبل) .

كما قال عنه : (أحمد إمام في ثماني خصال : إمام في الحديث . . إمام في الفقه . . إمام في اللغة . . إمام في القرآن . . إمام في الفقر . . إمام في الزهد . . إمام في الورع . . إمام في السنة)(٢) .

الإمام أحمد تقي الدين أبو العباس بن شهاب الدين ابن مجد الدين الشهير بابن تيمية (٦٦١–٧٢٨ هـ) الذي قام بحركة إصلاحية كبيرة دينية وأدى دوراً في حرب التتار لا يقل أهمية عن دور قائد الجيوش ، فهو الذي يحث القادة والجنود والشعب على الصمود .

---

١ – اسلام بلا مذاهب : دكتور مصطفى الشكعة (ص ٤١٩) .
٢ – طبقات الحنابلة : محمد بن ابى يعلى (١:٥) .

وجابر بن حيان الذي يعتبر بحق واضع علم الكيمياء وأول من اعتمد على التجربة في وضع نظرياته وتحقيق ما كتب وألف كتباً في الرياضة والفلسفة والفلك(١) .

وابن النفيس الذي اكتشف دورة الدم الصغرى قبل وليم هارفي بأربعمائة سنة .

والزواوي أعظم الجراحين وأول من لجأ إلى استئصال حصاة المثانة من النساء عن طريق المهبل ، كما أجرى عملية تفتيت لحصاة في المثانة .

ويشهد جورج سارلمون(٢) للطب العربي فيقول : (إن التشريح في أوروبا كان ممنوعاً ، فإذا جئنا إلى الإسلام رأينا أن صناعة التشريح قد بلغت الذروة وخصوصاً في المغرب ، وأعظم تقدم علمي حققه المسلمون كان في علم البصريات وفي مقدمتها أبحاث الكندي وابن الهيثم والخازن . . فقد عارض الكندي كل من سبقه من العلماء الذين اعتقدوا أن العين ترسل أشعة تبصر بها الشيء المرئي فقرر أن شكل الجسم المرئي هو الذي ينفذ إلى البصر ماراً خلال الفتحة الشفافة (العدسة) وفق دراسات انكسار الأشعة وانعكاساتها وانقلاب الصور المعكوسة .

وفي علم الجغرافيا ياقوت والمقدسي وابن الفقه وابن حوقل والمسعودي والبيروني وابن بطوطة وابن جبير والإدريسي . واستعان فاسكو دي جاما بأحمد بن ماجد في كشف طريق رأس رجاء الصالح كما استعان كولومبس بالخرائط التي رسمها العرب .

---

١ ـ تاريخ العلم عند العرب : دكتور عبد الحليم منتصر (ص ١٦٢).
٢ ـ الاسلام وحركة التاريخ : انور الجندى (ص ١٧٣) .

وعلم الاجتماع يدين العالم كله فيه لمؤسسه عبد الرحمن ابن خلدون وغيرهم من العلماء العظام ، ممن أثروا العالم بعلمهم الدقيق والغزير .

المسجد والجهاد :

مما لا يخفى أن المسجد في الإسلام له دور عظيم في حياة الفرد والجماعة فكما أنه مكان للعبادة تؤدي فيه الصلوات جماعة إلا أن له مهاماً جساماً غير ذلك وكلها عبادة لله تعالى . فقد كانت مجالس لشورى المسلمين وخاصة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده تقرر فيها شئون الحروب وتعقد المعاهدات واتفاق الصلح وتؤخذ البيعة لإمام المسلمين وتقوم بمهام نشر العلم والوعظ وتبصير الناس بواجباتهم وتجمع فيه الزكاة والصدقات وتوزع على المستحقين . . إلى غير ذلك من المهام .

ومع هذا كان المسجد في صدر الإسلام (ساحة للتدريب على فنون القتال) فقد ثبت أن الأحباش كانوا يلعبون بالحراب والدراق يوم عيد في المسجد وكانت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تنظر إليهم يغطيها رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتفيه . كما كان بعض الصحابة يعد القسي والسهام في المسجد النبوي وكان المسجد مكاناً لتمريض الجرحى ومداواتهم فقد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بخيمة فضربت للسيدة الصحابية « رفيدة » رضي الله عنها التي كانت تقوم بتضميد الجرحى من المسلمين وكان بالمسجد خيمة أخرى لبني غفار وقد نصبت خيمة المسجد لسعد بن معاذ سيد الأوس الذي أصيب

في أكحله يوم الخندق وذلك ليكون قريباً من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيعود ويطمئن على صحته .

والمسجد في الإسلام هو المدرسة الأولى التي تعنى بالإنسان وتنمي فيه روح الشجاعة والإقدام كما توجد فيه روح العطف والإحسان . تربي روح الأخوة والألفة والمحبة بين المؤمنين فيعيشون في بعد عن التنافس والتطاحن وحروب الطبقات لأن كل فرد يشعر بكرامته التي كرمه الله بها وأنه متساو في الحقوق والواجبات مع جميع الذين يقفون بجواره في الصف سواء كانوا حكاماً أو محكومين أغنياء أو فقراء لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى يلمس كل فرد ذلك عملياً في المسجد فتجسدت الخصال الحميدة بينهم من صدق في القول وإخلاص في العمل وقوة في العقيدة كل ذلك ينشأ وينمو ويتعمق في النفوس من الممارسة الفعلية للشعائر في المسجد وأثرها على النفوس الأمر الذي نتج عنه سلوك فريد في المجتمع الإسلامي لم ولن يوجد في أي أمة أو مجتمع عبر التاريخ الإنساني كله إلا في أمة القرآن . . أمة المسجد .

والمسجد الذي ربى جنود الإسلام الأول وأدبهم فأحسن تأديبهم في حربهم وسلمهم ، فآداب حرب الإسلام غير التي تعودوها في الجاهلية الأولى وكذلك أهدافها .

تربى جنود الإسلام الأول التربية النفسية السليمة على يد خير الخلق محمد عليه الصلاة والسلام وعلمهم المعلم الأعظم خير مناهج التربية التي نفتقد أكثر قيمها ومثلها الرفيعة في كل مدارس العالم في الوقت الحاضر وأعدهم إعداداً كانوا بسببه خير البشر ، وقادهم قائدهم الأعلى القيادة الرشيدة الصالحة حتى آمنوا إيماناً

صادقاً بأنهم يقصدون من كل عمل أو قول وجه الله وحده . ففي الحرب كانوا موقنين بأن الجندي سينال إحدى الحسنيين « النصر أو الشهادة » .

وكانوا حريصين على الموت ، فنشروا الرعب والفزع في قلوب أعداء الله وأعدائهم ولا عجب في هذا ، فالقرآن يقول :

« وَلا تَحْسَبَنَّ الذينَ قُتِلُوا في سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِهمْ يُرْزَقُون . فَرِحينَ بِمَا آتاهُم اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ويَسْتَبْشِرُونَ بالذينَ لَمْ يَلْحقُوا بِهِم من خَلْفِهِم ألاَّ خَوْفٌ عليْهم ولا هُمْ يَحْزَنُون » .

(آل عمران : ١٦٩ ، ١٧٠) .

فهم مؤمنون حقاً بأنهم يجاهدون في سبيل الله لإعلاء كلمته ، لا لدنيا يصيبونها ، وإنما لله وحده ، ومؤمنون بالجزاء الذي أعده الله للشهداء ، فهم يطلبون الشهادة ويسعون إليها سعياً .

ويعبر خالد بن الوليد سيف الله وسيف رسوله الذي انتصر في جميع المعارك التي خاضها بأروع الكلمات عن حرص المسلمين على الشهادة بقوله وهو على فراش الموت : « لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها ، وليس في جسمي موضع إلا وفيه ضربة سيف أو رمية بسهم وها أنذا أموت على فراشي كما يموت البعير فلا نامت أعين الجبناء »(١) .

---

١ ــ الجهاد فى الاسلام : محمد شديد (ص ١٠٤) .

وكان المسلمون إذا ما دخلوا حرباً أيقنوا بأن النصر حليفهم ، لأن شعارهم « الله أكبر » يزلزل قلوب أشد الأعداء شجاعة وقوة ، ويهز كيانهم وقد وعدهم الله بالنصر .

« وكانَ حقّاً علَيْنَا نَصْرُ المُؤْمنين » .

(الروم : ٤٧)

« ولَيَنصُرَنَّ اللهُ من يَنصُرُهُ إنَّ اللهَ لَقَوي عَزيز » .

(الحج : ٤٠)

« إن يَنصُرْكُمُ اللهُ فَلا غالِبَ لكُمْ » .

« يا أيّها الذينَ آمَنُوا إن تَنصُرُوا اللهَ يَنصُرْكمْ وَيُثَبّتْ أقْدَامكُم » .

(محمد : ٧)

ففي غزوة بدر الكبرى كان المسلمون أقل من المشركين عدداً وعدة وكانت مهمة المسجد في تعبئة الجيش والحث على القتال من أعظم وأجل ما تكون ففيه يسجد لله ويتلى كلامه .

وفي غزوة بدر جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين من المهاجرين والأنصار الذين أعدهم للجهاد في مسجده بالمدينة وقدمهم للخروج لأخذ القافلة التجارية القادمة من الشام التي كان على رأسها أبو سفيان وحينما بلغه صلى الله عليه وسلم خروج قريش جمع أصحابه من المهاجرين والأنصار وقال أشيروا على أيها الناس فكان رد المهاجرين حسناً فردد عليه الصلاة والسلام عبارة أشيروا على أيها الناس فقال سعد بن معاذ ــ الذي اهتز عرش الرحمن لاستشهاده ــ لقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا

أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض يا رسول الله لما أردت ، فنحن معك فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل وما نكره أن نلقى عدونا غداً إنا لصبر في الحرب صدق في اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله(١) .

وانتصر المسلمون في بدر ، انتصر ثلاث مائة وأربعة عشر رجلا من حزب الله على ألف فارس من حزب الشيطان وصدق الله وعده ونصر من نصروه وألقى الرعب في قلوب عدوهم فذهبوا عبرة ومثلا .

كانت شريعة الإسلام في قلوب المسلمين كما علمهم إياها رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا ما بدأت الحرب اندفعوا كالسهام .

ومن منهج الإسلام أن لا مثلة ، أي لا تشوبه بعد القتل بقطع الأطراف أو سمل العيون وجدع الأنوف ونحو ذلك ، ولا نهبة ، فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : من انتهب نهبة فليس منا . ولا غلول : أي اغتصاب شيء من الغنائم .

هكذا كان عمل المسجد وقت الحروب ، فتخرج فيه أبطال عظام وفدائيون وهبوا حياتهم وأموالهم في سبيل الله فما بالوا بالموت وعلى أي جنب كان في الله مصرعهم .

---

١ - سيرة ابن هشام (١:٦١٥) الطبعة الثانية مصطفى البابى الحلبى

ومن هؤلاء العظام أيضاً سعد بن معاذ الذي طلب الشهادة ونالها فقد ورد في الحديث أن جبريل عليه السلام جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له : (من هذا العبد الصالح الذي فتحت أبواب السماء لصعود روحه واهتز العرش لقدومه ؟ » .

وهنا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ)(١) .

وقد قال الشاعر :

وما اهتز عرش الله من موت هالك

سمعـــنا به إلا لسعـــد أبي عمرو

والمختار عند علماء السلف أن الحديث على ظاهره واهتزاز العرش تحركه فرحاً بقدوم روح سعد وجعل الله تعالى في العرش تمييزاً حصل به هذا ولا مانع منه كما قال تعالى :

« **وإنَّ مِنْها لما يهْبط منْ خَشْيةِ الله** » .

وقال النووي رحمه الله وغيره من العلماء : إن اهتزاز العرش معناه فرح الملائكة بقدومه ، لما رأوه من منزلته .

وهذا عبد الله بن جحش قائد أول سرية فدائية في الإسلام ، وزيد بن حارثة أمين السرايا وعبد الله بن رواحة الفدائي والشاعر البطل الشهير وغيرهم وغيرهم ممن تربوا في حضن المسجد العظيم كلهم استشهدوا في معركة الفداء كما استشهد الكثير غيرهم ممن رباهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على عينه

---

١ ـ الفداء فى الاسلام : دكتور احمد الشرباصى (ص ١٠٧) .

فخالط الإيمان شغاف قلوبهم فضحوا بالنفس والنفيس في سبيل رفع راية الإسلام .

ويأتي خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ أبو بكر الصديق رضي الله عنه الذي سير جيش أسامة بن زيد الذي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أعده وزوده أبو بكر بخيرة المسلمين من المهاجرين والأنصار من المسجد(١) ويذكر ابن الأثير(٢) أنه كان لإنفاذ جيش أسامة أهمية كبيرة للمسلمين ، فإن العرب قالوا (لو لم يكن بهم قوة لما أرسلوا هذا الجيش ، فكفوا عن كثير مما يريدون أن يفعلوا) .

ولما تحرك الجيش خرج أبو بكر رضي الله عنه لتوديعه ، وأوصى أفراد الحملة بقوله (لا تخونوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا ولا شيخاً ولا امرأة ، ولا تقصروا نخلا ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً وسوف تمرون بأقوام حبسوا أنفسهم في الصوامع ، فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له وسوف تقدمون على قوم بآنية فيها ألوان الطعام ، فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم الله عليه وتلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقاً ، اندفعوا باسم الله(٣) .

وسار أسامة بالجيش متوجها إلى البلقاء وعاد منتصراً غانماً .
وخرجت الجيوش التي حاربت المرتدين من المسجد أيضاً .

---

١ ـ تاريخ الامم والملوك : الطبرى (١٩٥:٣) .
٢ ـ الكامل فى التاريخ (٢٥٣:٢) .
٣ ـ الكامل فى التاريخ (٢٥٤:٢) .

وجمع أبو بكر الصديق رضي الله عنه بعد أن فرغ من أهل الردة ـ الصحابة في المسجد (١) ليناقشهم في أمر الجيوش الخارجة إلى الشام فقال لهم (اعلموا أن الله فضلكم بالاسلام وجعلكم من أمة محمد عليه الصلاة والسلاموزادكم إيماناً ويقيناً واعلموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عول أن يصرف همته إلى الشام إلا أني عازم أن أوجه ابطال المسلمين إلى الشام بأهليهم وما لهم فإن الرسول انبأني بذلك قبل موته) واستجاب الصحابة لنداء الخليفة وقالوا له (مرنا بأمرك ووجهنا حيث شئت)(٢) .

وفي عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ـ الذي نشر العدل في أنحاء الأرض ـ وما أروع عهد عمر . . خرجت الجيوش الفاتحة من المسجد وكان عهد عمر بن الخطاب من أروع عهود الإسلام بعد أن مهد له الخليفة الأول أبو بكر الصديق الطريق واستتب الأمن في الجزيرة العربية .

وفي عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه خرجت الجيوش من المسجد لصد الروم التي اعتبرها بداية الحروب الصليبية .

كما كان المسجد عبر التاريخ الإسلامي ذا فضل على المسلمين أيام الشدائد فكان ملاذهم يستمدون منه القوة فيخرجون للحرب وروحانيته تملؤهم وبإذن الله يكون النصر حليفهم .

ففي الحروب الصليبية الشهيرة نجح عباد الصليب في استعمار جزء من الشام وفلسطين ودنسوا بيت المقدس لأن المسلمين

---

١ ـ الحواضر الاسلامية الكبرى : دكتور عصام الدين عبد الرءوف (ص ١٤) .

٢ ـ فتوح البلدان : الواقدى (١:٢) .

تهاونوا في حق أنفسهم وحق دينهم وحق المسجد عليهم على الرغم من جهاد المخلصين من شيوخ المسلمين .

وكان لشيوخ المسلمين وعلمائهم في رد الصليبيين دور لا يقل أهمية عن دور المقاتل فكانوا يحثون الناس في المساجد وبين الصفوف على القتال ويفهمونهم الخطر الذي يحيق بهم وبالإسلام ، فاندفع الناس للدفاع عن الإسلام بقيادة صلاح الدين وكان النصر حليفاً للمسلمين في المعركة الفاصلة « معركة حطين » التي دقت أعمق إسفين في نعش الحروب الصليبية أجلت الصليبيين بعد ذلك من بيت المقدس ولكنهم عادوا من جديد ، ودحرهم المماليك وأجلوهم عن بيت المقدس للمرة الثانية والأخيرة كما أجلوهم من كل الأرض العربية .

ويجدر بنا هنا أن ننوه بدور الشيخ عز الدين بن عبد السلام الذي قام بدور ضخم في اصطفاف الجند ، ورابط في مواجهة الحملة الصليبية السابعة في المنصورة وكان يحمس الجند ويحثهم على مقاتلة الصليبيين (١) يخطب فيهم الخطب الحماسية ويفسر لهم آيات الجهاد ويروي لهم عن البطولة والأبطال في الإسلام ويندفع الجنود بعد ذلك ليحطموا هذه الحملة ويأسروا قائدها .

وقد أدى فقهاء الأندلس وعلى رأسهم أبو الوليد الباجي — دوراً مهماً في توحيد كلمة ملوك الأندلس سعياً لتـــوحيد القوى الإسلامية المتنافرة من أجل الوقوف في وجه الخطر الغربي ولاسيما بعد سقوط طليطلة (٢) .

---

١ — الاسلام وحركة التاريخ : انور الجندى (ص ٢٨٨) .
٢ — المرجع السابق نفس الصفحة .

وفي الحرب ضد التتار بذل شيوخ المسجد جهداً رائعاً وعظيماً في تعبئة الجيوش للحرب ، ولم يتوقف هؤلاء العلماء عند حدود النصيحة بل شاركوا بسيوفهم في الجهاد ، وكان من أبرز هؤلاء جميعاً في الحرب ضد التتار الشيخ أحمد تقي الدين بن تيمية فبجانب قيامه بإشعال الحماسة في الصفوف المقاتلة كان يقود الفقهاء في ميدان التدريب الحربي على أعمال الفروسية والجهاد (١) .

وكان للشيخ عز الدين بن عبد السلام دور مشرف أيضاً في حروب التتار ذلك الرجل الذي حمل السيف للدفاع عن دمياط والمنصورة أسهم في تعبئة الجيوش المصرية لمهاجمة التتار والدفاع عن الإسلام وخرج من مصر شعار « وا إسلاماه » وانتصر السلطان سيف الدين قطز في معركة عين جالوت .

وعلى الرغم من انحسار المسجد عن القيام بجميع وظائفه وقصره على أداء الصلوات وتحفيظ القرآن الكريم وعلوم الدين إلا أن المسلمين يعودون إليه دائماً وقت الشدائد مستلهمين فيه الروحانية التي افتقدوها خارجه فيعطيهم شحنة روحية تدفعهم للجهاد في سبيل الله باذلين النفس والنفيس لتحرير أوطانهم من المستعمر ولرفع راية الإسلام عالية خفاقة .

وفي مصر المسلمة كان الأزهر على رأس كل صحوة وطنية اضطلعت بها القاهرة ضد المحتلين ، وقد قدم الأزهر خلال تلك الحوادث العصيبة أعظم التضحيات .

---

١ ـ ابن تيمية : محمد ابوزهرة (ص ٤٣).

ففي أثناء الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨ - ١٨٠١م) حاول نابليون بونابرت التودد لشيوخ الأزهر لما لهم من مكانة في نفوس المصريين لكن هيهات فقد احتشدت الجموع في الأزهر (٢١ أكتوبر ١٧٩٨م) يضجون ويصيحون ويهتفون بالقتال وامتلأت الطرقات بالناس حاملين الأسلحة قاصدين أحياء الفرنسيين لمهاجمتها وعمت الثورة مدينة القاهرة كلها في أسرع من لمح البصر وكانت القيادة لشيوخ الأزهر وعلى رأسهم الشيخ عبد الله الشرقاوي وهنا أدرك الفرنسيون خطورة الموقف وأمر نابليون بصب نيران المدافع على الجامع الأزهر والأحياء المجاورة له كما أعدم ثلاثة عشر عالما من علمائه يوم ٤ نوفمبر ١٧٩٨م رمياً بالرصاص كما مزقوا الكتب التي كانت به (١) .

ولم يهدأ علماء الأزهر وقاموا بثورة أخرى في المدة من ٢٠ مارس إلى ٢١ أبريل سنة ١٨٠٠م وكان الرأس المدبر لهذه الثورة هو السيد عمر مكرم الذي يرجع إليه الفضل في تعبئة الثورات الوطنية تعبئة قوية وعامة قلما توفرت في ثورة من الثورات (٢) .

وقبل ذلك في العهد العثماني قاد الأزهر ثورتين مهمتين الأولى بقيادة الإمام أحمد الدردير ، وكانت بسبب نهب حسين بك شفت وجنده داراً بحي الحسينية في يناير سنة ١٧٨٦م ، وعلم

---

١ - الازهر : تاريخه وتطوره (ص ٦٥) .
٢ - المرجع السابق (ص٦٥-٦٦) .
٣ - الازهر : تاريخه وتطوره (ص ٦٦) .

الشيخ الدردير فأمر بدق الطبول على منارات المساجد إيـــذاناً بالاستعداد للقتال .

أما الثورة الثانية فكانت بقيادة الشيخ عبد الله الشرقاوي ، شيخ الجامع الأزهر في ذلك الوقت عندما رفع فلاحوا إحدى قرى بلبيس سنة ١٧٩٥م شكواهم إلى الشيخ الشرقاوي من ظلم محمد بك الألفي ورجاله ، فبادر الشرقاوي إلى تبليغ هذه الشكوى إلى مراد بك إبراهيم ، ولم تجد الشكوى ما تستحقه من العناية والاهتمام فعقد الشيخ الشرقاوي اجتماعاً في الأزهر حضره العلماء وتبادلوا الرأي في هذه المسألة ، وأمروا الناس بإغلاق الأسواق استعداداً للقتال (١) .

(كما أدى رجال الأزهر دوراً عظيماً في ثورة عرابي عام ١٨٨١م بإذكاء الحماســة وإعداد النفوس لتلبية نداء الحرية ، وكان لمقالاتهم الأدبية وقصائدهم الشعرية وخطبهم في المحافل والمجتمعات أثر كبير في التحريض على الثورة . وكان في مقدمة هؤلاء الشيخ محمد عبده ، ورفاعة رافع الطهطاوي وعبد الله النديم) .

وعندما عزل الخديوي أحمد عرابي أصدر شيخ الأزهر فتوى تدين الخديوي وتقرر أنه مارق عن الدين لانحيازه إلى أعداء البلاد ، ووقع شيوخ هذا العصر هذه الفتوى ومن أبرزهم الشيخ الانبابي والشيخ حسن العدوي والشيخ محمد عليش والشيخ يوسف الحنبلي والشيخ عبد الهادي الإبياري والشيخ محمد الأشموني والشيخ خليل الغزاوي والشيخ حسين المرصفي ، وبعد الاحتلال

---

١ ـ المرجع السابق (ص ٧٤ـ٧٧) .

وانتهاء الثورة قبض على زعمائها وعلى المشتركين فيها وقدموا إلى المحاكمة ، ومن بينهم عدد كبير من شيوخ الأزهر الذين صدرت ضدهم أحكام قاسية منها النفي والعزل (١) .

ومن الجدير بالذكر أن أحمد عرابي نفسه كان ملتحقاً بالأزهر قبل أن يبدأ دراسته العسكرية (٢) .

وكان للأزهر في ثورة ١٩١٩م بمصر دور أشبه بالدور الذي قام به في الثورة التي قامت في أوائل الحملة الفرنسية (أكتوبر ١٧٩٨م) وأمام أبواب الجامع الأزهر وقفت الدوريات الإنجليزية لمنع مظاهرات العلماء والطلاب لكن الجماهير أفسدوا عليهم خططهم وفي يوم ١١ ديسمبر سنة ١٩١٩م وقع حادث اهتزت له أركان القاهرة وأثار عاصفة من السخط والاستنكار في أنحاء الديار المصرية ، وهو اقتحام الإنجليز الجامع الأزهر (٣) .

وعندئذ ثارت ثائرة العلماء ، ولم يوهن مثل ذلك الأمر من عزيمتهم بل أسهموا بكل ما استطاعوا به في الثورة .

ولا يفوتني هنا أن أنوه بأن الزعيم سعد زغلول زعيم ثورة ١٩١٩م كان طالباً في الأزهر قبل دراسته للحقوق (٤) .

هذه أمثلة من حياة الأجيال المؤمنة التي تربت في المسجد فعمرت قلوبها بالإيمان الصادق وامتلأت نفوسها بالاطمئنان بأن

---

١ — المرجع السابق (ص ٢٣٤) .
٢ — الازهر : تاريخه وتطوره (ص ٧٢) .
٣ — المرجع السابق (ص ٧٦–٨٣) .
٤ — الازهر : تاريخه وتطوره (ص ٨١) .

ما عند الله خير وأبقى فبذلت أرواحها لإعلاء كلمة الله والدفاع عن دينه .

ومن العجيب في الأمر أن زعيماً مصرياً حارب المسجد واعتقل شباب المسلمين وأذاقهم ألوان العذاب وشتت الباقين منهم وأعدم صفوة من مسلمي مصر ومفكريهم يلجأ إلى الجامع الأزهر في محنة مصر سنة ١٩٥٦م حيث اعتلى منبره وأعلن الجهاد ضد جيوش الحملة الثلاثية ـ انجلترا وفرنسا وإسرائيل وانتفض الشعب المصري انتفاضة كبرى وعلى الرغم من الهزيمة العسكرية النكراء التي مني بها هذا الزعيم في الحرب ـ إلا أن الله نصره سياسياً ونجح في صد العدوان .

ولكن الرجل لم يتعظ من ذلك فشرد البقية الباقية من صفوة رجال المسلمين وأعدم خيرة الرجال سنة ١٩٦٤م من العلماء والمفكرين فمني عقب ذلك بهزيمة نكراء سنة ١٩٦٧م باحتلال اليهود لأرضه وأراضي عدد من الدول المجاورة فكان ذلك مصداقاً لقوله تعالى :

« واتّقُوا فِتْنَةً لا تُصيبَنّ الذينَ ظَلَمُوا مِنْكُم خاصّة » .

هكذا كان دور المسجد في الجهاد في سبيل الله ، واستطاع المسجد أن ينقذ المسلمين من بلايا شديدة وكوارث عظيمة كادت تحل بالمسلمين في أوقات حرجة من حياتهم . وكان دور المسجد كبيراً وأثره عظيماً وكان النصر دائماً للمسلمين حينما كانوا صادقين

في إيمانهم مخلصين لدينهم باذلين النفس والنفيس للدفاع عن عقيدتهم .

المسجد والديموقراطية :

يؤسفني أشد الأسف أن أستخدم كلمة « الديمقراطية » عنواناً لهذا الفصل وكان يجب أن يكون العنوان : «المسجد أخوة وتكافل » ولكن كلمة الديمقراطية تجري اليوم على كل لسان من مسلمين وغير مسلمين ، كلمة يتشدقون بها دون أن يرجعوا إلى الإسلام ليروا عظمته ، ويروا مدى الحرية وكمها في الإسلام للفرد والمجتمع ، حرية تفوق كل خيال وتصور ووصف ، حرية يعجز اللسان عن وصفها ويعجز القلم عن ذكرها ، ويعجز الخيال عن تصورها .

أما عن كلمة « ديمقراطية » فهي كلمة يونانية الأصل ، ومعناها « حكم الشعب للشعب » . والآن : أصبحت هذه الكلمة تطلق على كل شيء ، على حرية الكلمة وعلى الحرية العامة وعلى المساواة بين أفراد الشعب . . الخ . .

فصارت كلمة مطاطة ، يلذ للمثقفين استخدامها بكثرة ليبرزوا مدى ثقافتهم كأن اللغة العربية عجزت كل العجز عن إيجاد معاني مثل هذه الكلمات .

وإذا أخذنا كلمة الديمقراطية بمعناها الحرفي « حكم الشعب للشعب » فإن أول من فعل هذا في التاريخ (الإسلام) ، وأول حاكم منتخب في العالم هو خليفة رسول الله صلى الله عليه و سلم الأول أبو بكر رضي الله عنه وأرضاه ، وتمت مبايعته في المسجد في مكان طاهر مقدس ، فأسبغ المكان على مبايعة الخليفة أبي بكر

الصديق رضي الله عنه طهارتها وظلت هذه الصورة المشرقة فريدة على مر الزمان .

وإذا أخذنا كلمة الديمقراطية بمعناها المطاط ، كحرية الكلمة ، وحرية الفرد والمجتمع والعدل والمساواة . . الخ . . فالإسلام أول من أطلق هذه الحريات في حدود الكياسة والأدب والأخلاق الكريمة ، مع عدم الإسفاف ، ومن أكبر دلائل هذه الديمقراطية امامة خليفة المسلمين للمصلين في المسجد في كل أوقات الصلاة ، ومن خلفه كبار رجال الدولة من قادة الجيوش إلى القضاة والمستشارين وغيرهم كتفاً بكتف مع عامة الشعب .

ومن أبرز صور الديمقراطية ، خطب الخلفاء الراشدين على منبر المسجد فور توليهم الخلافة ، ولم تكن هذه الخطب مجرد شعارات تقال ليرددها العامة من الشعب ، بل كانت تنفذ كل الخطط التي تضمنتها تلك الخطب وبدقة لأن هؤلاء العظماء يعرفون تماماً أن آيات المنافق ثلاث (إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان) فهذا أول خليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في خطبته : (أيها الناس اني قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني ، الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق له إن شاء الله ، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله ، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم ، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله) . (١)

---

١ ـ سيرة ابن هشام (٢:٤٧٠) ، الطبرى (٣:٢٠٠) .

ونفذ أبو بكر رضي الله عنه كل ما قاله في أول خطبة له ، أليست هذه قمة الديمقراطية من الحاكم ، الذي لا يفصل بينه وبين عامة الشعب الأبراج العاجية .

وعمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ما أروع مواقفه الديمقراطية وما أكثرها فعندما صعد المنبر فور توليه الخلافة قال : (أيها الناس ألا إن رأيتم في اعوجاجاً فقوموني) فنهض رجل من عامة المسلمين قائلا له : « والله لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا » .

ماذا فعل عمر يا ترى ؟ أغضب وثار ثم اعتقل وعذب ؟ لا ، لم يفعل شيئاً من هذا كله ، فلم يغضب ولم يثر ، ، بل انه لم ير في هذا القول الجاف ما يخدشه أو يحرجه كخليفة للمسلمين وتقبل هذا القول راضياً كأنه أمر عادي ، ثم قال : « الحمد لله الذي جعل في أمة محمد من يقوّم أمير المؤمنين بسيفه » .

وكما قلنا ما أكثر وأروع مواقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فهذه قصة مشهورة كلها العدل والمساواة بين المسلمين وغير المسلمين ، حيث أرسل أحد أقباط مصر خطاباً إلى أمير المؤمنين يشكو فيه ابن عمرو بن العاص ابن والي مصر ، وذكر في خطابه أن ابن عمرو بن العاص ضربه وقال له : « أنا ابن الأكرمين » فغضب عمر غضباً شديداً وأرسل في طلب الجميع ، ونظر عمر إلى عمرو بن العاص قائلا جملته الخالدة : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » . ثم ناول القبطي الشاكي سوطاً وقال له : « اضرب ابن الأكرمين كما ضربك » .

وصعد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب على المنبر مرة ليخطب في الناس فلاحظ الصحابي سلمان الفارسي رضي الله عنه أن

ثوب أمير المؤمنين طويلا وكان عمر رضي الله عنه طويل القامة فاعترض سلمان على هذا الأمر ، لأن القماش الذي وزع على كافة المسلمين لا يكفي لمثل هذا الثوب الطويل ، وليس في هذا عدالة للتوزيع ، فنادى عمر على ابنه وأمره أن يخبرهم بالحقيقة وفوجيء جميع الجالسين أن عمر أخذ نصيب ابنه وأكمل به رداءه .

وهذا مثل آخر قمة في العدالة والمساواة ، أسلم جبلة بن الأيهم الملك الغساني وجاء إلى مكة في خمسمائة فارس من قومه وقد لبسوا ثياب الوشي المنسوجة من الذهب والفضة ، وفي أثناء الطواف بالبيت العتيق ، داس رجل من فزارة على رداء جبلة ابن الأيهم فحله ، فالتفت جبلة غاضباً ولطمه فهشم أنفه ، فذهب الفزاري إلى عمر بن الخطاب شاكياً فبعث عمر إلى جبلة وسأله عن سر اعتدائه على الفزاري ، فأجاب جبلة قائلا : (انه وطيء إزاري فحله ولولا هذا البيت لأخذت الذي فيه عيناه) .

فقال عمر : أما أنت فقد أقررت ، إما أن ترضيه وإلا أقدته منك .

قال جبلة : أتقيده مني وأنا ملك وهو سوقة ؟

فقال عمر : يا جبلة ، انه قد جمعك وإياه الإسلام فما تفضله بشيء إلا بالعافية .

قال جبلة : والله لقد رجوت أن أكون في الإسلام أعز مني في الجاهلية .

فقال عمر : دع عنك هذا

قال جبلة : إذن أتنصر .

فقال عمر : إن تنصرت ضربت عنقك لأنك تصبح مرتدا .

قال جبلة : أخرني إلى غد يا أمير المؤمنين .

فأجابه عمر إلى طلبه ، ولما كان الليل هرب جبلة وفرسانه وظلوا يضربون في الأرض حتى دخلوا القسطنطينية فتنصروا ، وعاشوا في حماية هرقل وبعد مدة من الزمان حن جبلة إلى الإسلام الذي سوى بين الناس ، وندم على فعلته وبكى قائلا (١) :

تنصرت الأشراف من خوف لطمة
وما كان فيها لو صبرت لها ضرر

تكنفني منها لجاج ونخوة
وبعت لها العين الصحيحة بالعور

فيا ليت أمي لم تلدني وليتني
رجعت إلى القول الذي قاله عمر

ويا ليتني أرعى المخاض بقفرة
وكنت أسيراً في ربيعة أو مضر

فيا ليت لي بالشام أدنى معيشة
أجالس قومي ذاهب السمع والبصر

وإذا جئنا رابع الخلفاء الراشدين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، فله موقف غاية في احترام العدل والمساواة بين الناس

---

١ ـ الدكتور مصطفى الشكعة : اسلام بلا مذاهب (ص ٦١) .

عامة ، مسلمين وغير مسلمين حيث ذهب رجل يهودي إلى عمر ابن الخطاب رضي الله عنه يشكو علي بن أبي طالب لأمر من الأمور ، فلما مثل أمام أمير المؤمنين لاحظ أن الخليفة يخاطبه بكنيته بقوله : يا أبا الحسن ، فاكتسى وجه علي بمسحة من الغضب ، فقال عمر : أكرهت أن يكون خصمك يهودياً وأن تمثل معه أمام القضاء على قدم المساواة ؟ فأجاب علي لا ، ولكنني غضبت لأنك لم تسو بيني وبينه ، بل فضلتني عليه ، إذ خاطبته باسمه وخاطبتني بكنيتي .

واستمرت هذه الصورة المشرقة للإسلام أياماً طوالا ، فإذا توقفنا عند عهد أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه نجد أنه لم يكن هناك فقير يأخذ الزكاة من بين المسلمين فأمر أن يشترى بها الرقيق لتخليصهم من الرق بالعتق .

وإذا اتجهنا إلى أوروبا ، وإلى الأندلس التي ارتقى بها الإسلام ورفعها وجعلها أكثر الدول الأوربية تقدما ، وفي عصر الخليفة عبد الرحمن الثالث (عبد الرحمن الناصر) كان منذر بن سعيد إماماً للمسجد الكبير في قرطبة ، وكان الخليفة يصلي دائماً خلفه ، وفي إحدى خطب منذر بن سعيد انتقد الخليفة انتقاداً لاذعاً ووجه إليه اللوم حتى كادت أن تقوم ضد الخليفة ثورة ، وكان الخليفة بين الجالسين وثار ابن عبد الرحمن على منذر بن سعيد ، ولكن عبد الرحمن الناصر هدأ من روع ابنه ، وعرفه بأن هذا هو الإسلام .

وأعظم صورة من صور الديمقراطية « صورة الحج » ولن أنقل من كتب المسلمين عن الحج ، ولكني سأنقل من كتب إحدى المستشرقات « تساريس وادي » من كتابها « العقل السليم »

حيث تقول : « ان المسلمين ينتقلون بكل الطرق بالبر والبحر والجو ، كلهم يصبون في طريق واحد ويجتمعون في مكان واحد وهم يختلفون في الأزياء والأجناس والألوان واللهجات والمكانة الاجتماعية والغنى والفقر . . الخ . . ثم يلبسون ملابس الإحرام ، فإذا هم جميعاً سواء في كل شيء ، الملك والسوقة ، الغني الواسع الثراء والفقير المدقع الفقر ، ومن ينحدر من سلالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن أسلم منذ يوم واحد . كلهم يقفون عبيداً خاشعين للخالق الأعلى ، والله لا ينظر إلى مظاهر الناس وإنما ينظر إلى قلوبهم ، يطلع على ما يكنه كل ضمير منهم ، وها هم أولاء في هذا الموقف قد تجردوا من كل مظهر يميز بين شخص وآخر ، أو يدل على مكانته المميزة في هذه المواقف قد تجردوا من كل ذلك انها مواقف اخلاص ومساواة ، أليست هذه هي الديمقراطية الحقة ؟

أليس هذا التجرد ، وهذا الموقف جديراً بأن يكسر غرور المغرورين ويحط من كبرياء المتعالين ويجعل الناس يشعرون أن الدنيا حطام زائل ومظهر لا بقاء له ؟ أليس هذا أيضاً مما يرفع نفسية الضعيف الواهن ، والفقير العاني والعاقر الذي لا ولد له ، ومن هو محروم من أي متعة في هذه الحياة ؟ أنه بدوره يشعر أن ما يتمتع به الآخرون من الأعراض الزائلة التي لا ينبغي أن يفرح أحد بها أو يحزن على فواتها (١) .

---

١ ــ د. عبد الجليل شلبي : صور استشراقية (ص١١٥ـ١١٦) .

المساجد في التاريخ

اول مسجد فى الاسلام :

قال الله تعالى :

« لمسْجِدٌ أسِّسَ على التّقْوى مِن أوّل يوم ٍ أحَقّ ُ أن تقُومَ فِيهِ فيهِ رِجالٌ يُحبُّون أن يتطَهّروا واللهُ يُحِبُّ المطّهرينَ » . (التوبة : ١٠٨)

ما من شلك أن الفترة التي كان يعيشها العالم قبل الإسلام كانت فترة جاهلية مظلمة يعاني أغلب شعوبها وطأة الحكم الفردي المستبد التي انحرفت بالبشر عن هداية السماء ، وأبعدتهم عن كتب الله التي أنزلها سبحانه على أنبيائهم ، وحرفوها تبعاً لأهوائهم وشهواتهم .

وكانت ذروة الظلم والانحراف قبل مجيء رسول الله صلى الله عليه وسلم مباشرة ، فكان العالم في تلك الآونة من التاريخ في حاجة ماسة إلى مصلح قوي وعظيم ، يهدي الناس أجمعين إلى الحق والصراط المستقيم ، فبعث الله سبحانه رسوله الأعظم ليهدي الناس إلى سواء السبيل ، وأنزل الله قرآنه الكريم على رسوله منهجاً ودستوراً لهذا الإصلاح لبناء أمة جديدة تطبق هذا الدستور ، وتحمل أمانة الدعوة وتجاهد في سبيل الله ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر .

وبدأت الدعوة الإسلامية في مكة ، وكانت آنذاك معقلا للوثنية الفاسدة وحاربت قريش هذه الدعوة بكل ما تستطيع من قوة ، بكل الوسائل الظاهرة منها والخفية ، ولم يحارب نبي أو رسول مثلما حورب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ اتحدت عليه فرق ثلاث : (الفريق الأول من المشركين من عبدة الأصنام والمجوس وأمثالهم) .

أما (اليهود) فكانوا يشكلون الفريق الثاني .

أما الطائفة الثالثة فكانت فريقاً من بعض النصارى الذين حرفوا كلام الله وقالوا أن المسيح هو الله تارة ، وابن الله تارة أخرى .

وكانت الحروب ضد الإسلام في بدايتها ، وما زالت حتى اليوم — غاية في الشراسة والعنف ، وفي أواخر العهد المكي ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف يلتمس نصرة ثقيف والمنعة بهم من قومه ، بعد وفاة عمه أبي طالب ويدعوهم إلى دين الحق الذي تصدت له قريش بالمقاومة والاضطهاد — وهناك قابل ثلاثة أشقاء أبناء عمرو بن عمير الثقفي (١) هم سادة ثقيف .

وكان رد الأول أنه يمرط ثياب الكعبة (٢) إن كان الله قد أرسله .

وقال الثاني : أما وجد الله أحداً يرسله غيرك ؟

---

١ — د. بنت الشاطىء . مع المصطفى فى عصر البعث (ص ٩٥).
٢ — ان ينزعها ويرميها .

ورد الثالث : والله لا أكلمك أبدا ، لئن كنت رسولا من الله كما تقول ، لانت أعظم خطرا من أن أرد عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على الله فما ينبغي أن أكلمك .

وهكذا لم يجد رسول الله صلى الله عليه وسلم في الطائف إلا التكذيب لدعوته ، وفي موسم الحج خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم كدأبه في كل موسم – يعرض الإسلام على وفود القبائل وبلغ « العقبة » فلقي رهطاً من أهل يثرب آمنوا به وبدعوته وكانوا نواة الأنصار وتمت « بيعة العقبة » .

وهاجر رسول الله صلي الله عليه وسلم إلى يثرب ووصل إلى ضاحية من ضواحيها تبعد عنها حوالي ثلاثة كيلومترات – يقال لها «قباء» (بضم القاف) وهي قرية عرفت باسم بئر هناك ، وفيها منازل بني عمرو بن عوف الأنصاري ، وظل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها بضع ليال (١) وكان لا بد للمسلمين من مكان يجتمعون فيه بالنبي الكريم ويقيمون فيه الصلاة ، فاختار رسول الله صلى الله عليه وسلم مكاناً لإقامة المسجد ، ويذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أول من وضع حجراً في قبلة هذا المسجد ، ثم جاء أبو بكر رضي الله عنه بحجر فوضعه إلى حجر رسول الله صلى الله

---

١ – هناك وجهات نظر فى المدة التى قضاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قباء فعن قوم من بنى عمرو بن عوف انه قام فيهم اثنين وعشرين يوما رواه السهيلى (محمد طاهر مكى : التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم ص ٢٥٤) . وفى البخارى عن حديث انس : اقام فيهم اربع عشرة ليلة وهو المراد بما فى رواية عائشة بقولها بضع عشرة ليلة ، وقال موسى بن عقبة ثلاثا وقال عروة : ثلاث ليال ، الثلاثاء والاربعاء والخميس كما جزم به ابن حبان . وقال ابن اسحق : اقام فيهم خمسا ، وفى ذخائر العقبى لم يقم بقباء الا ليلة او ليلتين .

عليه وسلم ، ثم عمر ، ثم عثمان ، رضي الله عنهما ، وتعاون الصحابة من المهاجرين والأنصار في البناء فأقبلوا على العمل بهمة ونشاط ، وشاركهم الرسول عملهم فكان ينقل معهم الحجارة ويحمل التراب ، وتم بناؤه في أيام قليلة (١) .

ولم يكن مسجد « قباء » كمساجد اليوم من ناحية الزخرفة ولكنه كان غاية في البساطة والتواضع ، أرضه من الحصى ، منبره جذع شجرة ، سقف منه جزء وترك أغلبه مكشوفا .

ولقد ذهب معظم المؤرخين كتاب السير على أن أول مسجد بني في الإسلام هو مسجد قباء ، الذي يقال له مسجد التقوى ، لقوله تعالى :

« لمسْجِدٌ أُسّسَ عَلى التّقْوى مِن أوّل يَوم ٍ أَحقّ أن تقُومَ فيهِ ، فيهِ رِجالٌ يُحبُّون أَن يتطهّروا واللهُ يُحب المطّهرينَ » .

ويروي أبو سعيد الخدري : تمارى رجلان ، رجل من بني خدرة ، ورجل من بني عمرو بن عوف في المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم ، فقال العمري هو مسجد قباء ، وقال الخدري هو مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ، فأتيا الرسول فسألاه عن ذلك ، فقال هو هذا المسجد (أي مسجد المدينة) (٢) .

ويروي السهيلي – وينقل عن ابن فضل الله العمري – في قوله عز وجل :

---

١ – تفسير ابن كثير والبغوى : تفسير الآية المذكورة .
٢ – ابن كثير : سيرته (٣١١:٢) .

« مِن أوّل يَوْم »

يقتضي أن يكون مسجد قباء ، لأن تأسيسه كان من أول يوم حل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم دار هجرته .

ويقول الحافظ ابن حجر (١) أن السر في جوابه صلوات الله عليه دفع توهم أن التقوى مقصورة على مسجد قباء .

وعن الصلاة في مسجد قباء روى الترمذي عن أسيد بن طهير عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الصلاة في مسجد قباء كعمرة » وعن عائشة بنت سعيد بن أبي وقاص قالت : سمعت أبي يقول : « لأن أصلي في مسجد قباء ركعتين أحب إليّ من أن آتي بيت المقدس مرتين ، لو يعلمون ما في قباء لضربوا إليها أكباد الإبل » .

وورد في الصحيحين عن ابن عمر أنه قال : «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزور قباء أو يأتي قباء راكباً أو ماشياً » وعن سهل بن حنيف قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من تطهر في بيته ، ثم أتى مسجد قباء فصلى فيه صلاة كان له كأجر عمرة (٢) » .

وعن محمد بن المذكور قال : «كان النبي صلى الله عليه وسلم يأتي بقباء صبيحة سبع عشرة من رمضان » . وروى ابن شيبة عن شريك بن عبد الله بن أبي نصر : « أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يأتي قباء يوم الإثنين » (٣) .

---

١ ـ السمهوري : وفاء الوفاء (٢:١٦) .
٢ ـ محمد طاهر المكى : التاريخ القديم لمكة وبيت الله الكريم (ص ٢٥٥) .
٣ ـ السابق (ص ٢٦٤) .

وعن أبي غزية قال : « كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يأتي قباء يوم الإثنين ويوم الخميس » (١) .

وفي قباء قيل (٢) :

إذا كنت في أرض العوالي تشوقت
لأرض « قباء » نفسي فيهـا المؤمل

وإن كنت فيها قالت النفس ليت لي
بأرض العـوالي يـا خليلي منزل

فيا ليت أني كنت شخصين فيهمـا
ويا ليت في التحقيق أن لا تعلل

هذا هو ما كان من أمر مسجد قباء ، على أن أول مسجد ثابت في التاريخ والمعالم هو مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة . فقد دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة على ناقتـه القصواء ، يقول الزهيري (٣) :

(بركت ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم عند موضع مسجده، وهو يومئذ يصلي فيه رجال من المسلمين وكان مربداً لسهل وسهيل غلامين يتيمين من الأنصار ، وكانا في حجر أسعد ابن زرارة ، فسام (ساوم) الرسول صلى الله عليه وسلم فيه فقال : (نهبه لك يا رسول الله) ، فأبي رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ابتاعه منهما بعشرة دنانير ، ويضيف الزهيري :

---

١ ـ السابق (ص ٢٦٤) .
٢ ـ السابق (ص ٢٦٥) .
٣ ـ اعلام الساجد (ص ٢٢٣) .

وكان يصلى فيه ويجتمع أسعد بن زرارة قبل مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان فيه شجر غرقد ونخل وقبور المشركين.

وفي خلاصة الوفاء(١) قال الغلامان : بل نهبه لك يا رسول الله فأبي رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقبله هبة حتى ابتاعه منهما بعشرة دنانير ذهباً ودفعها أبو بكر الصديق رضي الله عنه .

وقال أنس (٢) : فأمر النبي بالنخل فقطع ، وبقبور المشركين فنبشت وبالخرب فسويت قال : وصفوا النخل قبلة ، وجعلوا أعضا ديته حجارة .

ويقول ابن كثير(٣) : فكانوا يرتجزون ورسول الله صلى الله عليه وسلم معهم وهو يقولون :

هذا الحمال لا حمال خيبر هـــذا أبر ربنا وأطهر

ويقولون :

لا هم إن الأجر أجر الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة

ولم يستغرق البناء أكثر من أيام معدودات وكان مبنى المسجد غاية في البساطة والتواضع ، بعضه من حجارة مرصوصة ، وبعضه من جريد يمسكه الطين والسقف كله من جريد ، وقيل أن القبلة من اللبن وقيل من حجارة وجعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس .

ومن حول المسجد بنيت تسع حجرات تفتح على ساحته ، لتكون دار المصطفى المهاجر(٤) . وأما عن مساحة المسجد فيقول

---

١ ـ محمد طاهر المكى : التاريخ القــديم لمكة وبيت الله الكـريم (ص ٢٦١) .

٢ ـ ابن فضل الله العمرى : مسالك الامصار (ص ١٢٣) .

٣ ـ تحقيق مصطفى عبد الواحد : السيرة النبوية (٢:٣٠٤) .

٤ ـ د. بنت الشاطىء : مع المصطفى فى عصر البعث (ص١٣٣) .

خارجة بن زيد : بنى رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجده سبعين ذراعاً في ستين ذراعاً وكان للمسجد ثلاثة أبواب ، باب جبريل ، وباب النساء ، وباب الرحمة .

ولا تزال الأبواب تعرف بأسمائها حتى الآن .

وفي عهد الخلفاء الراشدين لم يزد أبو بكر رضي الله عنه شيئاً في المسجد ، وزاد فيه عمر بن الخطاب وبناء على بنيانه في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم باللبن والجريد ، وكانت جذوع النخل قد تعرت فأعاد عمده خشباً ثم غير عثمان (كما في صحيح البخاري) فزاد فيه زيادة كبيرة جعل طول المسجد مائة وستين ذراعاً وعرضه مائة وخمسين ، وجعل أبوابه ستة كما كانت في زمن عمر بن الخطاب ، وامتدت الزيادة إلى أن دخلت بيوت أمهات المؤمنين فيه ومنها حجرة عائشة رضي الله عنها (وهي التي دفن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصاحباه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما) فبنوا على القبر حيطاناً مرتفعة مستديرة حوله لئلا يظهر في المسجد فيصلي إليه العوام ، ويؤدي إلى المحذور الذي نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم من اتخاذ المساجد على القبور ، فهو القائل : (لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) والقائل : اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) .

ثم بنوا جدارين من ركني القبر الشماليين خرقوهما حتى التقيا ، كل ذلك حتى لا يتمكن أحد من استقبال القبر ولهذا قالت عائشة رضي الله عنها (ولولا ذلك لبرز قبره غير أنه خشي أن يتخذ مسجداً) .

وكان مسجد الرسول هو نقطة الانطلاق للبناء الاجتماعي المتكامل للأسرة والجماعة ، وفيه صهر المؤمنين في بوتقة الإسلام في وحدة شاملة كاملة على أساس العقيدة الصافية النقية الطاهرة ، نابذين عصبية الجاهلية الأولى التي بنيت على الأساس القبلي ، ففي المسجد كانت حياة صحابة وتلاميذ رسول الله صلى الله عليه وسلم أقاموا الصلاة ، وتلقوا العلم فيه ، وتشاوروا في كل أمور دينهم ودنياهم وفي هذا المسجد عقدت المعاهدات ، واستقبل سفراء الدول ووفود القبائل وأقيمت المناسبات المختلفة ومن هذا المسجد أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثاته ونوابه إلى كل مكان وجهز فيه ألوية الجيوش هكذا كان المسجد فلم يكن معبداً للصلاة فحسب ، بل أراد له رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون شأنه شأن الإسلام نفسه ، متكامل الجوانب في الدين والدنيا معاً .

ولهذا حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على حث المسلمين على بناء المساجد ، حتى صارت كثيرة في زمنه ، اتخذ أكثرها مدارس للتعليم(١) كما كانت حلقات العلم تعقد في مسجد قباء وكان من عادة الرسول صلى الله عليه وسلم أن يجلس في مسجده بالمدينة المنورة ليعلم أصحابه شئون دينهم ودنياهم(٢) .

وما دمنا بصدد أول مسجد بناه رسول الله صلى الله عليه وسلم في الإسلام فإن أول بيت وضع لعبادة الله منذ أقدم العصور هو الذي بناه إبراهيم الخليل عليه أفضل السلام لقوله تعالى :

---

١ ـ د. احمد شلبى : التربية الاسلامية (ص ٤٥ـ٧٧) .
٢ ـ همام بن منبه : صحيفته (ص ١٦) تحقيق محمد عبد الله .

« إنَّ أوَّلَ بيْتٍ وُضعَ للنّاسِ للذي ببَكّةَ مُباركاً وَهُدًى للعالمين * فيهِ آياتٌ بيّناتٌ مَقامُ إبراهيمَ، ومَنْ دَخلَهُ كانَ آمِناً وللهِ على النّاس حجُّ البَيْت من اسْتطاع إليْهِ سَبيلا ومنْ كَفَرَ فإنَّ اللهَ غنيٌّ عَن العالمين » .

(آل عمران : ٩٦ ، ٩٧)

يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية : يخبرنا تعالى أن أول بيت وضع للناس : أي لعموم الناس لعبادتهم ونسكهم يطوفون به ، ويصلون فيه ويعتكفون فيه (للذي ببكة) يعني الكعبة الشريفة التي بناها إبراهيم الخليل عليه السلام الذي يزعم كل من طائفتي اليهود والنصارى أنهم على دينه ومنهجه ولا يحجون البيت الذي بناه عن أمر الله في ذلك له ، ونادى الناس إلى حجه ولهذا قال (مباركاً) أي وضع مباركاً (وهدى للعالمين) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سفيان عن الأعمش عن إبراهيم التيمي عن أبيه عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قلت يا رسول الله : أي مسجد وضع أول ؟ قال (المسجد الحرام) قلت : ثم أي ؟ قال (المسجد الأقصى) . . قلت كم بينهما قال (أربعون سنة) قلت ثم أي ؟ قال : (ثم حيث أدركتك الصلاة فصل فكلها مسجد) .

(أخرجه البخاري ومسلم عن حديث الأعمش به) .

وقال ابن أبي حاتم (بسنده عن الشعبي) في قوله تعالى :

« إنَّ أوَّلَ بيْتٍ وُضعَ للنّاس للذي ببَكّةَ مُباركاً » .

كانت البيوت قبله ولكنه أول بيت وضع لعبادة الله ، قام رجل إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال : ألا تحدثني عن البيت : أهو أول بيت وضع في الأرض ؟ قال : لا ، ولكنه أول بيت وضعت فيه البركة مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً .

ويقول ابن كثير عن (للذي ببكة) : بكة من أسماء مكة على المشهور ، قيل(١) سميت بذلك لأنها (تبك) أعناق الظلمة والجبابرة بمعنى أنهم يذلون بها ويخضعون عندها ، وقيل : لأن الناس يتباكون فيها أي يزدحمون ، قال قتادة إن الله بك به الناس جميعاً ، فيصلى أمام الرجال ، ولا يفعل ذلك ببلد غيرها .

وذكر حماد بن سلمة (بسنده) عن ابن عباس رضي الله عنه : مكة من الفج إلى التنعيم ، وبكة من البيت إلى البطحاء ، وقال شعبة عن المغيرة عن إبراهيم : بكة البيت والمسجد ، وكذا قال الزهري ، وقيل : بكة موضع البيت وما سوى ذلك مكة.

وقد ذكروا لمكة أسماء كثيرة : مكة ، وبكة ، والبيت العتيق ، والبيت الحرام ، والبلد الأمين ، والمأمون ، وأم القرى ، وصلاح ، والقادس لأنها تطهر من الذنوب والناسة ، بالنون والباء أيضاً ، والحاطمة ، والرأس وكوثاء ، والبلدة والبينة والكعبة .

أما قوله تعالى « **فيه آيات بينات** » دلالة ظاهرة على أنه من بناء إبراهيم عليه السلام ، وأن الله عظمه وشرفه .

وقال أبو طالب في قصيدته اللامية المشهورة :

---

١ ـ تفسير كثير والبغوى : تفسير الآية المذكورة ، نقلت بتصرف .

وموطيء إبراهيم في الصخـــر رطبة
على قدميـــه حافياً غير نامـــــل

وقال عمرو بن سعد لأبي شريح(١) : (إن الحرم لا يعيذ عاصياً ، ولا فاراً بدم ولا فارا بخزية) . وعن جابر رضي الله عنه قال : (سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا يحل لأحد أن يحمل السلاح بمكة) . (رواه مسلم) .

أما عن سبب نزول هذه الآية هو أن اليهود قالوا للمسلمين : بيت المقدس قبلتنا وهو أفضل من الكعبة وأقدم ، وهو مهاجر الأنبياء ، وقال المسلمون : الكعبة أفضل .

فأنزل الله الآية :

« إنَّ أوَّلَ بيْتٍ وُضِعَ للنّاس للذي بِبَكّة مُباركاً وَهُدًى للعالمين فِيهِ آيات بيّنات مقَامُ إبراهيمَ ومن دَخَلَهُ كانَ آمناً » .

وليس شيء من هذه الفضائل لبيت المقدس .

ولا يفوتني في هذا المقام أن اذكر شيئاً عن المسجد ذي القبلتين.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس(٢) : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هاجر إلى المدينة أمره الله أن يستقبل بيت المقدس ، ففرحت اليهود فاستقبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم بضعة عشر شهراً(٣) . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب قبلة إبراهيم ، فكان يدعو الله وينظر إلى السماء .

---

١ ــ تفسير ابن كثير والبغوى .
٢ ــ ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (١:٢٧٤) .
٣ ــ ستة عشر شهرا ، او سبعة عشر شهرا (السابق (ص٢٧٩) .

وقد جرت مشيئة الله تعالى أن يمتحن المسلمين ومبلغ استمساكهم بهذا الدين وإذعانهم لربهم(١) لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يستقبل الكعبة قبل الهجرة .

ويروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان قد نزل ضيفاً في بني سلمة بضواحي المدينة ، فلما حان الظهر (وقيل العصر) صلى بأصحابه ركعتين ثم أمره الله سبحانه وتعالى بأن يتخذ الكعبة قبلة له :

« قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وجْهِكَ في السَّماء فَلَنُوليَنَّك قِبْلَةً ترْضاها فوَلِّ وجْهَكَ شَطْرَ المَسْجِدِ الحَرَام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره . وإنَّ الذين أُوتوا الكتَابَ ليَعْلَمُونَ أنَّه الحقّ من ربهم وما الله بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُون » .

(البقرة : ١٤٤)

فاستدار رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في صلاته واستقبل الميزاب من الكعبة (مثلما كان يستقبل وهو في مكة) وسمى هذا المسجد (مسجد القبلتين) وكان ذلك في النصف من شعبان من العام الثاني للهجرة .

واشتد استياء اليهود من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا له (يا محمد ، ما ولاك عن قبلتك التي كنت عليها ، وأنت تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه ارجع إلى قبلتك التي كنت عليها نتبعك ونصدقك) . فنزل جبريل عليه السلام بالآية الكريمة :

---

١ ـ الطبرى (٢:٢٤٥) .

« سَيَقُولُ السُّفهاءُ مِنَ النَّاسِ ما ولاَّهم عن قبلتهم التي كانُوا عليها قُلْ للهِ المَشْرقُ والمَغْربُ يهْدي مَنْ يشَاءُ إلى صِرَاطٍ مُسْتقيم » . (البقرة : ١٤٢)

وبعـــد :

إن المساجد بيوت الله جميعاً ، فيها يذكر اسم الله ويقول سبحانه وتعالى :

« وأنَّ المَسَاجِدَ للهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ الله أحداً » .

ولكن أفضل هذه المساجد جميعاً وأحبها إلى المسلمين عامة هي على الترتيب : المسجد الحرام بمكة ، والمسجد النبوي بالمدينة المنورة ، والمسجد الأقصى ببيت المقدس ، تلك التي قال عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد مسجدي هذا ، والمسجد الحرام ، والمسجد الأقصى) .

(رواه الشيخان والنص لمسلم) .

أما النص في البخاري : (لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدي هذا ، والمسجد الأقصى) .

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (فضل الصلاة في المسجد الحرام على غيره بمائة ألف صلاة ، وفي مسجدي بألف صلاة وفي مسجد بيت المقدس بخمسمائة صلاة) .

عمارة المساجد وطرزها(١) :

عندما نتحدث عن المسلمين فإنه ــ بلا شك ــ تتوارد إلى الأذهان صورة ذلك المصلى الهاديء ، والجامعة المفتوحة

---

١ ــ مجلة اليمامة السعودية ــ العدد ٦٦٠ .

والأبواب لكل راغب علم ، وقلعة الإيمان التي تذود عن حياض الدين .

والمسجد في الإسلام كما يقول الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار مدرسة وجامعة ومتنزه ، ولا يحسن به إلا ما كان طيباً وحسناً وفاضلا .

إذن فالمسجد لم يكن في يوم من الأيام ذا وظيفة واحدة فقط ، بل كان متعدد الوظائف وقد حرص المسلمون منذ أقدم العصور على عمارته وتفننوا في إبداع نواحيه ، فجاءت عمارتهم له شاهدة على مدى تغلغل الدين في وجدانهم ذلك أنها لم تكن مجرد زخارف بل إن الناظر إليها كان يجدها مشبعة بالروحانية الشفافة ومن هنا كانت أهمية إعداد ملف عن المساجد تاريخها وعمارتها ودورها عن قناعة بأن الجيل الناشيء من المسلمين يرغب في المزيد من المعرفة حول هذا الموضوع .

المسجد كان فى عصور الاسلام الاولى أمـل الشباب ومكانهم المفضل :

يقول الدكتور حسن الشرقاوي : (لقد كان المسجد في عصور الإسلام الزاهرة أمل الشباب ومكانهم المفضل ، فقد ارتبط أقوى ارتباط بالتربية الإسلامية في عصورها اليانعة المزدهرة ، فمنذ أن شيدت الدولة الإسلامية وهي تعاون بشتى الوسائل على قيام حلقات الدرس بين جنبات المسجد وأروقته تدعو فيها كبار الأساتذة والعلماء لشرح أصول الدين الحنيف وتوضيح أحكامه وإظهار محاسنه وأهدافه والتعرف على أسرار شريعته .

لقد كان المسلمون يقيمون المساجد في كل مدينة افتتحوها في مسيرتهم الظافرة لإعلاء كلمة الله ، ولم يكن المقصود في بناء هذه المساجد في مشارق الأرض ومغاربها أن تكون دوراً للعبادة فحسب ، بل قصد بها أن تكون أيضاً معاهد للتعليم ومجالس ومنتديات للاجتماع بين المسلمين) .

وعلى مدى التاريخ الإسلامي الطويل كان المسجد من ركائز الجماعات الإسلامية وحارساً للعالم الإسلامي وفضلا عن الجانبين الروحي والتعليمي للمسجد أدت المساجد على مدى العصور دوراً اجتماعياً بارزاً يمكننا أن ندركه إذا ما طالعنا كتابات الرحالة المسلمين كابن بطوطة وابن جبير وغيرهما ، فهؤلاء كانوا إذا ما نزلوا في بلد لا يوجد به أحد يعرفونه يتوجهون مباشرة إلى المسجد وهناك يعرفون ما يريدون عن أسعار الفنادق والمعيشة ، وكثيراً ما كانوا يحلون في ضيافة رجل من البلد تعرفوا عليه في المسجد لتوهم .

وإلى جانب ذلك كان للمسجد دور مهم في الدعوة إلى الجهاد فعلى منبره كان الخطباء يتبارون في التعبئة الروحية للمصلين من أجل الدعوة إلى الله ، وفي داخله كانت مدرسة تعلم الكبار والصغار الشجاعة وتبث فيهم التضحية والإقدام .

كما أن المساجد كانت — والكلام للدكتور حسين مؤنس — مراكز اتصال بين أفراد الجماعة الإسلامية كما كانت — في أحيان كثيرة جداً — النواة التي نشأت حولها جماعة إسلامية جديدة ، حيث كان التجار والمهاجرون المسلمون إلى بلد غير إسلامي يقيمون زاوية فتنشأ حولها جماعة جديدة ، ثم يقوم أهل

هذه الجماعة بإنشاء زاوية جديدة ، لتلتف حولها جماعة إسلامية جديدة وبهذه الطريقة تغلغل الإسلام في مناطق شتّى من آسيا وأفريقيا .

ويذكر لنا التاريخ أن مساجد الإسلام الأولى كالمسجد الحرام والمسجد النبوي الشريف وجامع قرطبة والجامع الأزهر وغيرها كانت أشبه بمنارات أضاءت الدروب لأجيال عديدة ، وعنها نقل الغرب الكثير من العلوم والمعارف ، وحتّى في عصور التخلف ظلت هذه المساجد منارات شامخة ، ومراكز تذود عن حمى الوطن والدين . ومن ذا يمكنه أن ينسى أو ينكر ما كان للأزهر مثلا من دور في مقاومة الحملة الفرنسية على مصر والشام ، ثم مقاومة الاحتلال الانجليزي ذلك الدور الذي استطاع أن يؤديه باقتدار علماء مخلصون آمنوا بأن رسالتهم لا يمكن أن تحصر في الصلاة ، بل هي في شموليتها تتجاوز ذلك لتشمل التوعية بأمور الدين والدنيا .

وقد ظلت المساجد على مدى التاريخ البشري تقوم بهذه الأدوار جميعاً على أفضل وجه ، بل إن هذا الدور يشهد حالياً مؤشراً عصرياً للتطور ، لمواجهة الجمود الذي لحق برسالة المسجد خلال القرن الحالي ، والذي جعل رسالته تقتصر على الجانب التقليدي فقط ألا وهو إقامة شعائر الصلاة .

ومن أبرز نماذج هذا التطور العصري في رسالة المسجد ، المسجد الذي أقامه الدكتور مصطفى محمود العالم المشهور بتفسيراته العلمية للقرآن الكريم فهو إلى جانب كونه داراً للعبادة وأداء شعائر الصلاة ، يضم مستشفى ومستوصفاً ومشغلا وداراً للحضانة

ومكتبة ومدرسة وفصول تقوية وخدمات عامة واستشارات دينية ، كما تلقى في رحابه كل يوم دروس عقب صلاتي العصر والعشاء والجمعة ويقوم المسجد إلى جانب التفقيه في أمور الدين بإصدار الكتب ومراجعة المواد العلمية والدينية والصحفية ، وبه مركز تدريب صغير على الحرف الأساسية وصندوق زكاة ووجبات غذائية للفقراء ، وكل هذه يتم تمويلها عن طريق التبرعات التي يتقدم بها الموسرون من المسلمين .

ويعد هذا المسجد نقلة جديدة في العصر الحديث ، وإضافة إلى الأدوار المهمة التي اضطلع بها المسجد منذ أقدم العصور ، إذ أنه بما يحوي يمكن اعتباره بالمقياس العصري مركزاً إسلامياً جامعاً ، وهو خطوة جيدة لما يجب أن يكون عليه حال المسجد في مجتمعنا الإسلامي المعاصر .

عناصر عمارة المسجد :

لقد كان أمراً واضحاً مع ظهور الإسلام في قلب الجزيرة العربية أن هذه العقيدة الحنيفة تقوم على أسس من البساطة والروحانية ، ولهذا كان متوقعاً وهذه المباديء تحكم الشريعة الإسلامية أن تتمشى الخطة العامة للمساجد مع الصورة العامة للإسلام ككل ، من حيث البساطة والوضوح وعدم الغلو في شيء .

والمتأمل للصورة التي عليها المساجد في مقابل الصورة التي عليها الكنائس وغيرها من أماكن العبادة ، يجد البساطة اللامتناهية في مقابل الأبهة والغموض الذي يكتنف تلك المعابد ، فالمسجد في الإسلام – والكلام للدكتور مؤنس – فكرة وروح ، فأما

الفكرة فهي التي وضعها رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما بنى مسجده الأول ، وأما الروح فهي روح الإسلام .

ونحن إذا ما تأملنا عناصر عمارة المسجد ، نجدها قد سارت فيما تضمه على نهج التصميم المعماري لمسجد الرسول في المدينة المنورة ، فهي تضم بيت الصلاة ، والصحن ، والقبلة ، والمحراب ، والمنبر وتلك هي العناصر الرئيسية في عمارة المساجد .

فأما بيت الصلاة فهو الجزء المسقوف من المسجد ناحية القبلة ومساحته تختلف من مسجد لآخر وعصر إلى عصر ، والصحن هو الجزء غير المسقوف ، وقد كان في وقت من الأوقات في البداية ينظر إليه كامتداد لبيت الصلاة يستعمل في مناسبات الصلوات الجامعة ، ولا يعد في غير ذلك جزءاً من المصلى ، وكان يستعمل للسمر والبيع والشراء إلا أن الفقهاء أخذوا يحددون الاستعمالات ، حتى حرموا أي عمل لا يتصل بالصلاة في الصحن ثم اعتبرت الصحون أجزاء أساسية من المساجد .

وأما القبلة فهي صدر المسجد وجداره المتجه إلى بيت الله الحرام في مكة المكرمة ، وقد كانت قبلة مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام في أول الأمر متجهة إلى بيت المقدس إلى أن نزل أمره سبحانه وتعالى بتحويلها إلى المسجد الحرام .

والقبلة إحدى ظواهر العبادة التي انفرد بها المسلمون عن غيرهم من أهل الديانات السماوية وغير السماوية ، وهي رمز لوحدة الجماعة الإسلامية فالله – تبارك وتعالى – موجود في كل مكان ، فالهدف من القبلة هو العودة إلى الواجهة الواحدة لدين الله ، والمحراب هو الموضع الذي يقف تجاهه الإمام عند إمامته

للصلاة وقد اختلفت المعاجم في تفسير اللفظ وليست هناك أية فكرة في المعاجم العربية عن التطور التاريخي للفظ محراب .

والمحاريب المحنية لم تعرف أو تستعمل إلا في عصر الوليد ابن عبد الملك فليس من الضروري أن يكون المحراب منحنياً ، بل يكفي تعيين موضعه في جدار صدر المسجد ، وقد كانت النماذج الأولى للمحراب تأخذ شكل محارة ، ومن هنـا ربط البعض لغوياً بين لفظي (محراب) و (محار) .

وقد أورد الزركشي في كتابه (أعلام الساجد) كلاماً كثيراً عن كراهية بعض السلف اتخاذ المحاريب في المسجد ، ويرجع هذا فيما نرى إلى أن المسلمين كانوا يجدون صعوبة في تحديد موقع المحاريب وكان هناك شك في صحة اتجاه محاريب الكثير من المساجد .

أما المنبر فهو مرقاة الخطيب ، وقد سمي منبراً لارتفاعه وعلوه ، وقد كان منبر الرسول صلى الله عليه وسلم أول الأمر مجرد ارتفاع في الأرض إلى جانب موضع المحراب ، وقال البخاري رضي الله عنه إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلي على منبره .

وقال ابن الأثير في كتابه « أسد الغابة » إن منبراً خشبياً قد صنع للرسول عليه الصلاة والسلام ما بين سنوات ٦ـ٩ للهجرة ووضع في مسجده .

وما ورد عن المنبر النبوي يجعلنا نستطيع القول بأنه لم يرتفع عن الأرض إلا قليلا ، وهذا ما ظلت عليه حال المنابر حتى عهد

معاوية على اغلب الأقوال حيث صنع لنفسه منبراً خشبياً متنقلا من ست درجات ومقعد .

وقد كانت المنابر في أول الأمر قاصرة على المساجد التي يؤمها الخلفاء ثم اتسعت القاعدة لتشمل المساجد التي يؤمها الولاة ثم المساجد الرئيسية بحواضر المدن حتى عممت أخيراً بأغلب المساجد ، وهذا ما حدا بالمستشرق الألماني كارل بيكر إلى القول بأن المنابر في أول عهدها كانت رمزاً للسلطان وبيكر في قوله هذا قد جانب الصواب إلى حد بعيد ، فالمنابر وإن كنا نجهل الكيفية التي تطورت بها منذ الارهاصات الأولى للتاريخ الإسلامي وحتى اليوم كانت — دائماً — جزءاً من الاثاث المنقول ، ومن السخف أن يقال إنها كانت رمزاً للسلطان .

وبالإضافة إلى هذه العناصر السابقة والتي يتكون منها المسجد ، توجد أيضاً الميضأة ، ومما روى عن عائشة رضي الله عنها قولها : كانت المعتكفات إذا حضن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإخراجهن من المسجد وأن يضربن الأخبية في رحبة المسجد حتى يطهرن ، وجاء في كتاب الطهور لأبي عبيد عن إبراهيم النخعي قوله : كانوا يتطهرون من مطاهر المسجد .

ومن الأمور التي أُختلف عليها « المقصورة » ،حيث أنه لم يعهد في عهد الرسول اتخاذ المقاصير في المساجد ، والمقصورة حجرة تبنى في صدر المسجد على يمين القبلة أو يسارها للحاكم من أجل أن يؤدي الصلاة في أمان فالهدف منها إذن دفع الأذى عن الحاكم ، وقد عرفت المقاصير في العديد من المساجد ورد القائلون بجوازها على المنادين بعدم الجواز بأن المئذنة والقبة لم تعرفا في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهذا لا يعني أنهما مكروهتان .

وهناك أيضاً من العناصر التي دخلت على المساجد العقود والقباب والشمسيات والقمريات ، والشمسية شباك أو فتحة مزخرفة في جدار المسجد تقفل بلوح من الرخام أو الخشب المخرم ، أما القمرية فهي فتحات مستديرة أو مربعة أو مسدسة أو مثمنة الهيئة تفتح في أعلى الجدران أو في رقاب القبب وتغطى بالزجاج الملون ، كما توجد أيضاً الزخارف والحليات التي تفنن المسلمون في ابتداعها وجانبها الجمالي يأتي من تكرارها وتوازنها لملء الفراغات ، ولوقاية الداخل إلى المسجد من الشمس والمطر وجدت الشماسات وهي مظلة خشبية مزخرفة تقام فوق الأبواب والنوافذ ، وتعد إحدى العناصر الجمالية في عمارة المسجد .

الطرز المعمارية :

يرى الدكتور حسين مؤنس أن المساجد على الرغم من تاريخها الطويل وتعدد اطرازها وأشكالها لم تخرج في تكوينها العام عن هيكل مسجد الرسول في المدينة المنورة . فالمعماريون المسلمون وإن تفننوا في ابتداع أشكال بيوت الصلاة والصحون والمحاريب والقبلات والمنابر لم يضيفوا عنصراً رئيسياً واحداً إلى عمارة المساجد .

ويمكننا أن نقسم الطرز المعمارية للمساجد تبعاً لقدمها التاريخي إلى سبعة طرز هي :

١ ــ الطراز المغربي .
٢ ــ الطراز الأندلسي .
٣ ــ الطراز المصري .
٤ ــ الطراز التركي السلجوقي .
٥ ــ الطراز الهندي .

٦ – الطراز الإيراني الصفوي .
٧ – الطراز التركي العثماني .

فأما الطراز المغربي فأهم ملامحه تركيزه على بيت الصلاة والاهتمام بتعميق جوفه حتى يصبح مربعاً أو قريباً من المربع وتمتاز مساجد الطراز المغربي بمنابرها البديعة ، ونقطة البداية في تاريخه مسجد عقبة بن نافع في القيروان . ولم يتعرض المغرب لأي تيار ثقافي خارجي ، ولهذا السبب احتفظت مساجده بطابعها المميز ، والتأثير الوحيد جاء من الأندلس إذ تركت العمارة الأندلسية أثراً بعيداً في عمائر المغرب .

أما الطراز الأندلسي فقد ولد مع إنشاء الجزء الأول من مسجد قرطبة الجامع على يد صقر قريش عبد الرحمن الداخل ومن بعده ابنه هشام فهو إذن يأتي زمنياً تالياً للطراز المغربي ، ويرى بعضهم أن كلا من الطرازين السابقين متشابهان في الملامح والتطور إلا أن البعض الآخر يرى عكس ذلك من قناعة بأن لكل طراز منهما خصائصه المميزة .

والنموذج الرئيسي الذي يمكن أن نصفه بأنه يعد خير ممثل للطراز الأندلسي هو مسجد قرطبة الجامع ، وهو قائم على طريقة المزاوجة في صنجات العقد بين الحجر المنحوت وقوالب الآجر ، وقد تعمد صانعوه أن يكون السقف خشبياً خفيفاً لكيلا يزيد الثقل على الأعمدة ، وزينت أبوابه بشماسات حقيقية أو صماء ، وهذا المسجد يمثل طراز الخلافة إحدى الطرز الأندلسية ، وهناك أيضاً الطراز المستعرب الأندلسي وقد ظهر وتطور خلال عصر الخلافة لكنه لم يبرز إلا في القرن الحادي عشر وينسب للأندلسيين

الذين بقوا على دين آبائهم استعربوا لسانا ويمتاز بالتفنن في استعمال الآجر بدلا من الحجر والعقود الدائرية .

بقي من الطرز الأندلسية الطراز المدجن نسبة للمسلمين الذين بقوا في نواحي الأندلس التي سلبها النصارى ، وقد تطور في آخر صورة إلى طراز زخرفي مثقل بالزخارف والمقرنصات والشماسات والقمريات وهذا التطور قد عد آخر فصل في تاريخ العمارة الإسلامية في الأندلس .

أما الطراز المصري فقد تميز برصانة البناء ومتانة تأسيسه والمحافظة على الوحدة الفنية في البناء مع الحرص على توازن الهيئة العامة للمبنى . وباستثناء الأزهر تتميز كل المساجد المصرية بهذا التوازن العام في المبنى . فالمعماري المصري كان يضع — فيما يبدو — تصميم مبناه كله مرة واحدة ونظرة واحدة إلى مئذنة مصرية تجعلنا نحس بهذا التوازن ، فهي تعد من أرشق وأجمل مآذن المساجد فالتوازن ملحوظ في قطر الدائرة والارتفاع وعدد الشرفات بل ان هذه الأخيرة يندر أن توضع بحساب دقيق في مسافاتها .

والطراز التركي السلجوقي لا يتخذ هيئة واحدة متميزة بخصائص واضحة وإنما الرابطة فيه تتعلق بخصائصه التفصيلية من ناحية المواد المستعملة و الطرق الفنية . وقد أحسن المعماريون استخدام الأحجار ما بين حجرية ورملية وجرانيتية ورخام ومرمر ، فخامات الصخور التركية السلجوقية بديعة في صلابتها وتكوينها ، كما أن جودة الآجر الذي استخدمه المعماريون لا تقل عن جودة الحجارة ومن هنا جاءت مساجدهم متينة ومحكمة ومزخرفة بإحكام ودقة ، واستطاعوا بمهارة أن يصنعوا الواجهات

والعقود والازر والمثلثات الكروية والقباب والمآذن كما تفننوا في ابتكار أشكال زخرفية بديعة وبرعوا في استخدام الجص والفخار والخزف وابتدعوا الفسيفساء للزخرفة ، وقد كان لاستعمالهم الخزف أثره في إحداث ما يشبه انقلابا معماريا في تركستان ، كما استخدموا التصوير على الخشب والمعادن والزجاج .

أما من حيث الخصائص المعمارية فالمساجد التركية السلجوقية تتميز بالبوابات الضخمة ذوات العقود العالية المدببة ، والجدران الشامخة ، ومآذنها في الغالب مستديرة ومنها ما هو مضلع وقبابها مرفوعة على رقاب عالية في أغلب الأحيان وذوات عقود مدببة ، وجميعها من الحجر المنقوش بالزخرف أو الآجر الزخرفي وقد تطور هذا الطراز في إيران إلى الطراز الصفوي فيما أصبح في آسيا الصغرى بداية للطراز التركي العثماني .

أما الطراز الهندي فقد تميز بعدة خصائص إذ كانت المساجد الأولى في الهند أشبه بحصون . فالهدف من إقامة المسجد الأول هناك لم يكن فقط مجرد إيجاد مكان للعبادة بل وأيضاً حماية الجماعة الإسلامية الناشئة ، وقد زالت جميع هذه المساجد الحصينة فيما تطورت المساجد حتى بدأت تأخذ الهيئة العادية للمسجد وإن لم تتخل تماماً عن الطابع العسكري . ويمكن تلمس ذلك في مسجد (قوة الإسلام) بدلهي الذي استغرق إنشاؤه حتى أخذ صورته الحالية ما يزيد على قرن من الزمان واشتهر بمئذنته المسماة (قطب منار) .

والمعمار الإسلامي الهندي فريد في بابه إذ استطاع المعماريون الهنود أن يجمعوا بدقة وإتقان شديدين بين تقاليدهم في الهندسة والمعمار ونظام المساجد الإسلامي . ومن أبرز المعماريات

الإسلامية بالهند (تاج محل) والذي أقامه السلطان شاه جاهان تخليداً لذكرى زوجته التي توفيت في ريعان شبابها .

أما الطراز الإيراني الصفوي فقد كان كما أشرنا من قبل ثمرة تطور للطراز التركي السلجوقي ونماذجه زخرفية راقية تكاد توصف بأنها الغاية في حسن الذوق والانسجام ، وتقوم الزخارف في كل جزء من أجزاء المسجد تقريباً بدءاً من البوابة إلى قمة القبة ، إلا أن الناظر لا يشعر أن هناك إغراقاً في الزخرفة ، ذلك أن الزخارف اكتست بطابع من الروحانية والتقى .

وقد وصل الطراز الصفوي في إيران إلى قمته في القرن الميلادي الماضي من حيث الجمال وانسجام التكوين والابتكار ، وبدأ اضمحلاله بالإسراف في الزينة والتركيز على التزويق بالذهب والفضة والألوان .

بقي الطراز التركي العثماني وهو كما ذكرنا كسابقه نموذج متطور للطراز التركي السلجوقي ، فهو إذن يعد استمراراً للنمط السابق وأول مسجد عثماني واضح المعالم هو « اولو جامع » وقد تأثر المعماريون الأتراك بعض الشيء بعمارة كنيسة اياصوفيا بعد أن اتسعت امبراطوريتهم ، واستطاعوا أن يقلدوا الشكل المعماري بمهارة بالغة ، والمآذن العثمانية تتميز بنحولها وشرفتها الواحدة وقد دخلت العمارة العثمانية في دور تطور عظيم على يد سنان باشا أحد أهم المعماريين المسلمين في القرن السادس عشر الميلادي .

أهم المساجد :

عندما نتحدث عن أهم المساجد في الإسلام ، فإننا لا نعني بذلك الأهمية التاريخية أو الدينية فقط ، بل والمعمارية أيضاً ،

ثم التأثير الذي أحدثته وتحدثه كل يوم ، وقد حرصنا على اختيار نماذج من المساجد تمثل كل طراز معماري ، وكل بيئة إسلامية ، وصولا إلى الهدف المنشود ألا وهو تقديم صورة متكاملة للمسجد في الإسلام .

والواقع أن حديثنا عن المساجد يفرض علينا أن نبدأ بالمسجد الحرام باعتباره أول بيت وضع للناس والواقع أن المسجد الحرام قد مر منذ أن رفع إبراهيم الخليل وولده إسماعيل القواعد من البيت بأكثر من عملية توسعة وترميم .

يقول محيي الدين مستو في كتابه « الحج والعمرة » كان المسجد الحرام المحيط بالكعبة صغيراً ، ولم يكن عليه جدار ، وإنما كانت الدور محدقة به وبين الدور أبواب يدخل الناس من كل ناحية ، وبقي كذلك من عهد سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وعهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، ثم شهد بعد ذلك ١٢ عملية توسعة أولها عام ١٧هـ في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب وآخرها وأهمها التوسعة السعودية الحالية وهي أهم وأبرز توسعات المسجد الحرام ، وبهذه التوسعة أصبحت مساحة المسجد الآن ٧٥ ألف متر مربع ، وهو نموذج حي لجمال العمارة الإسلامية ، وقد بلطت المنطقة المخصصة للطواف ببلاط خاص يمنع حرارة الشمس من أذى أقدام المصلين .

أما ثاني المساجد الكبرى ونعني به مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة فقد كان أصلا عندما ابتناه النبي يقع على قطعة أرض طولها ٣٥ متراً وعرضها ٣٠ متراً أي أن مساحته كانت توازي ١٠٠٠ متر مربع تقريباً وقد كان أساسه من الحجارة

وجداره من اللبن ، وعمده من جذوع النخل وسقفه من الجريد ، وفرش بالحصباء .

وقد شهد نحو ١٠ توسعات أولها في حياة الرسول عليه السلام وبالتحديد في السنة السابعة من الهجرة أصبحت مساحته بعدها ٢٥٠٠ متر مربع ، وآخرها التوسعة التي أمر بها جلالة المغفور له الملك عبد العزيز آل سعود ، وأضافت أبواباً جديدة تفضي إلى بيت صلاة رائع يقوم على أعمدة ضخمة من المرمر وكسيت الأرضية كلها بالمرمر ، ويبلغ عدد الأعمدة الجديدة ٢٣٢ عموداً ، وأنشئت لهذه الزيادة واجهة بديعة عرفت بواجهة الملك عبد العزيز تزينها مئذنتان ترتفع كل منهما عن الارض ٧٥ متراً ، وبهذه التوسعة أصبحت مساحة المسجد ١٦٠ ألف متر مربع .

أما المسجد الأقصى فترجع بداياته إلى عهد عمر بن الخطاب الذي أمر ببناء مسجد في الحرم القدسي غير بعيد عن موضع الصخرة التي بنيت عليها القبة أما المسجد الحالي فكان الوليد ابن عبد الملك أول من أنشأه في مكانه الحالي عام ٩٧هـ — ٧١٥م ولم يبق من مسجد الوليد إلا العقود القائمة على أعمدة من الرخام على يمين القبة الصغيرة عند المدخل ويسارها ، وقد تهدم معظمه في زلزال وقع عام ١٣٠هـ فأعاد الخليفة المنصور بناءه حوالي عام ١٤٠هـ ثم أعاد المهدي بناءه على شكله وصورته الحالية ثم تعرض لزلزال عام ٤٢٤هـ — ١٠٣٣م وأعاد الخليفة الفاطمي الظاهر بناءه ، وقد ذهب جزء كبير من بناء الخليفة الظاهر في الحروب الصليبية ولكن بقي لنا منه الهيكل العام المكون من سبعة أروقة عمودية على القبلة وجوف بيت الصلاة الذي يتكون من ١١ صفاً من العقود الموازية لجدار القبلة .

والمسجد الأقصى الحالي عمل معماري ضخم فيه البساطة وفيه الجلال وعلي الرغم من أن بناءه هش إلا أنه ضخم ، فالقبة نفسها تقـــوم على هيكل خشبي والقبلة بسيطة علي الرغم من زخارفها وجزء كبير من ضخامة المسجد يرجع إلى سعـــة بيت الصلاة التي تملأ النفس روعة وبهجة .

أما المسجد الجامع بالقيروان والذي يحلو للبعض تسميته باسم « أبو مساجد الجناح الغربي لمملكة الإسلام » فقد بدأ عقبة بن نافع في إقامته عام ٥٠هـ وهو تاريخ اختطاط مدينة القيروان ، فهما إذن متلازمان حيث انتهى العمل في المسجد والمدينة عام ٥٥هـ .

وليس لدى أحد فكرة واضحة عن عمارة المسجد في أول عهده ، وإن كان بعضهم يرى أنه كان مكوناً من بيت صلاة مسقوف بعريش يقوم على جذوع النخل وصحن مكشوف من نفس حجمه وقد جدد وزيد خمس مرات أولها عام ٨٠هـ على يد حسان بن النعمان الغساني ، وآخرها عام ٢٦١هـ على يد إبراهيم ابن أحمد الأغلب تاسع أمراء بني الأغلب .

ويمتاز جامع القيروان بالضوء الذي يفيض فيه والإشراق الروحي الذي يحس به الإنسان ، وما زال المسجد يحتفظ بمقاييسه الأولى التي كان عليها في أيام إبراهيم بن أحمد الأغلبي ، فطول جدار القبلة ٧٢ متراً وعمق بيت الصلاة ٢٦ متراً ، وهنـــاك ١٧ رواقاً مؤدية لجدار القبلة وصحن واسع يبلغ طوله ٩٠ متراً وعرضه ٧٠ متراً والعقود مستديرة تقوم على أعمدة من الرخام مقواة بدعائم .

أما المسجد الأموي بدمشق فقد بدأ بناؤه عام ٧٠٦ م في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك مخطط مسجد الرسول

الأول إلا أن العمارة البيزنطية كانت أيضاً من مصادر عمارته الأساسية ، وتمثلت ملامح تلك العمارة في أقواسه وتزييناته من الفسيفساء ، ومآذنه هي أول محاولة لإقامة المآذن في الشام ، وقد احترق المسجد ٥ مرات أولها عام ٤٦١ هـ – ١٠٦٨ م وآخرها عام ١٨٩٣ م في عهد السلطان عبد الحميد الثاني ، والبناء الحالي بأعمدته وشكله يرجع لعهد هذا السلطان الذي حافظ على هندسته وعمارته الأموية .

ومسجد قرطبة الجامع فضلا عن آثاره الثقافية العلمية يعتبر واحداً من أروع ما أنشأ المسلمون من الأعمال المعمارية ، وقد تم بناؤه في نحو قرنين ونصف قرن تقريباً حيث بدأ الإنشاء على يد عبد الرحمن الداخل وتوالت بعده الزيادات التي أعطته مكانة في التاريخ المعماري .

ومن العسير وصف روعة هذا الجامع من الناحية المعمارية ، أو آثاره من الناحية العلمية باعتباره كان مركزاً مهماً للإشعاع الثقافي مدى قرون طويلة .

أما الجامع الأزهر فقد بديء في إنشائه عام ٣٥٩ هـ – ١٩٧٠م على يد جوهر الصقلي قائد جيوش الخليفة الفاطمي الرابع المعز لدين الله وافتتح الجامع في رمضان عام ٣٦٠ هـ في نصف حجمه الحالي ، وقد أصبح جزءاً لا يتجزأ من تاريخ مصر والإسلام ، فالأزهر لم يكن مسجداً فقط بل كان جامعة ودار علم وإليه وفد الطلاب من جميع أنحاء العالم الإسلامي .

أدى الأزهر دوراً كبيراً في الحركة الوطنية في مصر ومقاومة الاحتلال وقد دخل الأزهر عام ١٩٦١ م . طوراً جديداً في

تاريخه بعد أن تحول إلى جامعة حديثه تضم شتى الكليات في مختلف العلوم والآداب .

وللأزهر اليوم خمس مآذن مختلفة الطراز ، لأنها بنيت في عصور متفاوتة ، منها اثنتان من إنشاء عبد الرحمن كتخدا ، وواحدة تنسب للسلطان قايتباي وأخرى للسلطان الغوري ، وكان للجامع ١٣ محراباً بقى منها ستة أقدمها محراب أيوان القبلة القديمة عند جدار المسجد الأول ، وله ثلاث قباب اجملها وأكبرها تلك التي تقوم فوق المدرسة الجوهرية الملحقة بالأزهر ، وتقوم على رقبة ذات شماسات ثم عقود مدببة مزينة من الخارج بنقوش عربية.

الصراع ضد المسجد

رأينا في الدراسات السابقة كيف أدى المسجد الدور الأكبر في قيادة المسلمين ، وكيف تربى فيه النشء والشباب والشيوخ ، وكيف كانت حلقات الدرس تعقد فيه ، وجيوش الجهاد تخرج منه ، وكلمة الحق ينطق بها القضاة الذين اتخذوا فيه مجلسهم ، وكيف كانت تتم فيه عقود القران فيسبغ المسجد على الزوجين طهارته وقدسيته .

من أجل هذا اتجه أعداء الإسلام لمحاربة المسجد متأكدين أن القضاء على مهمات المسجد تقليل من قيمة الإسلام وقضاء عليه ، ومن هنا بدأت صور الصراع ضد المسجد ذلك الصراع الذي اشترك فيه العديد من الأشخاص والهيئات على مر الزمن وقد استمرت حروب هؤلاء دون هوادة ضد المسجد حتى استطاعوا في كثير من الأحوال أن يفصلوا بين المسجد والمسلمين فانحسر دور المسجد ، وابعد المسجد عن الحياة السياسية للمسلمين بعد أن استطاعوا أن يفصلوا ما بين الدين والسياسة ، فبدأت الأمة الإسلامية في الانحطاط ونسي المسلمون دينهم فصاروا لعبة في أيدي الكثرة المشركين ، ونسي المسلمون أن الإسلام وحدة متكاملة فالعالم الذي يؤم المسلمين في الصلاة ، هو القائد الذي يحارب ذوداً عن إسلامه ووطنه ، وهو العامل المنتج الذي يزيد من اقتصاد وطنه ، نسي المسلمون هذا ، فضاعوا بين الأمم .

إن حال المسجد اليوم يرثى له ، هذا إذا استثنينا بعض المساجد الكبرى ذوات التاريخ العريق كالمسجد الحرام والمسجد النبوي والجامع الأزهر وجامع الزيتونة والمسجد الأموي ، وعلى الرغم من أن الدور الذي أداه أغلب هذه المساجد في مراحل التاريخ المختلفة – كبيراً – إلا أنه كان مبتوراً ، أما بفعل الحاكم المسلم – غير المسلم – وعدم فهم المسلمين لدينهم الصحيح ، أو بفعل المستعمر الغاصب (فأغلب الحكام تغلبت عليهم عصبيتهم ، فخافوا دور المسجد فقصروه على إقامة الصلاة وتحفيظ القرآن وشرح السنة ، وأخرجوا منه الجهاد والقضاء وبقية مهامه العظمى بحجج واهية) .

(وأما عن المسلمين ، فقد أصبح أغلبهم لا يفقه دينه وانصرفوا عنه للدنيا الغرور وقصروا المسجد على صلاة الجمعة ، وفي كثير من الأحيان تركوا أو جهلوها وانصرفوا للتجارة واللهو) .

أما المستعمر ، فإن المستشرقين ورجاله درسوا الإسلام جيداً – من زاوية تعصبهم – وعرفوا قيمة المسجد وتأثيره الساحر على نفوس المسلمين ، فحاربوا رجال المسجد كما رأينا قبل قليل .

وخرجت الأصوات المخلصة – على مر التاريخ – تنادي بالإصلاح الديني والسياسي للأمة الإسلامية ، وبذل أصحاب هذه الأصوات أرواحهم وحياتهم خالصين مخلصين راضين في سبيل هذا الإصلاح ، ولا شك أن لهذه الأصوات الفضل الأكبر في نصر المسلمين المؤزر على الصليبيين والتتار والكثير من المعارك القاسية الأخرى كان المسلمون في أثنائها في حال يرثى لها ، وهذا يدلنا على أن المسلمين قادرون على صد الغزوات المتتالية

في هذا العصر والعصور المقبلة إذا ما أصلحوا ما بينهم ، واتخذوا من المسجد مكاناً للقيادة والتاريخ خير شاهد ودليل .

ونعود لحال المسجد اليوم لنرى كيف حاله وما آل إليه أمره .

أنه مغلق – في أغلب البلاد الإسلامية – طوال النهار والليل إلا من أوقات الصلاة ، وحتى في صلاة الجماعة لا نجد إلا القليل الذي لا يناسب عدد المسلمين ، بل إن بعض المساجد لا تفتح أبوابها في صلاة الفجر .

وأغلب المساجد خالية من المكتبات وحتى المساجد التي بها مكتبات فالكتب التي بها قليلة ، والمكتبة مغلقة دائماً بقفل كبير كأنها عملت للزينة ليكون بالمسجد مكتبة .

وإذا شرع بعض المسلمين في بناء مسجد جديد اهتموا بزينته ونقوشه الكثيرة والمعقدة اهتماماً بالغاً ، كأن هذه النقوش المعقدة من تمام السنة وكأن هذه النقوش ستدخلهم الجنة ، ولكنها بدعة – تسربت إلينا من اليهود وعباد الصليب .

لا بد للمسجد أن يعود من جديد لقيادة المسلمين لصهرهم في بوتقة الإسلام ، هذا الدين الذي عانى كثيراً ، عانى من حروب أعدائه الشرسة القاسية كما رأينا ، وعاني أكثر من إهمال أتباعه له ، وكان إهمال أتباعه أقسى وأمر وأعنف كثيراً من حروب أعداء الله له .

إن دين الإسلام يدافع عن نفسه ، ولا يحتاج لمن يدافع عنه ، لأنه دين إلهي عميق ، بل إن الإسلام هو الذي يدافع عن أتباعه ويحميهم إذا تمسكوا به يحميهم من أنفسهم ومن أعدائهم ،

وهو لا يخيب ظن من يتمسك به أبداً ، ولا أدل على ذلك مما فعله رجل مسلم واحد مع التتار .. لقد فعل هذا الرجل ما لم يستطع فعله آلاف المبشرين معهم على الرغم من محاولاتهم المتكررة والمستميتة لجذب التتار للمسيحية لسد الطريق البري على المسلمين تمهيداً للقضاء على دين الإسلام وأنقل هذه القصة من كتاب لأحد المستشرقين هو توماس أرنولد(١) :

(لم يكن أحد يتوقع أن ينتصر الإسلام في هذه المعركة — يقصد معركة الأديان — وتهزم البوذية والنصرانية ويستأثر وحده بالتتار ، فقد كانت عاصفة هجومهم وغاراتهم أشد على المسلمين منها على غيرهم ، والفضل لهؤلاء الدعاة المخلصين الذين حرصوا على إرشاد هؤلاء الظالمين وهدايتهم ، وكان أسلوب دعوتهم ورقة مواعظهم وتجردهم من الأنانية والكبرياء ، فقد أسلم سلطان كشغر « تفلق تيمور خان » عام ٧٤٨ هـ — ١٣٤٧ م على يد الشيخ جمال الدين الذي جاء من بخارى فقد أوثق مع جماعة من الغرباء وحملوا إليه .

قال تيمور خان : كيف دخلتم في حماى من غير إذن ؟
قالوا : نحن غرباء ، ولم نشعر أننا نمشي في أرض ممنوعة .
قال : حتى الكلب أفضل منكم .

قال الشيخ جمال الدين : صدق الملك . . لولا أن الله أكرمنا بالدين الحق لكنا أذل من الكلاب .

وتحير الملك ، ومضى للصيد ، وبقيت كلمة الشيخ تشغل فكره . . فلما عاد من الصيد أمر بعرضهم وخلا بالشيخ وقال :

---

١ — الدعوة الى الاسلام ، ترجمة د. حسن ابراهيم .

فسر لي ما قلت وأخبرني ماذا تعني بالدين الحق ؟ وفسر الشيخ الإسلام في حماسة وقوة تفسيراً رق له قلب السلطان ، وصور الكفر تصويراً فزع له السلطان ، ورأى السلطان أنه لو أعلن الإسلام لما استطاع أن يدخل قومه في الإسلام ، ورجا الشيخ أن ينتظر حتى إذا سمع أنه ولى الملك وجلس على أريكة الحكم زاره.

وكانت المملكة الجنتائية قد توزعت على إمارات متعددة ، واستطاع بفلق تيمور خان أن يجمعها ويكون منها مملكة كبيرة ، ورجع الشيخ جمال الدين إلى بلاده ومرض مرضاً شديداً ، ولما حضرته الوفاة دعا ولد « رشيد الدين » وقال له : أن تفلق تيمور خان سيكون في يوم من الأيام ملكاً عظيماً ، فإذا سمعت ذلك فعليك أن تزوره وتقرئه مني السلام وتذكره بما كان قد وعدني به من اعتناق الإسلام ، فلما بويع تفلق تيمور خان بالملك وجلس على أريكة الحكم مكان أبيه توجه الشيخ رشيد الدين إلى المعسكر لينفذ وصية أبيه ولكنه لم يخلص إلى الملك ، فاحتال وبدأ يوماً يؤذن بصوت عال عند خيمة السلطان في الصباح الباكر فطار نوم السلطان وغضب ، وطلب الذي يؤذن وحضر الشيخ وبلغ السلطان تحية والده ، وذكر السلطان على ما كان منه ، فنطق بالشهادتين وأسلم ونشر الإسلام في رعيته، وأصبح الأسلام ديانة الأقطار التي كانت تحت سيطرة أولاد جنتاي ابن جنكيزخان».

وما قيل عن تيمور خان يقال كذلك عن سواه من أنداده .

فهؤلاء السلاجقة الوثنيون ، الذين فتحوا بلاد ما وراء النهر ، وتقدموا إلى العراق وظلوا يزحفون شيئاً فشيئاً حتى أخضعوا أكثر الأراضي الإسلامية هؤلاء الوثنيون الظافرون الفاتحون الغالبون ما لبث الدين الإسلامي بقوته وسلامته وسماحته أن

استهواهم ، فاعتنقوه(١) ، وصهرهم في بوتقته السمحة، وكان دورهم بعيد الأثر في نصر الإسلام .

لقد رفعوا لواء السنة ولواء الدفاع عن الإسلام في مواجهة قوى الصليبيين وهؤلاء التتار الذين كانوا أشد الناس ظلماً وأكثرهم تعطشاً إلى الدماء هاجموا ديار المسلمين ، وقضوا على خلافتهم ، بل قتلوا خليفتهم ، وخضبوا الأرض بدمائهم أولئك هم التتار المتوحشون الوثنيون المنتصرون ، غير أن للإسلام شأنه دائماً على القوى المواجهة له ، كان دائماً قادراً على التأثير فيهم ، قد استطاع بقوته العقلية والروحية الفاعلة أن يحول التتار إلى الإسلام ، هذب أخلاقهم وجعل لهم حضارة وفنوناً عرفت باسم الفنون المغولية ، فلم يكد ينقضي على ظهور التتار أكثر من ثمانين عاماً حتى أعلن الامبراطور « تاجدار أوغل » الذي تولى السلطة عام ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م اعتناق الإسلام وأطلق على نفسه « السلطان أحمد » ووزع منشوراً بذلك على المقاطعات التي يكون فيها امبراطوريته . وكان نص منشوره الذي بعث به إلى والى بغداد يقول : « لقد جلست على عرش أجدادي ، فخذوا علماً إنا معشر المغول مسلمين » ، وأن حقوقكم الموروثة من عهد العباسيين ستظل محترمة مقدسة ، وقد أمرت أن ترد إلى الشعب العراقي جميع التكايا والمدارس والمؤسسات الدينية والشخصية التي كانت ملكاً لهم ، واغتصبها عمال ووكلاء أجدادي وبلغت نائبي لديكم أن يمشي في جميع أحكامه على مقتضى تعاليم الشرع الإسلامي ، لأن محمداً صلى الله عليه وسلم بشرنا بالقرآن الكريم أن الدين

---

١ ـ د. مصطفى الشكعة : اسلام بلا مذاهب (ص ١٣١) .

الإسلامي هدانا لهذا والسلام سيظل قائماً وسائداً إلى يوم القيامة ولنأمل الاعتقاد بذلك والحمد لله الواحد الأبدي(١) .

والحرب على الإسلام تبدأ بالقرآن الكريم والمسجد هكذا قال أول المستشرقين المعروفين القس بيتر المعروف باسم « المبجل » أعلن هذا في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي(٢) . أي منذ تسعة قرون ، وتلاه المستشرقون ونهجوا نفس النهج وسلكوا نفس المسلك ، فكانت حروبهم على القرآن الكريم شرسة ، وعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنيفة ظالمة ، وعلى المسجد خبيثة وما زالت الحرب دائرة حتى الآن .

وعلى مر الزمن اشتركت هيئات كثيرة في الصراع ضد المسجد وضد المسلمين وسنذكر فيما يلي خلاصة لهذه الحرب الضروس ، راجين أن ينتبه المسلمون لها وأن يعينهم الله للتغلب على شرورها .

دور اليهود :

تختلف حرب اليهود ضد الإسلام عن غيرها من حروب الطوائف الأخرى ضده فهم أهل مكر وخداع — أهل دهاء وغدر ودسيسة ، فحربهم على الإسلام — مثل غيرهم — لم تهدأ يوماً منذ أن عرفوا أن هناك نبياً ظهر في مكة المكرمة يدعو لدين الإسلام دين إبراهيم الحنيف الذي يدعون أنهم على ملته .

إن قصص اليهود مع الرسالات السماوية الأخرى — حتى

---

١ — أنور الجندى : الاسلام وحركة التاريخ (ص ٢٣٠) .
٢ — عبد الجليل شلبى : صور استشراقية (ص ١٦) .

رسالة موسى نفسه حافلة بالانحطاط ، ولقد وصف اليهود أنفسهم في التوراة التي كتبوها بأيديهم بأنهم قوم عصاة غلاظ الرقبة(١) ، ومن عصيانهم لله أنهم عبدوا العجل المسبوك من الذهب — الذي سرقوه من المصريين — في الفترة (أربعين يوماً) التي خرج فيها موسى عليه السلام لتلقى أوامر ربه على الجبل ، بل إنهم أدعوا في توراتهم أن هارون عليه السلام هو الذي صور العجل بالأزميل ، وهو الذي جعل للإله الجديد عيداً رقصوا فيه حول العجل المسبوك ، ونحروا له الذبائح(٢) ، فعلوا كل هذا بعد أن أخذوا عهداً مع الله أن لا يشركوا به أحداً(٣) . وبعد أن أنزل عليهم المن والسلوى من السماء(٤) . ورأوا برهان ربهم بالمعجزات العظيمة التي ينفطر لها قلب الجاحد قبل العابد ، والتي صنعها الله على يدي موسى عليه السلام(٥) . بل إنهم يعترفون في توراتهم — التي خطوها بأيديهم بعد سبي بابل سنة ٥٨٦ ق.م. بأن الله أراد أن يبيدهم من على وجه الأرض لولا أن تشفع موسى عليه السلام عنده(٦) .

ليس هذا فقط ، بل إنهم قتلة الأنبياء ، وآخر نبي قتلوه كان يحيي بن زكريا عليه السلام .

والدليل القاطع على عصيان اليهود لله كثرة أنبيائهم التي أرسلها الله لهم فالله يرسل الأنبياء للقوم العصاة ، فالصحيح

١ — العهد القديم : سفر الخروج (٣٢:ج ٩) .
٢ — السابق : سفر الخروج (٣٢:١—٧) .
٣ — سفر الخروج (٢٠:٢٢—٢٤) .
٤ — سفر الخروج (١٦:٧—٨) .
٥ — سفر الخروج (٧:٩—٢٤ ، ٨:٩—١٨ ، ١٤:١٥—٢٤) .
٦ — سفر الخروج (٣٢:٩—١١) .

السليم لا يحتاج لطبيب ، وهذا سفر الملوك الأول يقص علينا قصص أكثر من ألف نبي في فترة زمنية واحدة(١) .

وأما عن دورهم مع رسالة عيسى بن مريم عليه أفضل السلام ، فكان خطيراً على الرغم من أن توراة موسى ، وزبور داود (المزامير) وبقية كتب أنبياء إسرائيل تشير بأن هناك نبياً (عيسى بن مريم عليه السلام) سيأتي قبل نبي آخر الزمان (محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم) إلا أنهم رفضوا رسالة عيسى عليه السلام – على الرغم مما أتى به هذا النبي العظيم من معجزات خارقة ينفطر لها قلب الجاحد الكافر قبل المؤمن .

لقد جاءهم عيسى عليه السلام بأروع الكلمات – كلام الله – فلم يؤمنوا به لأنه جاءهم بروحانية عظيمة ليكسر بها حدة ماديتهم – فرفضوه وحاربوه وجادلوه في الحق ، وتقفوا أثره في كل مكان ، وأرسلوا وراءه جواسيسهم ليتصيدوا له خطأ فيقتلوه ، ومع أن المسيح جاء لبني إسرائيل (اليهود) – إلا أن رسالته انتشرت في قوم غيرهم ، على الرغم من محاولتهم قمع رسالته في مهدها وحاولوا قتله كثيراً وأخيراً استطاعوا قتل يهوذا الاسخربوطي ظناً منهم أنه المسيح عليه السلام بعد أن ألقى الله سبحانه وتعالى شبه المسيح على يهوذا(٢) .

وآمن بالمسيح قوم كثير ، وانتشرت رسالة المسيح بعد أن رفعه الله إليه ودفعوا رجلا يدعى شاول كان يعذب أتباع المسيح تعذيباً شديداً – لهدم المسيحية ، وكان لهم ما أرادوا ، فادعى

---

١ – سفر الملوك الاول (١٩:١٨ ، ٦:٢٢) .
٢ – انجيل برنابا : فصل ٢١٦ .

الرجل أن الروح القدس خلت به وأن الرب يسوع المسيح كلمه من السماء قائلا : « شاول ، شاول » . لماذا تضطهدني فقال من أنت يا سيد ؟ فقال الرب : « أنا يسوع الذي تضطهده »(١) .

وصدق أتباع المسيح هذه القصة ، وبدل الرجل اسمه من شاول إلى بولس سمى فيما بعد « بولس الرسول » ولعب الرجل برسالة المسيح كل ملعب وحتى يثبت أنه تخلى عن يهوديته أباح عدم الختان ، وأباح أكل الخنازير وأشياء أخرى كثيرة حرمتها لليهودية ولم يحللها المسيح عليه السلام ، بل إن هذا الرجل فرض على أتباع المسيح إلغاء عقولهم ، وبعد أن حرر المسيح عليه السلام فكرة اليهود في وساطة رجال الدين بين الله والبشر ، أعادها من جديد ولكن بأسلوب آخر ، وعقد الرجل رسالة المسيح ، وحاد بها عن مسارها الطبيعي(٢) .

هذه هي طريقة اليهود في تشويه الرسالات السماوية ، شوهوا رسالة موسى عليه السلام وجميع أنبيائهم ، وآخرها رسالة المسيح ، وظنوا أنهم يستيطعون تشويه رسالة محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم ، ولكنها الرسالة الأخيرة فحفظها الله سبحانه وتعالى ، وأعلى كلمة الإسلام :

« **إنّا نحْنُ نَزَّلْنَا الذّكْر وإنّا لَهُ لحَافِظُون** » .

وبعد أن تشتت اليهود في أرجاء العالم على يدي زعيم الدولة الرومانية (طيطلوس) (٦٩ — ٧٠ م) أتى بعض اليهود إلى الجزيرة العربية ، وسكنوا يثرب واستوطنوها ، ولأن العرب

١ — الكتاب المقدس : العهد الجديد : اعمال الرسل (٩:٤ ، ٥) .
٢ — السابق : انظر رسائل بولس الثلاثة عشرة .

أهل جود وكرم ، وحسن جوار ومعاشرة ، أعطوا لهم الأمان ، فعاشوا بينهم ، ولكن اليهود يريدون السيادة على الجزيرة العربية ، فأوقعوا بين جيرانهم من الأوس والخزرج حتى تكون لهم الكلمة العليا بعد أن يضعفوا .

وظهر الإسلام ، وبهت اليهود عندما عاد الأنصار الأول بعد بيعة العقبة الكبرى ، وفي الظن أنهم خزرجيون كسابقيهم في البيعة الأولى فكانت المفاجأة حقاً أن فيهم ثلاثة من زعماء الأوس مع تسعة من مختلف أحياء الخزرج(١) ، هكذا وحد الإسلام بين الأوس والخزرج قبل أن يأتي الرسول إلى دار الهجرة، فاستشاط اليهود غيظاً من هذا الدين الجديد الذي هدم كل ما حاولوا بناءه طيلة خمسة قرون من الزمان ، ولكنهم دائماً يبتلعون الغيظ ليوسعوا الحيلة ويدبروا الأمر فيما بينهم بخبث ودهاء شديدين ، لدس بذرة الشقاق كعادتهم دائماً .

وعادوا إلى أوكارهم يدبرون — بعد أن تعدوا أول خطوة من حيلتهم للحرب الخفية ليتقوا المواجهة الصريحة والصدام المسلح .

حاولوا الإيقاع في مبدأ الأمر بين الأوس والخزرج — لعبتهم المفضلة في يثرب — وكادوا أن ينجحوا في هذا ، وتواعد كل من الأوس والخزرج على القتال بموضع « الحرة » واندفعوا إلى الحرب ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم حقن الدماء بحكمته ، وأخمد الفتنة ، وخاب كيد اليهود .

وعادوا من جديد إلى أوكارهم ليتدارسوا الأمر على ضوء ما سبق من أحداث — في كيفية هدم الإسلام ، وبدأوا حرب

١ — د. بنت الشاطىء : مع المصطفى صلى الله عليه وسلم (ص ١٠١).

الجدل ، فجادلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بمسائل تملأ مجلدات ، وكتب السيرة مليئة بها(١) .

ويضيق الصحابة رضي الله عنهم بمحاولات اليهود هذه ، والنبي صلى الله عليه وسلم صابر عليهم .

وكان بيت المقدس قبلة المسلمين حتى النصف من شعبان في السنة الثانية من الهجرة واليهود يجادلون بما يعلمون وما لايعلمون ، ويلبسون الحق بالباطل ليفتنوا المسلمين ويوقعوا بينهم لما رأوه من قوة شوكتهم وعظم أمرهم ، فأخذوا يرجفون ويتحدثون بأن من واجب محمد صلى الله عليه وسلم — وقد جاء مقتفياً آثار موسى وعيسى عليهما السلام — أن يذهب إلى بيت المقدس للحج ، كما كان الأنبياء من قبله يفعلون(٢) ، ومنهم من يتساءل ويعجب من هذا الذي يخالف دينهم ويتبع قبلتهم ، وانتظر النبي صلى الله عليه وسلم أمر ربه صابراً راضياً بحكمه فأنزل الله القول :

« قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وجْهِكَ في السَّماء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاها فوَلِّ وجهكَ شَطْرَ المسْجِدِ الحرَام وحيْثما كنْتمْ فولوا وجوهكم شَطْرَهُ وإنَّ الذينَ أُوتُوا الكتَابَ ليَعْلمُون أنّهُ الحَقُّ مِنْ رَبهم وَما اللهُ بِغَافِلٍ عَمّا يَعْمَلُون » . (البقرة : ١٤٤)

وهكذا نصر الله محمداً صلى الله عليه وسلم على اليهود ومرددي أقوالهم من المشركين .

---

١ — انظر ابن هشام : سيرته (ج ٢) .
٢ — ابن هشام : سيرته (١٩٦:٢) ، الطبرى (٢٤٥:٢) .

واليهود منتهزوا فرص ، ظنوا أن الفرصة مواتية لهم ليهدموا رسالة محمد صلى الله عليه وسلم من أساسها ، فعادوا يثيرون الشبهات من جديد ، وبدهاء ومكر شديدين ، انتخب اليهود نفراً من أحبارهم ليساوموا الرسول صلى الله عليه وسلم ليعود إلى قبلتهم بالقول :

يا محمد – ماولاك عن قبلتك التي التي كنت عليها وأنت تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه ؟ ارجع إلى قبلتك التي كنت عليها نتبعك ونصدقك .

ويرد عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم القول بوحي من ربه :

« سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاس ما ولاهمْ عَنْ قِبْلَتِهِم التي كانُوا عَلَيْهَا قُلْ للهِ المَشْرِقُ والمغْرب يهْدِي مَنْ يَشَاءُ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم »

(البقرة : ١٤٢)

« وَلَئِنْ أَتَيْتَالذِينَ أُوتُوا الكِتَاب بكُلِّ آيةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِع قِبْلَتهم » .

(البقرة : ١٤٥)

وتتكرر المحاولات ، محاولات كلها الدناءة والخسة ، لعل محاولة منها تصيب الإسلام في مقتل مع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطاهم الأمان وعاهدهم على ذلك .

ويزداد عدد المسلمين وتشتد قوتهم ويأتي رجل مسيحي يدعى أبو عامر الراهب بفكرة بناء مسجد على غرار مسجد الرسول

ليشتت المسلمين ويضعف اتحادهم لما رآه من أثر المسجد على نفوس المسلمين ، ويعاون اليهود في بناء المسجد الذي سماه القرآن الكريم « مسجد الضرار » .

« والَّذينَ اتَّخذُوا مسْجداً ضِراراً وكُفْراً وتَفْريقاً بينَ المؤْمنينَ وإرصَاداً لمنْ حاربَ اللهَ ورسُوله مِنْ قَبْل وليَحْلفنَّ إنْ أرَدْنا إلاَّ الحُسْنى واللهُ يشْهَدُ إنَّهُم لكاذِبُونَ * لاَ تَقُم فيه أبداً لمَسْجِدٌ أسِّس على التَّقْوى مِن أوَّل يَوم أحَقّ أن تقُومَ فيهِ فيهِ رِجالٌ يحبُّونَ أن يتطَهَّرُوا واللهُ يُحِبُّ المطَّهِّرينَ » . (التوبة : ١٠٧ ــ ١٠٨)

فقد كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم إليها رجل من الخزرج يقال له أبو عامر الراهب وكان قد تنصر في الجاهلية وقرأ علم أهل الكتاب وكان يتعبد على شريعتهم وله شرف في الخزرج كبير .

فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مهاجراً إلى المدينة واجتمع المسلمون حوله وصارت للإسلام كلمة عالية وأظهرهم الله يوم بدر لم يرق ذلك لأبي عامر وجاهر بعدائه للإسلام وفر ملتجئاً إلى كفار مكة ومشركي قريش يحرضهم على حرب رسول الله فكان يوم أحد ثم كانت العاقبة للمتقين وكان أبو عامر هذا الخبيث قد حفر حفائراً بين الصفين المتقاتلين وقع الرسول صلى الله عليه وسلم في إحداهن وجرح في وجهه وكسرت رباعيته وشج رأسه . وكان رسول الله قد دعاه للإسلام فأبى فدعا عليه رسول الله أن يموت بعيداً طريداً فنالته تلك الدعوة . وذلك أنه فر إلى هرقل

ملك الروم يستنصره على النبي صلى الله عليه وسلم فوعده بذلك فكتب إلى جماعة من قومه الخزرج من أهل النفاق بأنه سيأتي بجيش يقاتل به رسول الله ويغلبه وأمرهم أن يتخذوا له معقلا يقدم عليهم من يرسله من طرفه إليه ويكون مركزاً لهم فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء فأحكموا بنيانه ولما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من تبوك ولم يبق بينه وبين المدينة إلا يوم أو بعضه أخبره جبريل بخبر مسجد الضرار بأنه بني لأجل التفريق بين المسلمين بصرفهم عن مسجد قباء الأول الذي أسس من أول يوم على التقوى فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذلك المسجد من هدمه وقوض دعائمه قبل أن يصل المدينة (١) .

وهكذا نرى النصرانية الصليبية التي حرفها بولس اليهودي تتحالف مع اليهودية لمحاربة الإسلام منذ أول ظهوره بأخبث وسائل الكيد والمكر والدس بين صفوف المسلمين ، ولكن الله دائماً لهم بالمرصاد ، فلم تتحقق غاية أبي عامر وهلك في بلاد الروم .

واستمرت رسالة المسجد ترسل نورها في أرجاء الكون تهدي الخلق إلى الصراط المستقيم وعبادة رب العالمين إلى يوم يبعثون .

ولكن لم تهدأ نفوسهم الحربة على الرغم من كشف أمرهم ، فلا عجب في ذلك فهم قوم لا يستحون ، واغتنموا الفرصة بعد صلح خيبر لقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعت زينب بنت الحارث زوج سلام بن مشكم النبي صلى الله عليه وسلم وبعض صحبه إلى وليمة قدمت لهم فيها شاة ، وكانت تعلم أن رسول الله

---

١ ـ تفسير ابن كثير

صلى الله عليه وسلم يحب ذراع الشياه ، فأكثرت السم في ذراع الشاة ، وتناول النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً من الشاة فلم يسغه ، بينما أكل أحد أصحابه منها فمات ، وانقذ الله سبحانه رسوله من غدر اليهود .

هذه كانت بعض صور من حرب اليهود للإسلام في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، صور كلها الخسة والدناءة كلها المكر والخداع .

وسعد اليهود بوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وظنوا أن الإسلام قد انتهى أمره بصعود الروح الطاهرة إلى الرفيق الأعلى واعتقدوا أن القضاء على الإسلام أصبح شيئاً سهلا ، وخاب ظنهم ، فتولى أمر المسلمين رجال عظماء أشداء ، لا يخافون في الحق لومة لائم ، أضاء القرآن عقولهم وقلوبهم ، وضاعفت روح الرسول وسنته قدرتهم وأثرت روح المسجد في حياتهم .

ولعب اليهود في الحرب ضد الإسلام أيام الخلفاء الراشدين دوراً خطيراً فدسوا السم (٢) لأول الخلفاء الراشدين أبي بكر الصديق رضي الله عنه في أرز أو في حريرة ، فأكل منه هو والحارث بن كلدة فكف الحارث وقال لأبي بكر ، أكلنا طعاماً مسموماً سم سنة ، فماتا بعد سنة .

وبعد سقوط فارس ، عقد المجوس مع اليهود عهداً على التآمر على الإسلام ومحاولة القضاء عليه ، وقد أدى ذلك التآمر إلى مقتل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه بخنجر أبي لؤلؤة المجوسي ، الفارسي — حيث قال كعب الأحبار

---

١ — ابن الاثير : الكامل فى التاريخ (٢:٢٨٧) .

لأمير المؤمنين عمر « يا أمير المؤمنين : أجد في كتاب التوراة أنك ميت في ثلاث ليال » قال عمر : « أتجد عمر بن الخطاب في التوراة ؟ » قال : « لا ، ولكني أجد وصفك ، وانك قد فنى أجلك » وفي اليوم الثالث اغتاله أبو لؤلؤة المجوسي وهو يصلي .

شحذوا كل خبثهم في حرب الإسلام .

ومؤامراتهم في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه، أثاروا بها الفتنة بين المسلمين التي أدت إلى ضرر بالغ في الدولة الإسلامية .

وأثاروا الفتنة بين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ومعاوية ابن أبي سفيان .

وتعاون المجوس مع اليهود في وضع مخطط دقيق لتمزيق جبهة الإسلام وإيجاد صدام رهيب محتم ، وحمل لواء هذا المخطط عبد الله بن سبأ وسار به سيراً دقيقاً ، واستغل كل الأحداث ، واختلق مواقف بارعة ماكرة رمى بها إلى ضرب الوحدة الإسلامية وتمزيق الجماعة الإسلامية (١) .

ووضع هذا الرجل علي بن أبي طالب موضع الإله ، وقال حين قتل علي : « لو أتيتمونا بدماغه ألف مرة ما صدقنا موته ، ولا يموت حتى يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا » (٢) .

ويسير بنا التاريخ فنرى لهم في كل زمن خدعة ، وفي كل وقت مكيدة . ففي أيام الفاطميين لعب ابن كلس اليهودي ،

---

١ ـ انور الجندى : الاسلام وحركة التاريخ (ص ١٠١) .

٢ ـ د. مصطفى الشكعة : اسلام بلا مذاهب (ص ١٧٤) .

ونشتكين الدرزي دوراً خطيراً في محاولة لتفتيت العقيدة الإسلامية وتمزيق وحدة المسلمين ، بل انهم مكنوا لبعض الخونة من تولي الوزارة والتعلق بها حتى أنه لم يجد بعضهم (الوزراء الخونة) أية غضاضة في أن يستعين على خصومه من المسلمين بأعداء الإسلام من الصليبيين الذين كانوا مغتصبين لديار العرب والمسلمين في ذلك الزمان (١) .

ولم يهدأ اليهود أبداً في حربهم على الإسلام وتشويه صورته على مر التاريخ فحاولوا تشويه القرآن الكريم ، وإدخال الأحاديث البعيدة عن المنطق والمليئة بالشعوذة ، وتشويه السيرة النبوية العطرة وما زال بعض أولئك مثبتاً في كتب التاريخ حتى اليوم .

وليس عجيباً أن يتحد النصارى مع أعدائهم التقليديين اليهود الذين قتلوا إلههم وصلبوه - كما يزعمون - ما دام هذا الإتحاد لصد الإسلام ، وأحدث صور هذا الإتحاد ما أعلنه البابا بولس السادس - بابا روما - منذ سنوات قلائل من أن اليهود بريئون من دم المسيح ، على الرغم من أن الأناجيل التي يتبعها هذا البابا . ويحفظها عن ظهر قلب تقول أن اليهود هم الذين تزعموا فكرة صلب المسيح وعلى رأسهم الكاهنان « حنان وقيان » وأراد الوالي الروماني بيلاطسي النبطي أن يفرج عن المسيح ، إلا أن اليهود أصروا على صلبه ، وكان لهم ما أرادوا (حسب أناجيلهم الأربعة) (٢) .

---

١ - د. مصطفى الشكعة : اسلام بلامذاهب (ص ٥٥٣) .
٢ - انظر انجيل متى الاصحاحات ٢٦ ، ٢٧ ، وانجيل مرقص ١٥ ، ولوقا ٢٢ ، ٢٣ ، ويوحنا ١٨ ، ١٩ .

ولا عجب من هذا الاتحاد ، فالنصارى شرقيون وغربيون يحاربون الإسلام بشراسة وضراوة ، بالقلم والسيف ، واليهود يحاربون بالخبث والدهاء ، فلا مانع من هذا الاتحاد ، على الرغم من أن مسيحيي الغرب أقاموا المذابح لليهود على مر العصور لاعتقادهم بأنهم صلبوا مسيحهم .

ومن صور تعاون اليهود مع الغرب ، أنهم مكنوهم من بلاد المسلمين في الحربين العالميتين الأولى والثانية .

ومن ناحية أخرى شنت دور النشر اليهودية المنتشرة في أنحاء أوروبا حرباً شعواء على المسلمين والإسلام، فجندت بعض الكتاب من أصحاب الذمم الخربة للكتابة ضد الإسلام ، وضد المسلمين وعن تخلفهم ، وعن جهلهم ويزعمون أن محمداً صلى الله عليه وسلم كتب القرآن بمعاونة ورقة بن نوفل ، وأحياناً يقولون أن القرآن إحدى صور التلمود اليهودي ، مستغلين جهل القاريء الأوربي الباحث عن الحقيقة باللغة العربية ، وبالإسلام ، وليس لدى هذا القاريء إلا هذا النوع من المجلات والكتب .

ولنأخذ مثلا حياً ، فإن أي كاتب يكتب ضد الإسلام تجزل له دور النشر اليهودية العطاء وتطبع له كتبه بصورة فاخرة ، وتبيعها بثمن زهيد يكون في متناول الجميع ، وعندما بدأ كتاب الغرب ينظرون للإسلام نظرة موضوعية – لطبيعة تقدم العصر ، وإن كانت لا تخلو من العداء ، مثلما نقل الكاتب الإنجليزي

« سير هاملتون جب » الذي كتب كتاباً تحت عنوان « المحمدية » وهو كتاب لا ينصف الإسلام أو محمداً صلى الله عليه وسلم في شيء ، ولكنه كبداية غربية تنظر إلى الإسلام بشيء من الموضوعية عن الفتوحات الإسلامية ، وانتشار الإسلام في أنحاء العالم ارتاعت الدوائر اليهودية من هذه النظرة الجديدة للإسلام ، لأن الإسلام – على الرغم من العداء الذي في الكتاب للإسلام – سيشق طريقه بسهولة إلى دول أوروبا .

هرع اليهود إلى كاتب يدعى « ألفريد جيلوم » ليكتب كتاباً يرد فيه على كتاب هاملتون جب « المحمدية » ويزيد من تشويه صورة الإسلام في نظر الغرب وألف الرجل كتاباً بعنوان «الإسلام» ونشرته مؤسسة بنجوين « اليهودية » وهي أشهر دور النشر في انجلترا وأوروبا ، وطبعته مرتين ، وترجمته لأكثر من لغة حية (١) وبيع بثمن زهيد رغبة في شيوعه وانتشاره .

ولعب ألفريد جيلوم في هذا الكتاب لعبة اليهود المفضلة ، وهي التركيز على عقدة الذنب عند الشعوب الأوربية وهي الاتهام الدائم بتعذيب اليهود وتشتيتهم على مر الصعور ، وكان اليهود وما يزالون يلعبون هذه اللعبة بمهارة فائقة في أوروبا ونجحوا فيها إلى أبعد حد ، وخاصة في ألمانيا الغربية ، ويرجع نجاح اليهود في هذا الأمر إلى أنهم لا يلعبونها إلا بعد القياسات النفسية والاجتماعية الدقيقة وتهيئة النفوس – بما يملكونه من وسائل الإعلام فكان نغمهم مؤثراً كل التأثير في نفوس الغرب .

---

١ – صور استشراقية ، د. عبد الجليل شلبى (ص ١٧١) .

ونعود لكتاب « الإسلام » الذي كتبه أجير اليهود « ألفريد جيوم » فنقول أن هذا الرجل لعب نفس اللعبة المفضلة لديهم ، والتي لاقت رواجاً كما ذكرنا قبل قليل وحمل الرجل حملة حقيرة على الإسلام ، وعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وألقى عليه مسئولية اضطهاد اليهود وتشتيتهم ، وقتلهم دون مبرر معقول ترضاه العدالة ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم اتخذ من حادثة زينب بنت الحارث زوج سلام بن مشكم التي دست له السم في الشاة ، وقتلت أحد الصحابة ، سبباً في تشريد اليهود وتعذيبهم ويدافع ألفريد جيلوم في كتابه هذا عن زينب بنت الحارث ، ويقول أنها كانت معتوهة ، وإنما فعلت هذا بدافع الجنون ، جنون الإنتقام وأن دسها للسم ليس مبرراً لتشريد اليهود .

ومن أشرس الحروب على الإسلام والمسلمين ، الحركة المسماة بالصهيونية العالمية ، لقد بلور اليهود كل أهدافهم السياسية وأقاموا لها ما يسمى بالصهيونية العالمية في القرن التاسع عشر ، مدعين أن الصهيونية شيء – لأنها قائمة على أساس سياسي – واليهودية شيء آخر – لأنها دين سماوي – وقالوا وما زالوا يقولون « ليس كل يهودي صهيونياً ، ولكن كل صهيوني يهودي ».

وأعتقد ويعتقد معي كل مسلم ، أنه لا فرق بين الصهيوني واليهودي فهما وجهان لعملة واحدة ، فالصهيوني هو اليهودي ، وكل يهودي صهيوني بدليل أنه بعد مجهودات تيدور هرتزل وحاييم ويزمان وديفيد بن جوريون في إقامة دويلة إسرائيل – بمعاونة الإستعمار العالمي وخاصة بريطانيا ، هاجر إليها اليهود من كل أنحاء العالم ، حتى اليهود المقيمين في الدول الإسلامية

وكانوا يدعون أنهم ليسوا بصهاينة ، وكان هؤلاء غاية في الشراسة خلال حروبهم مع العرب ، وطردهم شعب فلسطين ، والتاريخ حافل بمذابحهم ، وأشهرها مذبحة دير ياسين ، التي بقروا فيها بطون الحوامل ، وقتلوا الأطفال والشيوخ بلا رحمة ولا إنسانية .

وهكذا تمخضت الحركة الصهيونية أول ما تمخضت عن زرع شوكة في حلق البلاد العربية ، تسمى دويلة إسرائيل ، التي فصلت ما بين مشرق الأمة العربية ومغربها وعاون عباد الصليب الحركة الصهيونية ودويلة إسرائيل الجديدة بالمال والسلاح ومدهم الشرق الشيوعي بالرجال .

ومن أخطر ما فعله اليهود في العصر الحديث ، وبعد تأسيس إسرائيل أنهم استطاعوا تكوين فرقة عسكرية من الدروز أدعياء الإسلام المرتدين وهم يقولون بألوهية الحاكم بأمر الله ، ولا يعترفون بالقرآن الكريم ولا بنبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ونبيهم شعيب يحتفلون بعيده مع اليهود ويحللون ما حرم الله ويحرمون ما حلل فلا يصلون ولا يصومون ويبيحون نكاح المحارم بخلوة خاصة تجتمع بها النساء والرجال فتطفأ الأنوار ويأخذ كل رجل امرأة لا على التعيين سواء كانت الأم أو الأخت أو البنت فيواقعها . وهم يتظاهرون بالإسلام غشاً وخداعاً ويحللون قتل المسلم غيلة وأنه يقربهم من الإله .

دور الصليبيين :

بدأ حقد الصليبيين على الإسلام منذ ظهوره ، وبدأ حقدهم يأخذ صورة الحرب في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد بدأها أبو عامر الراهب بفكرة مسجد الضرار عاونه فيها اليهود ، والمنافقون كما أسلفنا .

وفي غزوة مؤتة ـ بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الحارث بن عمير إلى الغساسنة يدعوهم إلى الإسلام فقتلوا رسول النبي ، فسار المسلمون في جيش قوامه ثلاثة آلاف جندي بقيادة زيد بن حارثة ، فلقيته جموع هرقل والعرب في جيش عدده مائة ألف مقاتل عند قرية « مؤتة » استشهد فيها زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة ، وجعفر بن أبي طالب . أما خالد بن الوليد فكان له الفضل بعد الله تعالى في عودة جيش المسلمين سالماً (١) ، ولقب خالد بعد هذه المعركة « بسيف الله » ، وكان ذلك في السنة الثامنة للهجرة .

وفي السنة التاسعة للهجرة ، خرج المسلمون لتأديب الروم بعد أن بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم قد تجمعوا على حدود فلسطين لقتال المسلمين ، ، ومعهم بعض القبائل العربية(٢) وبلغ الرسول مدينة تبوك ، وهناك أتاه « يوحنا » صاحب ايلة فصالح النبي صلى الله عليه وسلم وكذلك أتاه جرباء وازرح فصالحاه على الجزية ، وعارض الصلح « اكيدر بن عبد الملك » النصراني صاحب دومة الجندل ، فندب له النبي صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد في كتيبة من جنده ، فأسره خالد ، وبعد أن أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بضعة عشر ليلة في تبوك ، أسس بها مسجدا (٣) .

وغزوة اليرموك التي جمع لها هرقل جيشاً عدده حوالي خمسين ألفاً تحت قيادة شقيقه « تيودور » للوقوف ضد دين

---

١ ـ د. حسن ابراهيم ـ تاريخ الاسلام السياسى (١٧٦:١) .
٢ ـ المرجع السابق (١٨٩:١) .
٣ ـ د. بنت الشاطىء ـ مع المصطفى (ص ١٢٨) .

الإسلام ، فجمع له خالد بن الوليد رضي الله عنه خمسة وعشرين ألف مسلم – أي نصف جند النصارى – وهزم عباد الصليب شر هزيمة على الرغم من تفوقهم العددي ، ولم تجدهم نفعاً أناشيد الكهنة وصلواتهم وإشهار الصلبان (١) أمام دين الإسلام .

ففي عصر الدولة الأموية ، وبعد أن هدأ الموقف على حدود الدولة البيزنطية المتاخمة لحدود بلاد المسلمين ، أخذ الروم في مهاجمة عالم الإسلام فاستولوا على بعضها ، واقتحموا ساحل سوريا ، إلى أن تمكن أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان من استعادتها (٢) .

واستمرت حروب الروم ضد الإسلام – التي يعتبرها المؤرخون البداية الحقيقية للحروب الصليبية الشهيرة (٣) ، على أني أعتبر بداية الحروب الصليبية تلك التي بدأت في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه منذ خمسة قرون وفي خلال الفترة التي ظلت الدولة الرومانية تواصل هجومها على أرض المسلمين منتهزة فترات الضعف والخلافات الداخلية ، وقد واصل المسلمون مقاومتها في مواقف متوالية شارك فيها الرشيد والمأمون والمعتصم (٤) .

وبدأت الحملات الصليبية الشهيرة سنة ٤٩٢هـ / ١٠٩٩م ، وكانت عنيفة مليئة بروح التعصب والانتقام ، عكس الفتوحات

---

١ – فيليب حتى – تاريخ العرب (ص ١٩٥) – ترجمة محمد مبروك نافع .
٢ – انور الجندى – الاسلام وحركة التاريخ (ص ٢٠٠–٢٠١) .
٣ – المرجع السابق (ص ٢٠٧) .
٤ – المرجع السابق (ص ٢٠١) .

الإسلامية ، التي كان شعارها الرحمة والعدل ، وحرية العقيدة لأهل الكتاب – وهذا يتضح في المعاهدة التي أبرمت بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين يهود يثرب ، وبين خالد بن الوليد وبين نصارى دمشق وبين عمرو بن العاص وبين أقباط مصر . . . . الخ . . وكان هدف الفتوحات الإسلامية نشر الإسلام بلا عنف ، فلا إكراه في الدين – وكان كتاب الله في عقول المسلمين ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم في قلوبهم ، وروح المسجد في نفوسهم .

وبدأت الحملات الصليبية ، واستهدفت الحملة الأولى سنة ٤٩٢هـ بيت المقدس واستطاع الصليبيون باحتلال بيت المقدس إقامة أربع إمارات :

الأولى : إمارة الرها (٤٩٢ – ٥٣٩هـ) .

الثانية : إمارة طرابلس (٤٩٦ – ٦٨٨هـ) .

الثالثة : إمارة انطاكية (حتى سنة ٦٦٧هـ) .

الرابعة : إمارة بيت المقدس .

وقاوم المسلمون منذ اللحظة الأولى هذه الحملات ، وتطور الأمر بعد ذلك إلى هجوم حمل لواءه عماد الدين زنكي الذي استطاع أن يستعيد الرها كبرى المعاقل الصليبية سنة ٥٣٩ هـ .

أما الحملة الثانية (٥٤٢ هـ) فقد كانت نتيجة لسقوط الرها ، وتتوالى الحملات وتتوسع المقاومة حتى قمتها في أعمال البطل صلاح الدين الأيوبي ويسترد بيت المقدس (٥٨٣ هـ) هناك أخذت الحملات الصليبية تتوالى على مصر بوصفها المركز الأقوى

الذي يقود حركة المقاومة ، فاتجهت الحملة الخامسة (٦١٣ هـ) إلى دمياط ، والسابعة (٦٤٧ هـ) إلى دمياط ثم المنصورة .

أما الحملة السادسة (٥٦٢ هـ) فاتجهت إلى بيت المقدس من جديد واحتلوه إلى أن أخرجهم المماليك (٦٤٨ هـ) .

أما الحملة الثامنة (٦٨٨ هـ) فاستهدفت تونس(١) والمغرب .

ليس هذا فقط ، بل يجمع المؤرخون على أن غزو التتار لبغداد إنما كان بتحريض واتفاق مع الصليبيين في سبيل القضاء على قوة الإسلام ، واستطاعت أوروبا أن تقيم صلات مع تتار فارس بلغت درجة عالية ، فاستطاعت أن تحقق من الغزو التتري لمناطق الشام والجزيرة وأطراف آسيا الصغرى نتائج مهمة ، إذ هي المناطق التي تتاخم المملكة التونسية على ساحل الشـــام ، فالقضاء عليها وضربها لا شك يؤدي إلى إضعافها وعجزها عن مقاومة نفوذ الصليبيين ، وقد كشف التاريخ أن ضربات التتار كانت تزداد عنفاً كلما استولوا على مدينة من مدن الشام الإسلامية مثل حلب ودمشق ، فقد كانوا (يسرفون في اضطهاد أهلها المسلمين ، وامتهان مساجدهم بقدر ما اسرافوا في تأمين العناصر المسيحية ، واحترام كنائسها ودورها»(٢) . والمعروف أن زوجة هولاكو « ذوقوز خاتون » وأمهكانتا مسيحيتين على المذهب النسطوري ، الأمر الذي جعل هولاكو يعطف على المسيحية قدر ما قسا على المسلمين ، كما أن هناك ما يثبت(٣) أن ملك أرمينيا

---

١ ـ المرجع السابق (ص ٢٠٨ـ٢٠٩) .
٢ ـ مسعد عاشور ـ الحركة الصليبية (٢:١١٣٠) .
٣ ـ انور الجندى ـ الاسلام وحركة التاريخ (ص ٢٣٥) .

الصغرى المسيحي اتصل بهولاكو ورسم معه خطة غزو بلاد الشام وانتزاع بيت المقدس من المسلمين ليتسلمه المسيحيــون .

كما تعاون النصارى مع التتار في الحملة التي شنها تيمور لنك على الدولة العثمانية الناشئة ، وللصليبيين دور آخر في حرب الإسلام في الغرب ، لقد استمرت حربهم للمسلمين بالأندلس طيلة تسعة قرون كاملة .

فبعد أن فتح المسلمون الأندلس ، واستتب الأمر فيها ، بدأ الحكام من بنى أمية في النهوض بشأن البلاد ، وأهم ما فعلوه نشر العلم ، والحث على التعليم فقد كان الحكام أنفسهم من العلماء يشجعون العلم(١) ، مثال ذلك عبد الرحمن الناصر الذي يغدق المنح على العلماء ، ولقد أسس سبعاً وعشرين مدرسة في العاصمة وحدها ، وكان التعليم مجاناً للجميع(٢) ، وفي عهده وصلت جامعة قرطبة التي أنشأها في الجامع الرئيسي إلى مكانة عالية بين معاهد التعليم في العالم أجمع ، وكانت تجذب إليها الطلاب مسيحيين كانوا أم مسلمين لا من الأندلس فحسب ، بل من أجزاء العالم المختلفة من أوروبا وأفريقيا وآسيا(٣) وكانت أوروبا في ذلك الوقت غارقة في ظلام الجهل وصكوك الغفران .

ولم تلق هذه النهضة العلمية والتعليمية استحسان رجال الدين في أوروبا فحاربوها بكل ما استطاعوا من قوة ونفوذ ، حتى بدأت سنة ١٤٤٩ م حملة بقيادة الكاردينال شيمنيه دي سسنيردس

---

١ ـ ابن الاثير : الكامل فى التاريخ (٤٩٨:٨) .
٢ ـ ابن عذارى (٢ : ٢٥٦) .
٣ ـ فيليب حتى ـ ترجمة محمد مبروك نافــع ـ تاريخ العــرب (ص ٦٨٩) .

ـ الكاهن الذي تعترف له الملكة إيزابيللا ـ كان الغرض منها إكراه المسلمين على التنصر ، فحرق الكتب العربية التي تعالج المسائل الإسلامية ، وأسس محاكم التفتيش وقد أطلق على المسيحيين لفظ الموريسكوس ، وتحت وطأة التعذيب أعلنوا تنصرهم ولكنهم كانوا يمارسون شعائر الإسلام سراً ، وكان الكثير منهم يعودون من حفلات عرسهم المسيحية ليعيدوا زواجهم سراً وفق الشعائر الإسلامية(١) وفي سنة ١٥٥٦ م أصدر فيليب الثاني قانوناً يحتم فيه على البقية الباقية من المسلمين أن يهجروا لغتهم وعباداتهم ودينهم وفي سنة ١٦٠٩ م أصدر أمره بطرد كل المسلمين من أسبانيا ، وخرجوا منها إلى المغرب وتونس ، ومات منهم في الطريق ما يقرب من تسعين ألفاً من الجوع والتعب(٢) .

وكان أول شيء فعله رجال الدين المسيحي ـ إغلاق المساجد وإكراه المسلمين على ارتداء الزي الأسباني ومنعوهم من الاغتسال ودخول الحمامات ومنعوهم من التكلم بالعربية ، وأخيراً حولوا المساجد إلى كنائس(٣) .

ولقد عاني المسلمون المخرجون من الأندلس حروب الصليبيين على موانيء المغرب العربي ، ذلك أن الأسبان حين طردوا المسلمين من الأندلس ، لم يكونوا ليقفوا عند هذا الحد ، بل اتحدوا مع البرتغال لاقتحام سواحل المغرب والانتقام من المسلمين في مخطط طويل هو تطويق العالم الإسلامي والسيطرة عليه فاندفع

---

١ ـ المرجع السابق (ص ٧١٩ـ٧٢٠) .
٢ ـ انور الجندى ـ الاسلام وحركة التاريخ (ص ٣٢٧) .
٣ ـ انور الجندى ـ الاسلام وحركة التاريخ (ص ٣٢٦) .

الأسبان والبرتغال يغزون شواطيء المغرب الإسلامي ، وكان هنري الملاح قد أعد خطة مع البرتغال للاتصال بملك الحبشة المسيحي والتحالف ضد المسلمين(١) .

دور الاستعمار :

مخدوع من يعتقد بأن الاستعمار شيء ، والحروب الصليبيلة شيء آخر ، ولكن ما حدث هو أنه بعد انكسار الحملات الصليبية الشهيرة ، بدأ الصليبيون في التخطيط من جديد لغزو عالم الإسلام على ضوء ما سبق من تجارب ، وتغيرت طبيعة العصر والفكر الأوربي ، فقد بدأ عصر النهضة ، وبدأ الفكر الصليبي يأخذ شكلا جديداً وتغيرت لافتة الحروب الصليبية إلى الاستعمار ، وقديماً كان الاستعمار يأخذ صورة عسكرية ظاهرة ، أما الآن فالاستعمار مستتر ، ويأخذ شكل الاستعمار السياسي والاقتصادي بلا غزو عسكري ، والله أعلم بما ستكون عليه صورة الحروب الصليبية في هجومها على عالم الإسلام في المستقبل ، فهم كالحرباء التي يتلون جلدها حسب الوسط الذي تعيش فيه ، كذلك هم ، تأخذ حروبهم على عالم الإسلام أشكالا مختلفة بما يتناسب وطبيعة العصر .

« ولنبدأ من البداية » .

عندما كانت أوروبا غارقة في بحر التخلف ، وظلام الجهل ، وصكوك الغفران كان عالم الإسلام يذخر بحضارة واسعة الآفاق ، عظيمة الأثر ، عميقة الفكر في جميع ألوان العلوم والآداب والحضارة وفن العمارة ، وفي هذه الآونة كان رسول

---

١ ـ المرجع السابق (ص ٣٢٨) .

الإسلام سخياً ـ كعادته دائماً ـ في عطائه لمن حوله ، يعطي بلا حدود ، لأن القرآن وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم علموا القائمين على هذه الأمور الدقة في البحث ، والأمانة في نقل العلم ، كما حث الإسلام على نشر العلم ، والتوسع في التعليم كما أسلفنا .

أعطى الإسلام العلم لعالم الغرب بسخاء ، وبلا فخر ، وبلا من ، فهو يعتبرهم أهل كتاب ، وحرية العقيدة مكفولة في الإسلام ، وكان هذا العلم مبعث النهضة الحديثة في أوروبا في القرن الخامس عشر الميلادي ـ التاسع الهجري (عصر النهضة أو عصر الرينياسانس) كما يسمونه .

وقد التقى الغرب بحضارة الإسلام في المعارك الصليبية ، حين غزا الأضعف الأقوى فكان ذلك مقدمة لإقامة الجسور الكبرى التي نقلت الحضارة ، وعظيم الفكر الإسلامي إلى حضارة الغرب وثقافته .

وقد اتصل هذا التأثير وبلغ غايته حين انضمت الأندلس نهائياً بجامعاتها ومعاهدها العلمية ، وخزائن كتبها وحضارتها إلى الغرب . هنالك نقلت أوروبا جذور الحضارة الإسلامية والثقافة العربية إلى لغاتها(١) .

بل إن النقل من الفكر والثقافة الإسلامية بدأ في أوروبا منذ القرن الخامس الهجري ـ الحادي عشر الميلادي ، وفي تقدير كثير من الباحثين أن الحضارة الإسلامية انتقلت إلى أوروبا عن

---

١ ـ انور الجندى : الاسلام وحركة التاريخ (ص ٢٨٦) .

طريق مصادر مختلفة ، غير أن الجزء الأكبر انتقل عن طريق الأندلس ، ويقدر بأربعة أخماس الحضارة(١) .

واستوعب الغرب الحضارة الإسلامية بعد حركة نشطة ، وبدأ من حيث انتهى العرب وبدأت مرحلة الجمود ، وأنكر الصليبيون فضل الثقافة العربية عليهم واستعملوها سلاحاً لضرب عالم الإسلام ، والقضاء على الإسلام والمسلمين كقوة خطيرة منافسة لهم وللثأر من حروبهم وحملاتهم الصليبية التي فشلت ، واستغلوا قوى العلم في السيطرة على أساس التعصب ومقاومة دين الإسلام الخطر عليهم .

وهكذا يستيقظ الغرب على فكر الإسلام وحضارته ، وبدأ يستأنف غاراته المليئة بالحقد والكراهية والتعصب ، وبدأوا جولة أشد عنفاً من الحروب الصليبية مستفيدين من درس الماضي وبدأوا في حملة عقاب لعالم الإسلام ، وكان البرتغاليون والأسبان أصحاب فكرة الالتفاف حول عالم الإسلام وتطويقه ، ثم الانقضاض عليه بعد أن يضعفوا قوته بالاستنزاف العسكري والمعنوي والاقتصادي(٢) .

يقول جورج كيرل في هذا المعنى :

(لقد كان هدف هنري الملاح هو استمرار الصليبيين بواسطة التغلب على دار الإسلام حربياً وتجارياً وانتزاع تجارة الذهب وغيره من أيدي المسلمين في الجنوب ، من هنا بدأت في أوائل القرن الخامس عشر الميلادي (التاسع الهجري) وخلال

---

١ ـ السابق (ص ٢٨٦) .
٢ ـ السابق (ص ٢٩١) .

القرن السادس عشر حركة يقودها البرتغاليون والأسبانيون في الاستيلاء على موانيء شواطيء أفريقيا (مراكش والجزائر) سبقته طنجة وطليطلة ، والمرسى الكبير ، ثم اتصلت هذه المحاولات باحتلال البرتغاليين للبحرين ومسقط بقصد محاصرة الأساطيل العربية في البحر الأحمر والخليج .

ويقول الدكتور حسين مؤنس في نفس الموضوع : (إن أوروبا لم تكف عن التفكير في عالم الإسلام ، والأخذ بثأرها من الحروب الصليبية حتى هداها تفكيرها إلى حركة الالتفاف الجنوبي ، وفي القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلادي (السادس والسابع الهجري) سعت إلى تنصير المغول حتى تحصر عالم الإسلام بين دولتين مسيحيتين (للانقضاض على الإسلام بالطريق البري — وكيف اتصلت الأسباب بينها وبين الحبشة النصرانية للقضاء على المقاومة الإسلامية في مصر ، ثم كيف بدأت تتجه للوصول إلى الهند (بلاد الإسلام) .

ويقول باركر ، مؤرخ الحروب الصليبية : (كانت البعثات التبشيرية التي أرسلت إلى بلاد المغول ترجو من وراء حملتها أن تحقق أمل الصليبيين وتستعيد بيت المقدس إلى الأبد) .

ثم يضيف : (وفي الخيال صورة آسيا وأوربا المسيحية تحصران عالم الإسلام فلا يصبح بعد ذلك إلا عقيدة متضائلة محصورة في فئة قليلة من الناس) . وبعد فشل الصليبيين في تحقيق هذا الأمر ، أعادوا التفكير والتخطيط من جديد — حيث يقول نفس المؤرخ : (وتساءل الأوربيون إذا كان طريق البر قد أقفل . . فلم لا تسلك أوروبا طريق البحر ؟ لماذا لا تبحر إلى

الشرق وتهاجم الإسلام من الخلف وبذلك تستعيد بيت المقدس ؟ كان هذا أمل الملاحين الذين حملوا الصليب على صدورهم(١) .

هكذا كان الجحود والحقد وإنكار الجميل على الإسلام والمسلمين ، وبدأ الصليبيون يخططون وينظمون صفوفهم فيما بينهم للمرحلة الجديدة والتي سميت « الاستعمار » .

ونجحت مخططاتهم بعد فشل دام قروناً طويلة ، وتعاون الإنجليز والفرنسيون والهولنديون والبرتغاليون وغيرهم في تنفيذ هذا المخطط والدليل على اتفاقهم على مخطط واحد ، ذلك التوقيت الزمني الدقيق في بدء المخطط ففي الوقت الذي بدأت فيه انجلترا الغزو للهند بدأت فرنسا في استعمار الجزائر .

وبدأ تطويق العالم الإسلامي ، واستطاعوا احتلال بعض مناطق من الدولة العثمانية ، وبدأت البلاد الإسلامية تتساقط ، وكل يوم يمر تبسط دولة استعمارية غربية سيادتها وسلطتها على بلاد إسلامية جديدة وما أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها حتى أصبحت جميع البلاد الإسلامية في قبضة الصليبيين .

وهنا يجب أن نتذكر القول الشهير ، الذي قاله اللورد « اللنبي » الذي جاء على رأس قوات صليبية ليغزو بيت المقدس سنة ١٩١٧ م ، وبعد أن تم له ما جاء من أجله قال : (اليوم انتهت الحروب الصليبية (لقد عبر هذا اللورد بهذه الكلمة عن حقد الغرب وتعصبه ضد الإسلام والمسلمين .

ولكن أصحيح ما قال ؟ كلا ، وألف كلا . . إن الحروب الصليبية لم تنته ولن تنتهي ، إنها تأخذ كل يوم شكلا جديداً .

---

١ ـ المرجع السابق (ص ٢٩٤) .

ويعرف المستعمر أن الاحتلال العسكري لكل بلاد الإسلام ليس من سمة استعمار المستقبل القريب ، فيقيم دولة إسرائيل شوكة في حلق العالم العربي والأمة الإسلامية ، حتى يرهقوا العرب بكثرة الحروب ، ويضعفوا قوتهم ويفرقوا صفوفهم ويشتتوا كلمتهم ، وساند الغرب والشرق الشيوعي إسرائيل بكل ما يستطيعون من مال وسلاح ورجال كما يعرف ذلك كل مسلم ، وغير مسلم ، كما رأى المستعمر في غرس دويلة إسرائيل في قلب العالم العربي فرصة للتخلص من يهود الغرب ونكبة العرب بهم .

ونعود للاستعمار .

إن أول شيء فعله المستعمر الصليبي الغربي في كل بلد إسلامي بعد التمكن منه ، هو زعزعة دين الإسلام في عقول وقلب المسلمين ، والقضاء على روح المسجد في نفوسهم تمهيداً لتنصيرهم ، وبدأ في شن الحرب على الإسلام بخطة محكمة ومدروسة وفي حملات مسعورة ، وفي كل اتجاه ، وفي وقت واحد.

١ ـ الحرب على المسجد ،

واتخذت هذه الحرب صوراً متعددة :

أولا : إهمال المسجد من ناحية الجوهر ، والاهتمام بالمظهر الخارجي لصرف المسلمين عن التفكير الجدي في دور المسجد ، ومهمته الرئيسية في قيادة المسلمين ، لأنهم يعلمون جيداً بعد دراسات المستشرقين المستفيضة أن للمسجد أثراً بالغاً في نفوس المسلمين ، ويعلمون أن منه تخرج العلماء الذين أثروا الغرب بالعلوم العقلية والنقلية ، وتخرج فيه أعظم الساسة والقادة

العسكريين في التاريخ ومنه خرجت القيادات الإسلامية العظيمة ، ومنه تم تحرير أكثر من ثلث العالم فكرياً وسياسياً .

ثانياً : جعلوا القائمين على أمر المسجد – بمعاونة الحكام الضعفاء – أقل الناس علماً وشأناً ، وممن يميلون إلى الخرافات والأباطيل ودسها على الإسلام والإسلام منها براء ، لإيجاد دين زائف يسمى باسم الإسلام ، لأنه يحمله أفراد كأنهم علماء وما هم بعلماء ، ولكنهم صنعوا خصيصاً لأحداث فتنة فكرية إسلامية لبث الخرافات والبدع في ديار المسلمين وأجزل الاستعمار لهم العطاء إما من المعسكرات الاستعمارية ، أو من الشركات الأجنبية (١) .

وتحضرني في هذه المناسبة قصة سمعتها وأنا صغير من خطيب مسجد في خطبة الجمعة فإذا به وبصوته الجهوري يعدد قدرات الله ، وأن الله سبحانه وتعالى جعل للشمس خمسة وستين وثلاثمائة – بعدد أيام السنة – بيتاً تبيت فيه مما أثار سخط وضيق المصلين بالمسجد .

هذا بالإضافة إلى أن المعينين من قبل المستعمر لا يهتمون بمظهرهم ونظافتهم ، مع أن الإسلام دين نظافة ، والمسلمون أول من أقاموا الحمامات في الأندلس ، يوم أن كانوا في أوروبا يعتبرون هذه الأعمال رجساً من عمل الشيطان ويتناسى هؤلاء قول الله تعالى :

« خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ » .

---

١ – عبد المتعال الجبرى : لماذا اغتيل الشهيد حسن البنا (ص ١٠).

ولأن الاستعمار أجزل العطاء المادي لهؤلاء ، فلا مانع أبداً من استخدامهم لتنفيذ أغراضه وتحقيق مآربه ، فأوعز إليهم إلى تفسير قول الله تعالى :

« أَطِيعُوا اللهَ وأَطِيعُوا الرَّسولَ وأُولي الأمْرِ مِنْكُم » .

على أن طاعة الحاكم أي حاكم واجبة حتّى ولو كان فاسقاً مستعمراً ، معتمدين على جهلهم بالتاريخ وشراء ذممهم ، ونسي هؤلاء أن أول كلمة قالها خليفة المسلمين أبو بكر الصديق رضي الله عنه هي : (أيها الناس إني قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني ، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم) ، والأمثلة العظيمة كثيرة في أيام الخلفاء الراشدين ، وما بعدها .

ثالثاً : الحرب على زي رجال الدين والاستهزاء به ، حتّى صار هذا الدين مثاراً للفكاهة والتندر بين المسلمين أنفسهم ، وانطلق عملاء المستعمر كما حدث في مصر في تصوير الصور الكاريكاتيرية بالجرائد اليومية ، والمجلات الأسبوعية والشهرية لإضحاك الشعب والترفيه عنه ، متخذين رجال الدين مادتّهم وزيهم أساس هذه المادة .

كما ألفت المسرحيات الكوميدية الساخرة من نوع «الفارس»(١) والروايات الرديئة عن رجال الدين الذين يلهثون خلف النساء بلا خجل أو حياء ، ويقبضون الرشاوي لتغيير أقوالهم وذممهم ،

---

١ ــ نوع من الكوميديا يهدف الى الضحك للضحك عن طريق رسم الصور الكاريكاتيرية للشخصيات الرئيسية للروايات المسرحية .

ونوع آخر من هذه القصص يصورون فيها رجال الدين بأنهم هؤلاء النوع من الرجال الذين يقومون بأعمال الشعوذة والدجل أو أي شيء يغضب الله والناس في سبيل المال ، وتحضرني في هذا المقام شخصية ابتكرها في الجرائد المصرية عميل حقير هي شخصية الشيخ « متلوف » وضع فيها مبتكرها كل الصفات المنفرة ، صفات أقرب للشيطان من رجل الدين المفروض فيه أن يكون قدوة يحتذى به ، وفي المقابل الآخر ، آثر المستعمر ومعاونوه إظهار رجل الدين المسيحي في هذه الرسوم والروايات في صورة غاية في الاحترام والوقار والحكمة .

رابعاً : حرص المستعمر على إخلاء المساجد من الكتب ، وخاصة الكتب الإسلامية التي تحث على الجهاد ، وكتب التاريخ الإسلامي المشرق لأن مثل هذه الكتب ستثير القلاقل وتجعل من وجودهم أمراً مستحيلا ، لأن المسلم سيعرف تاريخ أجداده العرب وكيف كان جهادهم في سبيل الله .

خامساً : حرص المستعمر على إغلاق المساجد في غير أوقات الصلاة حتى يدخل في روع العامة من المسلمين أن المسجد إنما جعل للصلاة فقط ، ونفذ هذا الأمر هؤلاء المعينون للقيام بأمور المسجد من قبل المستعمر بدقة بالغة ، بل كانوا أكثر حرصاً في تنفيذ هذا الأمر حتى لا يواجهوا بالمسلمين الدارسين فينكشف أمرهم .

والعجيب في الأمر أن يأخذ عباد الصليب الكثير عن المسجد ، ليطبقوه في كنائسهم ففتحوا أبوابها طيلة أيام الأسبوع بعد أن كانت مغلقة موصدة إلا من يوم أو يومين — كما ألحقوا المدارس بالكنائس . . الخ .

٢ ـ الإشاعة بين المسلمين بأن الدين الإسلامي كان السبب الرئيسي في تأخر المسلمين وتخلفهم عن ركب الحضارة ، ودليلهم في هذا أن الشعوب الإسلامية جميعها دول متخلفة يشيع بينها الجهل والفوضى وفقيرة على الرغم من امتلاكها ثروات طبيعية هائلة ، ومرضى على الرغم من الجو الصحي الذي تتمتع به أغلب الدول الإسلامية ، كما أشاعوا أن الفضل الأكبر لحضارة الغرب إنما يكمن في اعتناقهم للدين المسيحي .

وهكذا تناسى المستعمر سريعاً ـ بجحود لا مثيل له ـ فضل الإسلام وعلماء المسلمين على حضارته المادية والروحية ، فللإسلام الفضل الكبير على الانتفاضة الدينية التي قادها مؤسس مذهب البروتستانت « مارتن لوثر » وتناسوا أسبانيا التي كانت أكثر الدول الأوروبية تقدماً في عهد الإسلام ، وصارت بعد ذلك في ذيل الدول الأوروبية بعد أن تخلت عن الإسلام ، ويتناسى المستعمر ـ ومروجوا إشاعاته ـ أن السبب في تأخر المسلمين عن ركب الحضارة إنما يكمن في تركهم دينهم وابتعادهم عن القرآن الكريم ، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعن المسجد ، فصاروا صيداً سهلا للمستعمر .

كما تناسى المستعمر أنه يوم أن كان لرجال الدين المسيحي السيطرة على حكومات الغرب ، وتجارتهم في صكوك الغفران ، كانوا غارقين في غياهب الظلام وعالم الخرافات .

٣ ـ الحرب على اللغة العربية ، لغة القرآن الكريم ، وإطلاق الإشاعة بين المسلمين بأن اللغة العربية لا تتناسب والعلم الحديث ، ولا تتناسب مع الحضارة الحالية ولا تصلح هذه

اللغة إلا للشعر فقط ، وبدأ المستعمر بعد بث هذه الإشاعات تدريس لغته كلغة أساسية في المدارس ، كما فتحت المدارس الأجنبية ، وتوسعوا فيها ، وأدخلوا في عقول التلاميذ الصغار أن المتكلم بالعربية متأخر رجعي ، وأن الإنسان المتحضر هو الذي يتحدث بالانجليزية أو الفرنسية أو غيرها من اللغات (حسب لسان المستعمر) وانتشرت بالبلاد الإسلامية تقليعة جديدة هي مزج الكلمات الأجنبية بالعربية متوهمين أنهم بذلك أصبحوا أكثر الناس ثقافة وتحضراً ، وعاون عباد الصليب الذين أتاح لهم الإسلام حرية الفكر والعقيدة والعمل على مر الزمان ـ المستعمر في ترويج هذه الإشاعات .

ومن أكثر الأمثلة وضوحاً في هذا الشأن ، الجزائر العربية ، ذلك البلد الذي فقد لغته العربية ، لغة الضاد ، وأجبر على التحدث بالفرنسية ، وصار الشعب الجزائري لا يعرف من العربية حتى شكل حروفها ـ هكذا أرادوا فرنسة الجزائر .

ومن حرب المستعمر على اللغة العربية ، أنه عندما أقيمت « عصبة الأمم » ثم « هيئة الأمم المتحدة » لم تكن اللغة العربية لغة أساسية ينطق بها في أروقتها وتنبه العرب لهذا الأمر ، وصارت الآن إحدى اللغات الأساسية .

قد يظن البعض بعد هذا النقاش ، أن ما سبق من كلمات إنما هو دعوة لهم لهجر اللغات الأجنبية وعدم تعلمها ، وهذا ظن خاطيء تماماً ، بل إن كل مسلم حق وخصوصاً هذه الأيام ، حريص كل الحرص على تعلم لغة أجنبية ، على الأقل لتحسين صورة الإسلام التي شوهها المستعمرون والمستشرقون ، ولكن يجب ألا يكون هذا على حساب اللغة العربية ، لغة القرآن الكريم .

٤ ـ وامتدت الحرب على الإسلام إلى المدارس ، فاختصرت الدروس الدينية في المناهج التعليمية وأهملت المساجد والمدارس التاريخ الإسلامي واختصر على ما هو في صالح المستعمر ، إذ كان التركيز في الدروس على الخلافات الداخلية الإسلامية القائمة على النواحي المذهبية ، كما أدخلو التاريخ الأوروبي ، ودرس بصورة غير صحيحة .

أما من ناحية الدرس الديني ، فقد كان قليلا واقتصر على تدريس أركان الإسلام الخمس مع القليل جداً من القرآن الكريم ، والنادر من الأحاديث النبوية الشريفة مع استبعاد كل ما يحث على الجهاد ، وأما عن مدرسي المادة الدينية فكانوا أقل المسلمين علماً ، وأكثرهم إهمالا ، وأحقرهم ملبساً ، أما مدرسوا المواد الدينية لغير الدين الإسلامي فكانوا عكس ذلك تماماً ، وهكذا أبعدوا أهل العلم الإسلامي الصحيح عن توجيه التلاميذ الوجهة الصحيحة .

وأما عن مسجد المدرسة ، فإنه لم يكن له وجود البتة ، وكان المسجد يهمل تماماً عند بدء التخطيط لإنشاء مدرسة جديدة كأن المسجد شيء لم يسمعوا به أبداً .

وأما عن التاريخ الإسلامي ، فاقتصر على الحروب الإسلامية فقط دون تبرير هذه الفتوحات الإسلامية ، ليدخلوا في روع الطلبة أن الإسلام نشر بالسيف ، وإنني أتذكر جيداً أن بعض مدرسي التاريخ في المدارس الإبتدائية والثانوية في بعض البلاد العربية غير هذه البلاد التي حفظها الله لدينه (المملكة العربية

السعودية (كانوا من عباد الصليب ، كما ركزوا في مادة التاريخ أكثر ما ركزوا على الخلافات الداخلية بين حكام المسلمين .

٥ – ومن حرب المستعمر على الإسلام ، احلال القوانين الوضعية بدلا من الحكم بالقرآن الكريم وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في مجال القضاء مدعين أن الشريعة الإسلامية متخلفة ولا تصلح لروح العصر الحديث وأشاعوا عبارة تداولتها العامة من المسلمين مرددين لها دون فهم ، وهي أن قطع يد السارق إرهاباً وليس عقاباً ، ولن يؤدي قطع اليد السارقة إلى منع الجريمة بل إنه بقطع يد السارق سيصبح هناك عدد من العجزة عالة على المجتمع مما يضر بالاقتصاد .

وهذه العبارة التي سمعتها كثيراً من العامة وغير العامة من المتفرنجين إنما هي إهانة للمجتمع الإسلامي ككل لا للإسلام ، لأسباب عديدة منها :

أولا : انهم يتهمون العالم الإسلامي في شرفه ، إذ أنهم يقصدون أن أغلب الشعوب الإسلامية لصوص .

ثانياً : أن يد السارق المبتورة ستصبح رمزاً متحركاً للعقاب بالإضافة إلى الإشارة عن صاحبها ، بذلك سيفكر اللص كثيراً قبل قيامه بالسرقة ، مما يجعله يحجم عن القيام بها وأبسط دليل على ذلك المملكة العربية السعودية ، التي تطبق الشريعة الإسلامية فهي أكثر البلاد أمناً وأماناً من هذه الناحية ، ومن جميع النواحي الأخرى ، بينما نرى شعوب أوروبا صنعت أفلاماً سينمائية مجدت فيها لصوص البنوك والخزائن ، تحكي فيها مغامراتهم ، والأهوال التي لاقتهم وكيف تغلبوا عليها .

ثالثاً : ثبوت فشل القوانين الوضعية على مر السنين بدليل تلك الثغرات الكثيرة في هذه القوانين واحتيال محترفي الإجرام عليها ـ كما أن هناك تعديلات دائمة في هذه القوانين تدخل عليها بين الحين والحين لسد هذه الثغرات .

وهنا يأتي سؤال في موضعه ، سؤال لأصحاب العقول المفكرة ، أمامنا قانون إلهي ، وآخر بشري ، أيهما أكمل ؟ وأيهما أعدل ؟ وأيهما أرحم ؟

٦ ـ ومن أبشع صور حروب المستعمر على بلاد الإسلام تشجيعه على افتتاح الحانات الليلية ، والبارات والمقاهي في مختلف دول العالم الإسلامي ، فبعد أن كان ملتقى الناس في المسجد أصبح لقاؤهم في المقاهي والحانات .

ويحضرني في هذا المقام عمل رائع قام به الشهيد حسن البنا في بدء حياته بمدينة الإسماعيلية بمصر ، حينما كان يذهب إلى المسجد فيجد حلقات الذكر التي يتلوى ويتشنج فيها الرجال بطريقة غير لائقة ويخرجون أصواتاً قبيحة مقززة كما وجد تناطحاً بين رجال الطرق الصوفية ، فحاول الرجل أن يعتزل بفرقة من الناس إلى جانب من جوانب المسجد ليحببهم في الدين ، ويصحح لهم صورة الإسلام التي اهتزت في رؤوسهم ، فاتحدت عليه كلمة المتخاصمين ـ المعينين من قبل المستعمر عن طريق قناة السويس (١) ـ على طرده من المسجد ، فذهب إلى المقهى وجلس بين الناس فسمع إنساناً يتحدث في قصة الزير سالم ، وغناء ونساء راقصات ، وفي نهاية دور المطرب . . استأذن الشهيد

---

١ ـ عبد المتعال الجبرى : لماذا اغتيل الشهيد حسن البنا (ص ١٠) .

حسن البنا صاحب المقهى في أن يحدث الناس ، فحدثهم عن أبطال الجاهلية حديثاً لم يسمعوا مثله عن الأبطال ، ثم ارتفع بالسامعين من هذا الحديث إلى كيف جعل الإسلام من هؤلاء الأبطال عمالقة ، وهكذا استرسل الشهيد يحدثهم عن بطولات الفتوحات الإسلامية ، فشده الناس به ، وأقبلوا على قصصه ، وارتفع تدريجياً بمستوى الموضوع ، وصار يحدث الناس في العقيدة والسيرة العطرة والأخلاق مبتدئاً بالحديث عن الله ورسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانتقل بهم إلى موضوع الصلاة ، وعن ثواب الوضوء وضاق المكان بالناس فنادى : أين نصلي ؟ لا بد أن نصلي . . فدلوه على مكان مصلى قريب ، وهناك خلع حلته ، ونهض مع العمال يبنون هذا المسجد (١) .

٧ ــ بث الاستعمار الفتنة بين الشعوب الإسلامية للتفرقة بينهم ، فيشيع بين المسلمين أن الإسلام فكرة ، والعرب جنس ، في محاولة لإبعاد الإسلام عن العروبة ، فالعراق بابلية آشورية ، وسوريا فينيقية والمغرب العربي من البربر ومصر فراعنة ليسوا عربا ، وزاد على ذلك بث النعرة بين العرب ، فالمصريون سادوا ما حولهم من بلاد ، وجاء الإسلام وحطمهم ، والبابليون سادوا ما حولهم من بلاد وجاء الإسلام وحطمهم ، وقد نسي الاستعمار أو تناسى أن هذه البلاد التي تكلم عنها كانت مستعمرة قبل مجيء الإسلام إليها وتحريرها وتناسى المستعمر أن كثيراً بل أغلب الدول الإسلامية التي تتكلم العربية بها مسيحيون ينطقون لغة الضاد ، وأن لبنان دينها الرسمي المسيحية ولغتها عربية ، لأن للغة العربية حلاوتها وقوتها الذاتية ، وقدرتها الكبيرة التي تذيب ما حولها .

---

١ ــ المرجع السابق (ص ١٦، ١٧) .

وقد بدأ الاستعمار في بث هذه الأفكار في الفترة التي بدأت فيها صحوة إسلامية قوية بدأت بإعلان التوحيد (١١٥٣هـ — ١٧٤٠م) إلى نهاية الحرب العالمية الأولى (١٣٣٧هـ — ١٩١٨م) ويمكن أن توصف هذه الفترة بأنها حركة متكاملة في مجال اليقظة الإسلامية — فقد تطورت فيها حركة اليقظة وتبلورت وتداخلت في عديد من الموجات والدعوات التي حمل لواءها الشيخ محمد ابن عبد الوهاب ، والشوكاني ، والسنوسي ، والمهدى ، والسرهندي والدهلوي ، وجمال الدين الأفغاني ، ومحمد عبده ، والكواكبي ، والسيد محمد رشيد رضا (١) .

٨ — حاول المستعمر بث الفرقة بين المسلمين بضرب الإسلام بالإسلام وذلك بتبني المارقين على الإسلام ودعمهم ، لتكوين فرق تسمى فرقاً إسلامية لا تتصل بالإسلام بصلة ، من هذه الفرق البهائية ، والأغاخانية (الإسماعيلية) والقاديانية .

أولا — البهائية :

هناك وثائق عديدة تدين البهائيين باتصال المستعمر الإنجليزي بهم وتشجيعهم كتبوها بأنفسهم ، ففي كتاب « القرن البديع » لمؤلفه « شوقي أفندي » الزعيم الثالث للفرقة البهائية ما يدين هذه الفرقة : « من المناسب أن ندرج هنا بعض الجهود والمساعي التي بذلت عند محاصرة مدينة حيفا لحفظ حياة القادة البهائيين » فبعد أن اطلع اللورد كرزن وباقي أعضاء الوزارة البريطانية على الوضع في حيفا ومن جهة أخرى قدم اللورد لامينجتون تقريراً على جناح السرعة إلى وزارة الخارجية البريطانية يلفت فيه نظرها إلى وضع

---

١ — انور الجندى : الاسلام وحركة التاريخ (ص٤١٥) .

عبد البهاء الحرج بعد هذا أوعز اللورد بلفور إلى الجنرال اللنبي في اليوم نفسه للسعي بجميع قواده للحفاظ على حياة حضرة عبد البهاء وعائلته ورفاقه ، وبعد فتح حيفا أبرق الجنرال إلى لندن يطلب إذاعة خبر سلامة وصحة المذكور ، كما أمر الجنرال اللنبي الحاكم العسكري لحيفا أن يتخذ التدابير اللازمة لحفظ وحراسة (عبد البهاء) وذلك لأن التقارير الواردة تشير إلى أن السلطات العثمانية كانت قد قررت أن تصلب (عبد البهاء) وعائلته في جبل الكرمل قبل انسحابها من حيفا . وفي نفس الكتاب ونفس المجلد يقول شوقي أفندي : « على أثر الإحتلال البريطاني : (للأرض المقدسة) تمكنا أن نتخلص من المخاطر العظيمة التي كنا نتعرض لها طوال خمسة وستين سنة » .

وعن تعاون عبد البهاء مع المستعمر الإنجليزي ، يقول شوقي أفندي : « لقد صممت الحكومة البريطانية (بعد انطفاء الحرب) أن تكافيء عبد البهاء على الخدمات القيمة التي أداها في تلك الأيام المظلمة والخدمات التي بذلها بالنسبة للتخفيف من مصائب وآلام سكان الأراضي المقدسة ، فمنحته وسام « نايت هود » (أي قبعة النبيل) مع وسام إلى المذكور (عبد البهاء) وذلك في قصر الحاكم الإنجليزي لحيفا ، حضره شخصيات فذة من مختلف الشعوب والأمم من بينهم الجنرال اللنبي ، والسير هربرت صموئيل ، واللورد لامنجتون ، وبيتر رونالد استرس حاكم القدس ، حينذاك .

وفي كتاب التوقيعات المباركة لنفس المؤلف « وهكذا تمكنت القوى البريطانية أن تحتل الأراضي المقدسة ، وبذلك انجلى بدر

الميثاق الذي كان محوفاً بالمحن والبلاء ، وتجلى أمر الله من جديد(١)
وفي نفس الصفحة يصف شوقي أفندي القوى البريطانية بالقول :
« الجنود الذين اختارهم الله لتحرير المدن والديار ، ورفع علم
الاستقلال ، وحماية المستضعفين » .

وكان الشيخ أبو الهدى ، شيخ الإسلام للخلافة العثمانية
في هذه الآونة من التاريخ قد كشف هذه العلاقة العربية بين
عبد البهاء والمستعمر البريطاني فكتب إلى السلطان يحذره بأن
عبد البهاء قد تمكن من التفاهم مع كثير من مسيحيي الغرب ،
ودعاهم زرافات ، زرافات إلى عكا وحيفا ، ونظم معهم الخطط
لصرف سوريا وفلسطين عن مقاومة المستعمر ، كما تمكن عبدالبهاء
من استمالة الكثير من ضباط الجيش إليه ، وقال الشيخ أبو الهدى
في رسالة إلى السلطان أن لديه وثائق وشهود إثبات على ذلك (٢) .

ولقد حذا المستعمر الصهيوني حذو معلمه الأول — المستعمر
البريطاني — في الاتصال بالبهائيين ، ففي مجلة « الأخبار الأميرية »
(وهي مجلة المحفل الروحي الوطني للبهائيين) كتب نص حديث
دار بين وزير الأديان ا لإسرائيلي ورئيس القسم العالمي للبهائيين ،
حيث قال الأخير مفتخراً ومتباهياً : « وقد كتب حضرة عبدالبهاء
قبل أكثر من خمسين سنة أنه في النهاية ستكون فلسطين موطناً
لليهود ، وهذا الكلام طبع في حينه وانتشر (٣) .

---

١ — شوقى افندى : التوقيعات المباركة — المجلد الثانى (ص ١٤٢)٠
٢ — د٠ يونس افروخته : مذكرات تسع سنوات فى عكا (ص ٤٧٩ — ٤٨١) ٠
٣ — العدد الخامس لسنة ١٩٥١ (ص ١) ٠

ثانيا ـ الأغاخانية :

وكما تعاون الإنجليز مع البهائيين وأخذوا بيدهم وأنقذوهم من الهلاك الذي كان يحيق بهم ثم دعموهم لبث الفرقة بين المسلمين تعاونوا مع الأغاخانية بل اسسوها و جعلوا منها مذهباً إسلامياً ، ولقد ظهرت هذه الفرقة الأغاخانية في إيران في الثلث الأول من القرن التاسع عشر الميلادي ، وظهر رجل من هذه الفرقة يدعى « حسن على شاه » تجمع حوله عدد من طائفة الإسماعيلية وغير الإسماعيلية وهدد الأمن وقطع الطريق ، وسطا على القوافل حتى ذاع صيته في أنحاء إيران وأصبح أسطورة على ألسنة الناس(١) وكان للإنجليز مطمع في إيران ، فاستعملوا « حسن علي شاه » في قيادة ثورة يهدد بها الأمن حتى يجدوا ـ كما هي عادتهم ـ منفذاً يدخلون منه إلى فرض سلطانهم ، ولكن حسن علي شاه فشل في مهمته هذه ، وقبض عليه فسارع الإنجليز إلى التوسط له للإفراج عنه على أن ينفى من إيران كلها ، وذهب إلى أفغانستان كرغبة الإنجليز ، ولكنه لم يستطع أن يقدم هناك شيئاً لحلفائه ليقظة الأفغانيين ، فاتجه إلى الهند ، وسكن مدينة بومباي ، وهناك اعترف به الإنجليز إماماً على الطائفة الإسماعيلية ، وخلعوا عليه لقب أغا خان .

والإسماعيلية الأغاخانية تقدس « أغا خان » وتلقبه بالإمام ، وتقول بعصمته ويصفونه بصفات الألوهية ويدفعون له خمس ما يكسبون (٢) .

---

١ ـ مصطفى الشكعة : اسلام بلا مذاهب (ص ٢٤١) .
٢ ـ مصطفى الشكعة : اسلام بلا مذاهب (ص ٢٤٢) .

ثالثا ـ القاديانية :

وتنسب هذه الفرقة إلى « ميرزا غلام أحمد القادياني » نسبة إلى قاديان إحدى مدن إقليم البنجاب ، وأسس غلام أحمد عقيدته المعروفة باسمه رسمياً سنة ١٩٠٠م كما أنشأ مجلة تنطق باسمه وتعبر عن فكرة المذهب أسماها « مجلة الأديان » كما ألف كتاباً شرح فيه فلسفته سماه « براهين الأحمدية » وللأسف الشديد أن للقاديانية أتباعاً وأنصاراً إلى اليوم في البنجاب وأفغانستان وإيران .

أما عن زعيم القاديانية « ميرزا غلام أحمد » فقد اتصل بالإنجليز وهادنهم وربط نفسه بعجلتهم ، فقدموا له الكثير من المساعدات المالية والأدبية التي جعلته يطفو بوضوح على مسرح الحياتين الدينية والسياسية في الهند في أول الأمر ، ثم امتدت أفكاره إلى الأقطار المجاورة .

وبدأ هذا الرجل دجله حينما أعلن أنه عثر على قبر المسيح في قرية اسمها « سرنجار » بمنطقة كشمير (٢) . وزعم أن المسيح قد هاجر إلى كشمير بعد تألب اليهود عليه ومحاولة قتله ، وظل في تلك المنطقة حتى بلغ من العمر مائة وعشرين عاما ، ثم توفي في تلك البلدة ودفن في هذا القبر .

بعد ذلك أعلن نفسه إماماً مهدياً بعث ليجدد الإسلام ، ثم مضى في اندفاعه هذا إلى أن ادعى أن روح المسيح قد حلت فيه ، كما ادعى أن محمداً صلى الله عليه وسلم حل فيه ، فتجمعت فيه روح عيسى ومحمد (٣) ، ولذلك فهو نبي .

---

١ ـ المرجع السابق (ص ٣٥٦) .

٢ ـ د. محمد البهى : الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى (ص ١٨) .

٩ – دأب الاستعمار على قلب الحقائق الإسلامية مستغلا جهل بعض العوام من المسلمين وسذاجتهم معتمداً على سياسة « النفس الطويل » حتى يزهد المسلمون في دينهم ، ويبتعدوا عنه فيعمل المبشرون بعد ذلك على تنصيرهم .

ومن الحقائق الأكيدة التي لا تقبل النقاش ، والتي حاول المستعمر قلبها هي أن الله جعل يوم الجمعة عيداً للمسلمين في شتى بقاع الأرض فقد كرم الله المسلمين بهذا اليوم لأنه خلق آدم فيه ، فجعله عيداً للبشرية ، يرتدون فيه أجمل ثيابهم ويتطيبون ويذهبون إلى المسجد تاركين تجارتهم ودنياهم في مودة وتراحم لصلاة الجمعة :

« يا أيُّها الذينَ آمنُوا إذَا نودِيَ للصّلاةِ مِن يَومِ الجمعةِ فاسْعَوا إلى ذِكْرِ اللهِ وذَرُوا البَيْعَ ذَلكُم خيرٌ لكُم إن كُنتُم تَعْلمونَ فإذَا قُضِيت الصّلاةُ فانتَشِرُوا في الأرْضِ وابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللهِ واذْكُرُوا اللهَ كَثيراً لعلّكُم تُفلِحُون » .

ولهذه الصلاة مكانة خاصة في السنة النبوية المطهرة يعرفها كل المسلمين .

ولأن هذا اليوم عيد للمسلمين ، خصه الله بساعة استجابة ، والملائكة يطوفون في الأرض يسجلون ، ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ساعة الاستجابة « الساعة التي يستجاب فيها الدعاء يوم الجمعة آخر ساعة من يوم الجمعة قبل غروب الشمس أغفل ما يكون الناس » .

كما أوصانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالإكثار من الصلاة عليه يوم الجمعة لعلمه الواسع بمنزلة هذا اليوم عند الله .

والتاريخ يقول لنا الكثير عن يوم الجمعة ، وأن يوم الجمعة كان اليوم المفضل للقادة العظام الذين أثروا في التاريخ ، وغيروا مجراه ، ومن أمثال هؤلاء العظماء الناصر صلاح الدين الأيوبي ، إذ كان هذا البطل يستبشر بيوم الجمعة ويتيمن به . وأنقل هنا فقرة صغيرة من كتاب لأحد المستشرقين هو « فيليب خوري » يقول فيها عن معركة حطين : « بدأت المعركة في يوم الجمعة يوم الصلاة وهو اليوم الميمون للعرب في نظر صلاح الدين ، ولقد كان اليوم نفسه مشئوماً على جيش الفرنج » (١) .

فحاول الإستعمار التقليل من شأن هذا اليوم المبارك وعدم اعتباره عطلة رسمية في كثير من البلدان الإسلامية التي استعمرها وجعل العطلة الرسمية هي يوم الأحد .

---

١ ـ ترجمة محمد مبروك نافع . تاريخ العرب (ص ٨٣٧ .

دور الشيوعيين

قبل البدء في ذكر دور الشيوعيين في الحرب ضد الإسلام هناك كلمة قالها الكاتب الفرنسي الدبلوماسي الفيلسوف « روجيه بيريفيت » في كتابه المعنون « اليهود » سنة ١٩٦٨م . . يقول فيها :
« أن اليهود – فيما بينهم يتمسكون بدينهم ويعتبرونه قوام حياتهم وسبب توفيقهم ، وهم يتظاهرون أمام الناس بعدم التمسك بالدين ، بل بالإلحاد ، ليزهدوا الناس في أديانهم ، ويوقعوهم في الكفر والإلحاد ، أو الشك على الأقل ، حتى لا يظل الناس على (إيمان) .

وكبار الملحدين في العصر الحديث يهود ، ومؤسسوا الشيوعية وأساسها إنكار الله – يهود مؤمنون بدينهم على الأقل . وكارل ماركس – الذي دعا الناس إلى التخلي عن أوطانهم وإنشاء عالم يقوم على العمل والعمال .. كان من أوائل من فكروا في إنشاء دويلة إسرائيل ، وله رسالة في ضرورة قيامها ، وفرويد – ذلك اليهودي الذي تشعر وأنت تقرأ له أنه أعتى الكافرين – قال وهو على فراش الموت أنه مدين في كل شيء لعقيدته اليهودية ، وكتابه عن « موسى » يكشف عن إيمانه العميق باليهودية » (١) .

وقال : « ويدخل في هذا النطاق أن معظم دعاة الإلحاد

---

١ – نقلا عن د.حسين مؤنس : كيف نفهم اليهود (ص ١٨) بتصرف .

وهدم الأديان يهود ، والرجل الأمريكي الذي قال : ان الله مات (تعالى سبحانه عن ذلك علواً كبيراً) يهودي ، لأن لديهم نظرية تقول : افسدوا الآخرين ليضعفوا في صراعهم معكم ، زلزلوا أركان الإسلام والنصرانية لتثبيت أقدام الموسوية . انهم أكثر منكم عدداً وأعز نفرا (١) » .

وقال : « ومن الملاحظ أن معظم الداعين إلى الإلحاد إنما هم من اليهود ، والأمريكي الوقح الذي كتب الكتاب الحقير المسمى « ان الله مات » يهودي كما قلنا ، واليهودي من أكبر دعاة الشيوعية التي تتخذ الإلحاد عقيدة ، وما من حركة إلحادية إلا وجدت أنصارها ودعاتها من اليهود ، وحذار أن نظن أنهم مخلصين في هذه الدعوة ، والدعوة إلى الإلحاد دعوة إلى تحطيم الإسلام والمسيحية تمهيداً لنصرة اليهودية ، وهذا هو الحلم المشترك الأكبر بين يهود الدنيا أجمعين » (٢) .

والشيوعية كلمة عربية لمذهب « كارل ماركس » في حالة التطبيق ، لأنه يزعم أن مذهبه ينتهي إلى إباحة كل شيء على الشيوع ، أو بالمشاع . ولكن أصحاب المذهب جميعاً يسمونه « بالمادية الديالكتيكية » أو « المادية الثنائية الحوارية » أو « المادية الجدلية » مميزاً له عن جميع مذاهب الاجتماع والفلسفة ، وعنوانه هذا هو خلاصة كافية لقواعده التي يقوم عليها ، وهي الإعتقاد بالمادة دون غيرها وإنكار ما عداها من عالم الغيب أو الروح .

وفي التفسير الإقتصادي للتاريخ بدوره جانبان : الأول

---

١ ــ د. حسين مؤنس : كيف نفهم اليهود (ص ٦١) بتصرف .

٢ ــ المرجع السابق (ص ٦١) .

يتصل بالمنهج ، والثاني يتصل بالمذهب ، أما المنهج فهو الديالكتيك الهيجلي (نسبة لهيجل أستاذ ماركس) — وأما المذهب فهو المادية وإن اختلف مفهومها عن سائر المذاهب المادية في الفلسفة (١) .

ومع أنه يتعذر فصل المنهج عن المذهب ، سواء لدى هيجل أو لدى ماركس ، فإن ذلك أمر ضروري لأن هذا ما فعله ماركس ورفيق عمره انجلز ، لقد خلعا الغلاف المثالي لمذهب هيجل وطرحاه بل وانتقداه ، لقد اعتبرا جدل هيجل واقفاً على رأسه بدلا من قدميه بسبب هذه النزعة المثالية ، فقاما بانتزاع الديالكتيك الهيجلي وألبساه ثوباً آخر مادياً ثم طبقاه على الظواهر الإنسانية والطبيعية معاً .

ويقول لينين : « أن العالم بأسره يسير وفقاً لإيقاع هذا الجدل الذي لا يفلت من قبضته القوية شيء لا في العالم المادي ولا في العالم الروحي ، انه ليس الشوفان وحده الذي ينبت وفقاً لإيقاع المنهج الهيجلي ، بل ان الاشتراكيين الديمقراطيين الروس أنفسهم لايقتتلون إلا تبعاً لهذا المنهج نفسه (٢) . »

وعلى ضوء هذه المادية الجدلية أو الحوارية الثنائية ، يرى ماركس وأشياعه أن الأديان أفيون للشعوب ، وأن الناس يقبلون على الدين لأنه يخدرهم ويلهيهم عن شقاء الحياة ، طمعاً في نعيم الآخرة التي لا وجود لها وبدهي أنهم يكفرون بجميع الأنبياء والرسل .

ويقول الأستاذ العقاد (٣) : « وهذا القول الهراء عن الدين

---

١ — د. احمد محمود صبحي : فى فلسفة التاريخ (ص ٢١٨) .
٢ — د. امام عبد الفتاح امام : المنهج الجدلى عند هيجل (ص ٣٢٥).
٣ — الاستاذ عباس محمود العقاد ، افيون الشعوب (ص ٧٠٥) .

آخر وصف يمكن أن ينطبق عليه وأول وصف ينطبق على مذهب كارل ماركس بجميع معانيه فالشعور بالمسئولية والمسكرات نقيضان وما من دين إلا ويوقظ في نفس المتدين شعوراً حاضراً بالمسئولية في السر والعلانية ، ويجعله على حذر من مقارفة الذنوب بينه وبين ضميره ويوحي إلى الفقراء والأغنياء على السواء أنهم لن يستحقوا أجر السماء بغير عمل وغير جزاء ، وشتان هذا وقول القائلين أن الدين يخدر المرء كما تخدره المسكرات وعقاقير الأفيون » .

ثم يقول : « وانهم ليتحدثون عن المذهب العلمي » أو يتحدثون عن التفسير « العلمي » (المادي) للتاريخ ، ويكثرون من ذكر العلم والبحث والاستقراء ، ثم ينظر فيمن يستهوونهم بهذا الهراء ، فلا ترى أحداً منهم يحفل بالعلم أو يعنيه أمر المعرفة والاستقراء ، ولكنك واجد فيهم – على يقين – من يعميهم الحسد على كل فضيلة ، وتندفع بهم الغرائز كما تندفع السائمة على غير هداية » .

ومن يعملون ولا يفكرون في عاقبة ما يعملون ، ان الماركسية اذى لهي أحق بما تفتريه من وصف للأديان والمعتقدات ، وانها لأفيون الشعوب بغير مراء وكلما بحثت عن سبب صالح لشيوع المسكرات في بيئة من البيئات فاعلم أنه سبب صالح كذلك لشيوع المذاهب الهدامة (كالماركسية) والوجودية وغيرهما ، ولتفسير هذه الشهوات التي يلخصها أول الأعراض التي تبدو على السكران : إسقاط للتبعة ، وخلع للحياء ، واستمراء للتطاول والبذاء على كل محسود ، وإن لم يكن من الأغنياء » .

وكما رأينا ، فإن الشيوعيين يهاجمون الأديان عامة ، ويعتبرونها مسكرات للفقراء حتى لا يهبوا في الدفاع عن مصالحهم الدنيوية ،

راضين بحياة الذل والخضوع طمعاً في جزاء وثواب الآخرة التي لا وجود لها ، إلا أن مهاجمة الشيوعية لليهودية والمسيحية شيء ، ومهاجمتها للإسلام شيء آخر ، فإنها ترى في الإسلام العـــدو الأكبر والأخطر ، وفي هذا يقول الأستاذ العقاد : (١)

« إلا أن الشيوعية قد تصبر على المسيحية ولا تطيق الصبر على الإسلام إلا ريثما تتحفز له وتغل أيدي أتباعه عن المقاومة ، لأن المسيحية دين العديد الأكبر من الروسيين والشعوب الأوربية التي تدخل في حوزة الدولة الروسية ولأن المسيحية من الجهة الأخرى تدع شئون الدولة للدولة ولا تتعرض للنظم الإجتماعية أو لإقامة المجتمع على أساس جديد ، وقد نشأت المسيحية كما هو معلوم في بلاد تخضع للسلطة الرومانية في الشئون الدنيوية ، ولسلطة الهيكل الإسرائيلي في الشئون الدينية ، فاجتنبت نقض الناموس ، وأوصت بإعطاء ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله . أما الإسلام فهو نظام اجتماعي له منهجه في علاج المسائل التي تتصدى لها الشيوعية وهو يواجه مشكلة الفقر بحلوله المتعددة ، ولا يقصر مواجهتها على فرض الزكاة لمستحقيها كما يسبق إلى الظن لأول وهلة ، إذ ينكر الإسلام الإسراف والترف والاحتكار ، ويأبى أن تكون الأموال بين الأغنياء ولا يصدق عليه قولهم أنه « أفيون الشعوب » لأنه يأمر المسلم ألا ينسى نصيبه من الدنيا ، ويحثه على دفع المظالم ومنع الشرور ويعلم المسلم أن يقدس الحرية ويثور على المذلة والاستعباد ، فلا يتسنى للحاكم الأجنبي أن يخضعه لغير معتقده أو يسومه الهوان في أمور الدنيا والدين » .

---

١ ـ الاستاذ عباس محمود العقاد : أفيون الشعوب (ص ٧٤) .

ولأن الإسلام أخطر الأديان على الشيوعية ، كانت حرب الشيوعيين عليه شعواء . . أقسى وأعنف ما تكون ، فأذاقوا المسلمين الهوان ، وأصابوهم بمظالم تقشعر لها الأبدان ، وتشيب لها رؤوس الولدان - وقد نشرت جريدة « أزفستيا » في عددها الصادر في ١٥ يوليه ١٩٢٢م تقريراً للرفيق « كالنين » عن مجاعة القوم ، جاء فيه : « بلغ عدد الذين أصابتهم محنة الجوع في شهر يناير ٣٠٢٠٠٠ » . . مات منهم «١٤٤١٣» وارتفع عددهم في شهر مارس إلى ٣٧٩٠٠٠ مات منهم «١٩٩٠٢» وبلغ في أبريل «٣٧٧٠٠٠» مات منهم «١٢٧٥٤» وفي شهر يونيو بلغ «٣٩٢٠٧٢» (ولم يذكر عدد الموتى) ثم قال : « ان أكل لحم الإنسان لم يكن من الحوادث التي يستغرب لها ، أو تبدو عجيبة في بابها » . وقيل أن بعض الأشخاص أكلوا أولادهم (١) .

وجرد الشيوعيون المسلمين من أملاكهم وما لديهم من ثروات ، وشرعوا يهدمون المساجد والمعاهد الدينية وحولوا المساجد إلى أندية ومقاه ودور لهو واصطبلات وحظائر للماشية(٢). وفي هذا يؤكد الأستاذ العقاد بالقول « فقد استباحوا المساجد واتخذوا منها مسارح للهو أو اصطبلات للخيل أو حظائر للأغنام ، وجمعوا نسخ القرآن والأحاديث النبوية وأحرقوها في الميادين العامة . وبطشوا بكل من يتوقعون منه المقاومة ونكلوا بالشبان الأقوياء ونشروا الخوف والفزع بين العاملين والفلاحين فأقفرت الديار وأجدبت المزارع وعمت المجاعة واشتدت قسوة الجوع

---

١ - نقلا عن الشيخ محمد الغزالى : الاسلام فى وجه الزحف الاحمر (ص ١٣٢) .

٢ - الاسلام فى وجه الزحف الاحمر (ص ١٣٣) .

على الناس حتى أكلت الأم ولدها وهي تبكي عليه ثم نظروا شزراً إلى المحسنين الذين خفوا لإنقاذ المنكوبين فاتهموهم بالادخار والوقوف من السلطة موقف التحدي الذي يأخذ بأيدي ضحاياها ، فقتلوهم لأنهم يطعمون الجياع ، ويعطفون على الآدمية التي يمسخها الجوع مسخ الضواري والسباع » (١) .

وأما عن المساجد التي هدموها ، يقول الشيخ الغزالي : هدموا ١٥٥٨ مسجداً بالقرم (٢) ، و ٦٦٨٢ جامعاً ومسجداً في التركستان (٣) . ويقول الأستاذ محمد سامي عاشور (٤) : ومن هذه المساجد (المخربة) أربعة عشر ألف مسجد في آسيا الوسطى والتركستان ، وسبعة آلاف مسجد في أورال جنوب سيبيريا ، وأربعة آلاف مسجد في أذربيجان ، وألف مسجد أو يزيد في القرم » .

وفيما يلي ملخص للرسالة التي أرسلها وكيل الجامع الأزهر إلى الأمم المتحدة « نتشرف برفع هذه الشكوى إلى هيئتكم الموقرة ، باسم الشعوب الإسلامية التي ترسف في أغلال الذل والعبودية تحت وطأة الحكم الشيوعي الذي امتدت سلطاته حتى شملت البلاد الواقعة بين شبه جزيرة البلقان والمحيط الهادي .

(وملخص ما جاء في الرسالة) (٥) :

١ ـ الإبادة الجماعية أو نفي جزء من الشعب أو الشعب كله

---

١ ـ أفيون الشعوب (ص٨١) .
٢ ـ الاسلام فى وجه الزحف الاحمر (ص١٣٣) .
٣ ـ أفيون الشعوب ، رسالة من الجامع الازهر للامم المتحدة (ص١٣٧)
٤ ـ المسلمون تحت الحكم الشيوعى (ص٥٤) .
٥ ـ اقرأ نص الرسالة فى كتاب الاسلام فى وجه الزحف الاحمر (ص ١٣٥) ١٤٠٢هـ .

من وطن آبائه وأجداده إلى سيبيريا أو إلى مناطق أخرى حيث يفقدون الصلة بوطنهم الأصلي ويضيعون بمرور الزمن ، ونستدل على ذلك بالوقائع الآتية :

(أ) قتل الشيوعيون في التركستان وحدها سنة ١٩٣٤ مائة ألف مسلم من أعضاء الحكومة المحلية والعلماء والمثقفين والتجار والمزارعين ، وفيما بين سنة ٣٧ / ١٩٣٩م ألقت روسيا القبض على ٥٠٠ ألف مسلم أعدمت فريقاً منهم وأرسلت فريقاً آخر إلى مجاهل سيبيريا ، وقتلوا سنة ١٩٥٠ سبعة آلاف مسلم وهرب من التركستان منذ سنة ١٩١٩ حتى اليوم مليونان ونصف مليون من المسلمين ، ومن سنة ١٩٣٢ / ١٩٣٤ مات ثلاثة ملايين تركستاني جوعاً نتيجة استيلاء الروس على محاصيل البلاد وتقديمها إلى الصينيين الذين أدخلوهم إلى تركستان .

(ب) أبادوا في القرم (سنة ١٩٢١م) مائة ألف مسلم بالجوع ، وأرغموا خمسين ألف مسلم على الهجرة وفي سنة ١٩٤٦ نفوا شعبين إسلاميين كاملين وهما شعب جمهوريتي القرم وتشيس إلى سيبيريا وأحلوا محلهم الروس ، وفي يوغوسلافيا أبادوا – بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة – ٢٤ ألف مسلم .

٢ – هدم المساجد وتحويلها إلى دور للهو واستخدامها في غايات أخرى وإغلاق المدارس الدينية . بلغ مجموع المساجد التي هدمت أو حولت إلى غايات أخرى في التركستان وحدها ٦٦٨٢ جامعاً ومسجداً ، ومجموع عدد المدارس والكتاتيب التي أقفلوها في التركستان ٧٠٥٢ مدرسة . وفي القرم طمسوا

معالم الإسلام بما فيها الجوامع الأثرية في مدينة « باغجة سراي » عاصمة القرم مثل « جامع جان » وجامع « طوزيا زار » وجامع « احماقويو » وغيرها جميعاً . وهدموا في مدينة زغرب في يوغوسلافيا جوامعها ، وأغلقوا في مدينة سراييفو « الأكاديمية الإسلامية العليا للشريعة الإسلامية » وجميع المدارس الدينية باستثناء واحدة فقط أبقوا عليها للدعاية .

٣ — قتل رجال الدين ، أو نفيهم ، أو الحكم عليهم بالأشغال الشاقة أو منعهم من الحقوق السياسية بل والحقوق الإنسانية فقتلت روسيا كثيراً من شيوخ المسلمين منهم فضيلة الشيخ « برهان البخاري » قاضي القضاة » وفضيلة الشيخ « خان مروان خان » مفتي بخارى ، والشيخ « عبد المطلب داملا » والشيخ « محسوم متولي » والشيخ « عبد الأحد داود خان » والشيخ « الحاج ملا يعقوب » والشيخ « ملا عبد الكريم » وغيرهم كثيرون .

وفي يوغوسلافيا قتلوا مفتي كرواتيا الشيخ « عصمت مفتيش » والعالم الفاضل الشيخ « مصطفى يوصولا جيتش » .

وحكموا بالأشغال الشاقة مدداً مختلفة على (١٢ عالماً دينياً) بعد محاكمة صورية في مدينة سراييفو منهم فضيلة الشيخ « قاسم درواجا » شيخ علماء البوسنة والهرسك ، وفضيلة الشيخ « عبدالله درويسيوفيتش » .

كما حرقوا المصاحف الشريفة في الميادين العامة .

٤ — قتل الزعماء السياسيين أو نفيهم ، من أمثال ذلك أن

الشيوعيين قتلوا في التركستان الشرقية سنة ١٩٣٤م الحاج « خوجة نياز » رئيس الجمهورية ومولانا « ثابت » رئيس مجلس الوزراء ، وشريف حاج قائد مقاطعة اكتا ، وعثمان أوراز قائد مقاطعة كاشغر ، ويونس بلك وزير الدولة ، والحاج « أبو الحسن » وزير التجارة ، و « طاهر بلك » رئيس مجلس النواب ، و « عبد الله داملا » وزير الأشغال ، وغيرهم كثيرون .

وفي القرم قتلوا سنة ١٩٢٨م « ولي إبراهيم » رئيس الجمهورية مع جميع وزرائه ، وفي سنة ١٩٣٠ قتلوا « محمد قوباي » رئيس جمهورية القرم مع هيئة وزرائه جميعاً ، وفي سنة ١٩٣٧ قتلوا الياس طرحان رئيس الجمهورية رمتاً بالرصاص في موسكو .

٥ ـ منع المسلمين من التمتع بالنظم الإسلامية في دائرة الأحوال الشخصية فقد ألغيت المحاكم الشرعية في جميع أنحاء الاتحاد السوفيتي ، وفي يوغوسلافيا نشرت جريدة « نوفودوب » الصادرة في سراييفو بتاريخ ٢٢ مارس ١٩٤٦ قانوناً بإلغاء المحاكم الشرعية في جميع أنحاء يوغسلافيا .

هذا إلى جانب نهب البلاد الإسلامية ونقل ثرواتها إلى مقاطعات أخرى وتمزيق أوصال كل بلد إسلامي واحد،وتأليف قوميات مستقلة على أساس لهجات لغة واحدة بقصد تشتيت المسلمين من نفس الجنس واللغة واشاعة منازعات مصطنعة بينهم ، كما قسموا تركستان إلى ست جمهوريات على هذا الأساس الواهي »

وقد أخذت هذه الشكوى طريقها إلى سلال المهملات ، فما اهتم لها عدو ، ولا اكترث لها صديق .

أما الأعداء فقد سرهم ما تلقاه الأمة الإسلامية من هوان ، وما تتعرض له من إبادة ، فتلك من أعز أمانيهم .

وأما الأصدقاء فقد أخرسهم الرعب ، وقيد حركاتهم ، وآثروا النجاة وحدهم .

وقد نهج الشيوعيون نهج المستشرقين والمبشرين في حربهم ضد الإسلام في محاولة لتشويه صورته في عيون العامة من المسلمين الذين لا يعلمون عن دينهم شيئاً ، ولنضرب هنا مثلا . . أصدرت « مجلة الصحافي » السوفييتية عدداً خاصاً في شهر مارس ١٩٧٢ م تحت عنوان « القرآن . . عقيدته وتعاليمه » بقلمن.أ. محيي الدينوف (١) .

والرفيق محيى الدينوف لا يعرف شيئاً عن الإسلام ، ولا يفقه اللغة العربية ويذكران التناقض ظهر فيه ظهوراً واضحاً حسب اختلاف عقول مؤلفيه وأساليبهم وأن القرآن المتداول بين المسلمين الآن فيه نقص وزيادة ، وأن سورة يوسف زيادة مضافة إلى القرآن وأن هناك سوراً في القرآن لم ترد في المصحف المتداول ومنها سورة النورين كما يزعم أن القرآن مملوء بالأساطير والخرافات المتوارثة عن الشعوب البدائية .

ويقول : إن مؤلفي القرآن نقلوا أقاصيص التوراة والإنجيل ، وأضافوا إليها زيادات عديدة تختلف إختلاف فهمهم لأصول

---

١ — ملخص من كتاب : أقلام مسمومة ، للدكتور على عبد العظيم (ص ٩٢–١٣٨) .

التوراة والانجيل ، كما يزعم بأن القرآن الكريم مناقض للحقائق العلمية مناقضة تامة ، ويرى أن محاولات المسلمين التوفيق بينه وبين الحقائق العلمية محاولات ساذجة مفتعلة ، وأطلق على السنة النبوية « مجموعة الخرافات المقدسة » .

ويدعي أن القرآن الكريم يحتقر الإنسان ، ويضع كبرياءه في الرغام حيث يصفه بالضعف والكنود والجهل ، وبهذا عوقه عن تطوير قوته وعن التطلع لحياة أفضل ، وأن القرآن يقرر أن الإنسان مسلوب الإرادة لأن كل شيء بيد الله ، وهو مع هذا يوقع عليه أقسى ألوان العقاب ، وأحكام القرآن في نظره — قائمة على التمييز الطبقي ، فالسارق الفقير يسرق ليحفظ حياته ، فيكون جزاؤه قطع يده اليمنى فيصير أكثر عجزاً عن العمل ، فيعود إلى السرقة فتقطع يده اليسرى ، فيصبح أكثر عجزاً ويموت جوعاً ، ولكن القرآن يقر مع هذا — كما يدعي — سرقة البورجوازيين لأموال الشعوب ، كما توهم أن القرآن يؤيد المجتمع الاستغلالي ، والتمييز الطبقي ويفرضه على أنه أصل إلهي لا يحل الخروج عليه بحال . ويدعي أن القرآن يصور ذات الله كذات ملك مطلق السلطات ، وامبراطور روماني ، يدعم النظام الطبقي لأنه هو قمة هذا النظام ، كما يرى أن القرآن يلح إلحاحاً كبيراً في نسبة كل عمل إلى الله وبهذا يشل حركة الإنسان ويلغي عقله وجهوده ، ويعطل حركة الإنتاج أو الكفاح لأن القدر هو العمود الأساسي في الإسلام .

ويزعم أن الإسلام دين رجعي لا ينظر إلى الأمام مطلقاً ، وإنما ينظر إلى الخلف دائماً ، حيث كان آدم يعيش في الجنة لا يجوع فيها ولا يعرى ، ولا يظمأ فيها ولا يضحى ، ويسخر

محيى الدينوف من صورة الجنة في القرآن ، ويراها حسية مجسمة ، بذل مؤلفوا القرآن وسعهم في تصوير نعيمها المادي ، فهم في ظلال وعيون يسعدون وزوجاتهم ، وهي واسعة بحجم السموات والأرض ، وفيها أنهار من اللبن والخمر والعسل ، ويلبسون فيها أساور الذهب ويتمتعون بالحور العين ويأكلون الرمان والعنب وكل الثمار .

ويدعي أن الإسلام يدعو إلى العصبية الجنسية والعصبية المذهبية ويسعى إلى إشعال الحروب وإراقة الدماء لينصر عنصراً على عنصر ، ومذهباً على بقية المذاهب .

والكثير والكثير من الإدعاءات ، فندها وردها الدكتور علي عبد العظيم في كتابه الرائع أقلام مسمومة .

وهكذا جمع الشيوعيون كل ما كتبه المستشرقون والمبشرون الحاقدون على الإسلام ، جمعوا كل ما كتب ضد الإسلام ورددوه دون تفكر وتدبر في محاولاتهم المتكررة لإثارة طبقات العمال والتلاميذ البسطاء ضد المواهب العقلية ، والملكات الفكرية ، والسمات الروحية .

واستطاع هذا الفكر الملحد أن يجذب بعض المسلمين – إسماً – في البلاد العربية والإسلامية كما نجح بعض من هؤلاء بمساندة روسيا – دولتهم الأم – في التسلل إلى الجرائد اليومية والمجلات الشهرية والأسبوعية ، بل إنهم في مصر ، وفي عهد جمال عبد الناصر نجحوا في إنشاء مجلة خاصة بهم أطلقوا عليها « الطليعة » يدسون فيها السموم ضد الإسلام ، الإسلام فقط ، وتبنت هذه المجلة وزميلتها روز اليوسف الأسبوعية الباحثين من

الشهرة على حساب الإسلام بحجة البحث العلمي ، ومن أمثلة هذه المقالات ما كتبه محمد أحمد خلف الله في عدد نوفمبر ١٩٧٥ م في مجلة الطليعة تحت عنوان « العدل الإسلامي » وهل يمكن أن يتحقق ؟ واتخذ من هذا المقال فرصة للتشهير بعلماء المسلمين وعجزهم عن الاجتهاد ، وتمسكهم بالنصوص الحرفية التي لم تعد صالحة للعصر الحديث وكان لنفس الكاتب تجربة أدعى فيها أن القصص القرآنية خيالية وهمية لا أساس لها من الحقيقة التاريخية وأنها جاءت لمجرد الوعظ أو هي كما قال المشركون « أساطير الأولين »(١) .

ومقال آخر لنفس الكاتب في ذات المجلة في عدد ديسمبر ١٩٧٥ م بعنوان « الثوابت والمتغيرات في الأديان » خلط فيه الحق بالباطل ومزج الصحيح بالزائف والهدف من مقاله هو التخلص من التشريع الإسلامي كما يقول : (لأن عهد وصاية السماء قد انتهى بانتهاء الرسالات السماوية وأن البشرية بلغت الرشد فلها أن تغير الأحكام وتبدلها طبقاً لتغير الأحوال والملابسات» .

هذا مثل لأنواع كتابات هؤلاء الباحثين عن الشهرة .

ولما لم تجد الشيوعية في مصر طريقها الذي تريد . . ابتدعت حرباً جديدة تفوق اليهود والصهاينة ، بلغ المكر والخداع فيها أقصاه ، بل تجاوز مداه . إذ ادعت أن الإسلام والماركسية متفقان ظناً من الشيوعيين أنهم يستطيعون « مركسة الإسلام ، وادعوا أنهم مسلمون ماركسيون ، وزعموا أنهم يغشون المساجد ويؤدون الفرائض ، ويتمسكون بتعاليم الإسلام ، بل زعم رئيس تحرير

---

١ ــ د٠ على عبد العظيم : أقلام مسمومة (ص ٢٠) ٠

مجلة روزاليوسف آنذاك ـ وأحد زعماء الشيوعيين ـ أنه صلى في مساجد موسكو . . شيء مضحك حقاً .

كما نهجوا نهج المستعمر في التشهير برجال الدين ، بل إنهم تجاوزوا هذا بتهجمهم على شيخ الجامع الأزهر ، والقصة تبدأ أن أحد أفراد أسرة صوفية مصرية اعتنق الماركسية ، فطمع بعض أفرادها في رده إلى الصواب ، فأشار إلى الإمام الأكبر أن يهدي إليه بعض مؤلفاته عن الصوفية لعله يثوب إلى رشده ، فيرجع إلى الصواب ، فكتب شيخ الجامع الأزهر على أحد هذه المؤلفات الإهداء : إلى فلان الذي جمع بين الماركسية والإسلام والصوفية . لينبهه إلى تناقضه لعله يصلح هذا التناقض ويعود إلى الإسلام ، ولكن هذا الفلان الماركسي الساذج حمل عبارة الإهداء إلى سادته ، فصوروها ونشروها بعنوان (شيخ الأزهر يؤمن بإمكان الجمع بين الماركسية والإسلام) وكتب سلسلة مقالات بهذا العنوان .

ومن العجيب والغريب حقاً أن زعيم الشيوعيين ورئيس حزبهم في مصر ادعى أنه حج بيت الله الحرام ، وكتب قبل اسمه « الحاج » أثناء دعايته الإنتخابية لمجلس الشعب ـ حتى يخدع الفلاحين البسطاء من أهل قرية كفر شكر .

دور المستشرقين دعاة المسيحية :

بدأت حركة الاستشراق تظهر في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي (الخامس الهجري) ، بعد الهزائم المتتالية للدولة البيزنطية ، وانتشار الإسلام حتى الهند وحدود الصين شرقاً ـ وأسبانيا وجنوب فرنسا غرباً ، وكان لأتباع الصليب موقفهم العدائي

المبني على أساس التعصب والكراهية إزاء الإسلام والمسلمين ، لأن الإسلام لا يبيح صكوك الغفران ، ولا سيادة لأحد على أحد ، ولا فرق بين أسود ولا أبيض إلا بالتقوى ، ولا وساطة بين العبد وربه ، ولا اعتراف بالذنوب لرجل الدين حتى تغفر الخطايا للمذنب فالإسلام إذن خطر على هؤلاء الذين يسيطرون على الشعب من خلال الكنيسة ، هؤلاء الذين وضعوا الشعب الأوروبي في سجن وتقلدوا مفاتيحه ولهذا لم ينظر هؤلاء إلى الدين الإسلامي نظرة عقل وتفتح ، نظرة علم ومعرفة بل نظروا إليه نظرية عدو لدود لأنه يسحب البساط من تحت أقدامهم ويظهر موقفهم على حقيقته ، ولهذا فليس من المستغرب أن يتزعم رجال الكنيسة الحملة الضارية على الإسلام والمسلمين .

والحرب بالسلاح لم تجد مع المسلمين شيئاً لأن قرآنهم يؤكد أن الجنة من نصيب الشهيد ، فيتسابق جند الإسلام للشهادة ، وحتى لو هزموا في موقعة ، فسرعان ما يعيدون تنظيم صفوفهم ، ويقفون وقفة رجل واحد شجاع ويدحرون عدوهم ـ لأن القرآن في عقولهم وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في قلوبهم وروح المسجد في نفوسهم .

وحروب الدولة البيزنطية على الإسلام أتاحت لعباد الصليب الفرصة للاحتكاك بالمسلمين ، ودين الإسلام عن قرب .

ويبدأ رجال الكنيسة في الكتابة عن الإسلام ، ونفوسهم تموج بكل الحقد والكراهية والتعصب ، وكان الرائد في هذا المجال هو القس « بيتر » المعروف باسم « المبجل » في القرن الحادي عشر الميلادي ـ على أن هناك دلائل تشير إلى حركة الاستشراق بدأت قبل هذا الوقت ، وكان أول ما كتب أن

نقطة البداية في حرب الإسلام هي القرآن الكريم ، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمسجد .

يقول د. عبد الجليل شابي(١) : « وكان بيتر من أبطال التعصب ضد الإسلام والمسلمين ، وكان يلوم المسيحيين على مهادنتهم المسلمين ، ويحثهم على العنف عليهم وعملا بالمبدأ الذي رآه ، قام بحركة نشيطة بترجمة القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية ، وكان الغرض من هذه الترجمة تشويه القرآن الكريم أولا ، ثم الرد عليه ، وتفنيد ما يترجم ثانياً .

هكذا بدأ القس بيتر المبجل حربه ضد الإسلام ، بدأ فترجم القرآن الكريم ترجمة مشوهة محرفة ، وبعد ذلك يفند ما شوهه ، هكذا ابتكر قرآناً ، ثم شوه ما ابتكر ، مثل الإنسان الذي يسبب المشكلة ثم يفكر في حلها ، أو مثل الإنسان الذي يكذب ثم يصدق كذبه ، ويقولون على مثل هذا العمل في المثل الشعبي « يغني ويرد على نفسه » وللأسف الشديد فإن هذا المغني القس بيتر يجد صدى قوياً لغنائه وألحانه ، لدرجة أنه يطرب السامعين ، لأن من يغني لهم لا يعلمون شيئاً عن الإسلام أو العربية .

ويضيف الدكتور عبد الجليل شلبي : « وفي منتصف القرن الثاني عشر صدرت أربع ترجمات قرآنية أخرى ومقدمة بقلم هذا القس ، وكتب أيضاً ترجمة لحياة النبي صلى الله عليه وسلم ، وتاريخ الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم ، حتى عهد يزيد بن معاوية ومقتل الحسين بن علي رضي الله عنه ، ولم تكن أي من هذه الترجمات القرآنية ترجمة كاملة ، ولا كان تاريخ النبي

---

١ ــ صور استشراقية (ص ٢٦) بتصرف .

صلي الله عليه وسلم صحيحاً ، إذ كان الغرض من هذا العمل تنفير المسيحيين والمسلمين على السواء من المسلمين الأول ، ونبي الإسلام »(١) .

غير أني أرى أن المقصود أولا بهذا العمل هي القاعدة المسيحية العريضة في بلادهم بعد أن رأوا زحف الإسلام السريع ، كما يقصدون تأليف الجبهة الداخلية وتحصينها ضد الإسلام ، وتصوير المسلمين بصورة الغازين الذين ينهبون ويسلبون ، حتى إذا ما أعدوا للحرب الصليبية — التي بدأت سنة ٤٢٩ — ١٠٩٩ م والتي أطلقوا عليها الحرب المقدسة — تكون هذه القاعدة الوقود الرئيسي لهذه المعارك ، وهكذا استخدموا الشعب لتنفيذ أغراضهم وأطماعهم ، بعد أن حجبوا عنه الحقيقة .

وفي هذة الفترة — النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي — كتب قس آخر عن مشاهير رجال الدين المسيحي في قرطبة ، كان يدعى « الجوس قرطبة » بحثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو ينم عن جهل فاضح أو كذب متعمد — كما تبدو فيه الصبغة المسيحية ، إذ جاء فيه أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان يخبر أصحابه وأتباعه أنه بعد ثلاثة أيام من موته سيرفع إلى السماء ، فلما مات بقي بدون دفن حتى يرفع جسده ، ولكنه لم يرفع حتى تعفن جسده وأخذت الكلاب تنهش فيه(٢) .

والعجيب في الأمر أن هذا القس كان لا يعرف عن العربية شيئاً حتى شكلها ، ولكنه اعتمد في معلوماته على مخطوطات

---

١ — المرجع السابق (ص ٢٧) .

٢ — صور استشراقية (ص ٢٨) .

لاتينية عثر عليها مصادفة في مدينة بامبالونا مما يدل على أن الكتابة ضد الإسلام لم تبدأ مع القس بيتر .

واعتقد أن القس الجوس قرطبة ابتكر هذه الصورة للكتابة عنها لأسباب :

١ — أن قيامة المسيح من الموت بعد ثلاثة أيام أساس من أساسيات العقيدة المسيحية ، لدرجة أنهم جعلوا من هذا اليوم عيداً أطلقوا عليه « عيد القيامة » (الأسبوع الأخير من شهر أبريل / نيسان) من كل عام والتحية التي يحيون بعضهم البعض بها في هذا اليوم هي « المسيح قام حقاً قام » .

٢ — وعلى الرغم من أن هذه الفكرة هي من أساس العقيدة المسيحية ، إلا أن الأناجيل الأربعة المعترف بها حالياً تضاربت في سرد هذه الواقعة وتخبطت تماماً ، لدرجة أنه لم يتفق إنجيل مع آخر في حدث واحد من أحداث هذه القصة على الاطلاق(١) . مما يثبت أن هذه الواقعة مختلقة ومن واقع الخيال ، كما أن هذه الحادثة تسبب الأرق لكل رجال الدين المسيحي إذا ما سئلوا عنها .

٣ — إن القرآن ينفي صلب المسيح ودفنه .

٤ — تصوير الإسلام على أنه صورة مشوهة من المسيحية ، فالمسيح استطاع أن يقوم من الأموات ، وأما محمد ، فلم يستطع .

بهذا أراد القس إصابة هدفين بحجر واحد :

الأول : تثبيت العقيدة المسيحية لأنها مبهمة وغير مفهومة ،

---

١ — قارن الاصحاحات : ٢٦ــ٢٨ من انجيل متى ، ١٥ــ١٦ من انجيل مرقص ، ٢٣ــ٢٤ من انجيل لوقا ، ١٩ــ٢١ من انجيل يوحنا .

وتحصين المسيحيين ضد الإسلام ، خاصة وأنه ثبت لهم إفلاس الأديان الأخرى أمام فكر الإسلام .

الثاني : هدم الإسلام في نفوس من أسلموا من الذين يجهلون العربية خاصة في الأندلس ، والقس من قرطبة ، أي من الأندلس .

ولم تقف كتابات المستشرقين في هذا الوقت عند هذا الحد ، بل انطلق آخرون يشوهون صورة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمنهم من رسم له صورة كاريكاتيرية منفرة ، هي أنه كان معتوهاً دينياً وصاحب هرطقة وتضليل وآخرون قالوا أنه كان مصاباً بالصرع ، حتى أنه كان لا يفيق من نوبات الصرع التي كانت تنتابه(١) ، وغيرهم صوره على أنه مصلح اجتماعي بدأ بداية حسنة ثم تحول إلى مخطط سياسي ، ومنهم من قال أنه رجل فجور منغمس في ملذاته الحسية وجميع هؤلاء يفترضون أنه تلميذ للكتابيين والأحناف في عصره(٢) .

وهكذا بذر القس بيتر بذرة الاستشراق الرئيسية التي أرسلها الحقد والكراهية والتعصب وسار المستشرقون من خلفه ، ونهجوا نهجه .

وبدأت الحروب الصليبية الشهيرة ، وحاول المستشرقون بث أفكارهم فيما استعمروا من بلاد ، ولكن بضاعتهم لم تجد رواجاً بين المسلمين ، لأنهم يعرفون الحقيقة ، وقوبلت أفكار المستشرقين بالصد والمقاومة .

---

١ ـ د. محمد حسين هيكل : حياة محمد (ص٤) المقدمة .
٢ ـ صور استشراقية (ص ٢١) .

وفشلت الحملات الصليبية في تحقيق أهدافها عسكرياً ، وسياسياً ، وفكرياً بعد أن ظل عباد الصليب في محاولتهم هذه أكثر من قرنين من الزمان ، وبدأ الغرب يعيد دراساته ـ مستفيداً من الدروس السابقة ـ لغزو العالم الإسلامي من جديد ، وتحفز المستشرقون للطعن والكيد للإسلام بطريقة أجدى من الهجوم المباشر ، وليس أمامهم سوى دس السم في العسل ، فلا مانع أبداً من الكتابة عن الإسلام بصورة حسنة وتحليل بعض المواقف ـ بحجة البحث العلمي ـ والتسلل منها للكيد للإسلام ، وتشتيت شمل المسلمين ، وتحطيم صورة رسول الله صلى الله عليه وسلم في رؤوس وفكر المسلمين ، وتحطيم المسجد المنطلق الأساسي في قيادة المسلمين .

وتوالت الأبحاث عن الإسلام ، وظهرت في صورة كتب ، وظهر كتابان ألفهما المستشرق الفرنسي « دورمنجم » الذي يعتبر رائد مستشرقي العصر الحديث الأول بعنوان « محمد » والثاني بعنوان « حياة محمد » وفي الأول يعقد فصلا بعنوان : « النصرانية والاسلام » . وفي الثاني فصل آخر بعنوان « اليهودية والمسيحية » وفي هذين الفصلين صور المؤلف محمداً صلى الله عليه وسلم بصورة الإنسان الذكي ، المفكر المثقف ذي الحس المرهف . . هذا أولا .

بعد ذلك حاول درمنجم أن يثبت أن المسيحية كانت تحيط بالجزيرة العربية من كل جانب ، وأن مكة كانت مركز تجارة رائجة ، وكان بها بعض النصارى فكانت القوافل تتناقل أخبار المسيحية في لهفة ، والمعلومات عنها في شوق ، كما يقول درمنجم أن الحيرة كانت مركزاً مسيحياً كبيراً .

وبجانب هؤلاء المسيحيين كان هناك الأحناف الذين درسوا

المسيحية فأخذوا منها بعضاً ، وتركوا البعض الآخر ، فكانت هذه المسيحية مريضة سقيمة خالية من الغذاء الروحي الكافي ، كما كانت هناك اليهودية في المدينة المنورة واليمن .

كذلك كانت الزرادشتية معروفة في هذا الوقت لكن لا هي ولا المسيحية كانتا بعيدتين عن الوثنية التي عليها الجاهليون .

وقد اتصل محمد صلى الله عليه وسلم بهؤلاء الاحناف ، وسمعت أذنه المرهفة ووعى قلبه الذكي عن هذه الديانات كثيراً مما علمه إياه بحيرا الراهب – ثم كان اختلاؤه بنفسه وعمله في الصحراء مما زاده رهافة في الحس ودقة في التأمل ، وشغل سيدنا محمد نفسه في التأمل في متناقضات هذه الأديان كلها ، فلجأ إلى غار حراء يفكر ويتأمل ، حتى هداه تفكيره إلى مبدأ التوحيد المطلق ، وكان وهو في غار حراء يخيل إليه أنه يسمع أصوات الحجارة ، وأنها تجيبه باسم رسول الله ، وكان يرى في منامه شخصاً هائلا ، صافا قدميه في أفق السماء ، باسطاً إليه يديه ، وأصبح بعد ستة أشهر نحيفاً مهزولا ، خائر القوى مضطرب الخطى ، أشعث الشعر واللحية ، فخرج يهيم بين شعاب الجبال ، ويخر مغشياً عليه (١) .

وهذا بحث آخر بعنوان « صلة القرآن باليهودية والمسيحية » للمستشرق اليهودي « ولهلم رودلف » الذي ترجمه وروجه شيوعي يدعى عصام ناصف سنة ١٩٧٤م والمؤلف يحاول باستفاضة واستماتة أن يثبت أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان متأثراً بالديانة المسيحية واليهودية أثناء تأليف القرآن – على حد قوله –

---

١ – صور استشراقية (ص٤١) .

واستند على أحداث واهية منها أن بحيرا الراهب وورقة بن نوفل هما معلما النبي صلى الله عليه وسلم وأن ورقة كان يهودياً قبل أن يكون حنيفياً وفسر ولهلم رودلف بعض آيات من القرآن الكريم تفسيراً غريباً لا يقبله عقل أو منطق ، مثال ذلك تفسيره للآية الكريمة :

« اللهُ نورُ السّماواتِ والأرْض مثلُ نورِهِ كمِشْكاة فيهَا مِصْباح ، المِصْباح في زُجاجَة ، الزّجاجَة كأنّها كَوْكَب دُرّي » . (النور : ٣٥)

ويفسر الرجل كلمة المصباح بأنه مصباح الرهبان في الصوامع ، وهكذا .

هذه كانت بعض من صور الاستشراق .

أما الصورة الحديثة جداً ، فتلك التي تطل علينا في كتاب « العقل المسلم » لمؤلفته الأسترالية « تساريس وادي » فهذا البحث نوع جديد تماماً من الكتابات الاستشراقية ، والله أعلم بما تبطنه المؤلفة تجاه المسلمين .

والكتاب محاولة جادة وموضوعية من الكاتبة لفهم الإسلام على صورته الصحيحة وقد جمعت مادة الكتاب عن طريق السمع من أفواه المسلمين أنفسهم حيث تقول « أن الحقائق الأساسية للإسلام يمكن أن نحصل عليها حية ومبسطة مما يأتي من أفواه المسلمين أنفسهم ، ولهذا دونت في هذا الكتاب ما قاله لي المسلمون في كل أنحاء العالم ، وليس هذا تحليلا مستقصياً للعقلية المسلمة ، ولكنه مجموعة من المعلومات التي أضاءت هذا العقل أمامي ، ومقتبسات من كميات كبيرة من المحادثات التي أجريتها مع المسلمين

ومن الكتب التي أشاروا علي بقراءتها ، وإذن فهذا الكتاب : « العقل المسلم » ثمرة صداقتي مع المسلمين (١) .

والكتاب ـ العقل المسلم ـ حقيقة يعطي صورة سليمة للإسلام بمبادئه السامية ، لذا تعجب أحد قراء الكتاب من حال المسلمين اليوم ، على الرغم من أنهم لو تمسكوا بدينهم لصار لهم شأن آخر حسب قوله « ان دارسي الإسلام سيتحققون لأول وهلة أن هناك فرقاً واسعاً بين ما عليه المسلم المعاصر ، وبين مبادئ الإسلام ذاتها ، ولو أن المسلمين اليوم يتبعون حقائق الإسلام وتعاليمه لكانوا في حال تختلف كل الاختلاف عما هو عليه الآن ولعل كثيراً مما نراه ونأخذه على المسلمين يرجع إليهم أنفسهم ، ولا يرجع إلى الإسلام (٢) .

وتعترف الكاتبة في بحثها هذا بخطأ نظرة الغرب للإسلام بقولها : « ومن أول الأمر كانت اتجاهات الغرب للإسلام يلفها ظلام قاتم ، وذكريات محرفة من آثار الصليبيين وفي وقتنا الحاضر نحكم على الإسلام من خلال الأعمال الإرهابية التي تقوم بها عصابات من العرب ، وأنه على سبيل المثال ليس من الإنصاف أن نقدر سمو المسيحية وفلسفتها بما يفعله البروتستانت المتطرفون في أيرلندا ولكن هكذا كان الحكم على الإسلام في أكثر المواقف ولقد فشل الساسة الأوربيون في التفرقة بين الإشتراكية والشيوعية لأنهم لم يقفوا على الفارق الأساسي بين المادية الجدلية والإسلام ، وكان نقص الوضوح في تصور الإسلام هو الذي قاد إلى هذا

---

١ ـ د. عبد الجليل شلبى : صور استشراقية (ص١٠٢) .

٢ ـ صور استشراقية : عبد الجليل شلبى (ص٢١٣) .

الفهم السيء الخطير ، ثم هو الذي قاد إلى زيادة الخطر إذ اعتبر الشرق الأوسط هو الركن الذي انبعث منه الحرب العالمية (١) .

وضربت تساريس وادي بعض الأمثلة من الصعاب التي يلاقيها من يعتنق الإسلام من الأوربيين للصورة السيئة للإسلام في الغرب ، أسوق هنا ثلاثة منها :

الصورة الأولى لأحد الجامعيين الهولنديين كان يدرس الأدب في أندونيسيا – حين كانت هولندا تستعمر جزءاً كبيراً منها – وهناك تعرف الرجل على الإسلام ، فأسلم ، وقد ارتاعت زوجته لإسلامه ، وكتبت إلى ذويه في هولندا بهذا الشأن ، فلما عاد الرجل إلى بلده ليقضي أجازته قوبل بوجوم واستنكار ، ووجد تياراً شديداً ضده ، وإشاعة واسعة أنه قد خولط في عقله وناله شيء من الجنون حتى أولاده الكبار عاملوه بشيء من الحذر والارتياب .

هذا الرجل هو الدكتور مليما الذي حضر المؤتمر الأول لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر سنة ١٩٦٤م وروى الكثير من القصص المضحكة في هذا الشأن (٢) .

الصورة الثانية لشاب إنجليزي عرف الإسلام في عدن فاعتنقه ، وحج بيت الله الحرام ، وصام رمضان ، وقام بأداء الصلوات بقدر ما مكنته الظروف ، ولما عاد إلى بلده وعلم ذووه بأمره ، ساءهم ذلك حتى أنهم اتهموه بالجنون ، وسألوا الله أن يعيد له عقله ودينه ، وقد صبروا على هذه الحال حتى تصادف أن جاء عيد الميلاد في شهر رمضان ، وفي عيد الميلاد تعد الموائد ، وتقدم

---

١ – المرجع السابق (ص١٠١) .
٢ – د. عبد الجليل شلبى : صور استشراقية (ص١٧٣) .

الديوك الرومية ، ولم يستطع الفتى أن يشارك في المأدبة التي يعدها والده ، وهو قبل هذا العام كان يشارك في أكل اللحوم ولا يشرب الخمر وكان يشترط ذبح الديكة أو يتولاه بنفسه ، وهنا قامت قائمة البيت ، وعم الحزن الجميع وتأكدوا من جنون الفتى ، ولم يكن واحد منهم على استعداد لأن يسمع شرحاً عن الإسلام ، ولم يستطع الفتى أن يقنعهم .

وكانت الحجة الكبرى التي اعتمد عليها الوالد هي أن الشعوب الإسلامية كلها متأخرة ولا ينبغي لابنه أن ينتسب إليهم ، وأن المسلمين قساة يذبحون الحيوانات ، ويحرمون لحم الخنزير لأن محمداً صلى الله عليه وسلم تقزز منه وأنهم يضيقون على المرأة ، ويلزمونها الحجاب ويمنعونها من التعليم وأنهم يبيحون للرجل أن يتزوج أكثر من واحدة . . الخ . .

وقابل الشاب الكاتبة وقص عليها قصته ، فطلبت منه أن يبلغ أبويه أن الإسلام يحتم احترام الوالدين حتى ولو أساءوا إليه وأنه لهذا لا يستطيع رد هذه الإساءة ولا الدفاع عن نفسه خوفاً من أن تفلت منه كلمة قاسية أو نابية تعتبر مخالفة للإسلام ، أما دينه فإنه مقتنع به ولن يتخلى عنه (١) .

والصورة الثالثة لشاب إنجليزي أيضاً ــ حيث قال هذا الشاب للكاتبة أنه يفكر منذ زمن طويل في اعتناق الإسلام ، ولا يريد أن يمر به رمضان ذلك العام إلا وهو مسلم وصائم ، ولم يكن الشاب يتوقع معارضة من أبيه لأنه غير مؤمن بأي دين ولكنه توقع معارضة والدته لأنها كاثوليكية وأخيراً أسلم الشاب ، واغتسل وصلى .

---

١ ــ المرجع السابق (ص ١٦٦ــ١٦٧) .

وفي أول ليلة من رمضان تجرأ وأخبر والدته لتعد له سحوره ، ولم تغضب الأم ولم تثر عليه ، بل انها قالت انها تتوقع ذلك منذ زمن بعيد .

أما الوالد فكثيراً ما أنب ولده ، وكثيراً ما طلب منه أن يتخلى عن هذا الدين ، وواضح أن ذلك لا يرجع لعدم اقتناعه بالأديان فزوجه كاثوليكية ، وابنته مسيحية أيضاً ، ولكن هذا الامتعاض يرجع إلى نظرته للإسلام والمسلمين .

وهذا الشاب كان – ولا يزال – يعمل في القسم الشرقي في المتحف البريطاني ورئيس هذا القسم هو الدكتور لنجس – الذي اعتنق الإسلام منذ أول الأربعينات وتسمى بين المسلمين بأبي بكر سراج الدين ، وله نشاط إسلامي لا بأس به ، وقد اقتدى هذا الشاب به فتسمى باسم عمر – وأعلن إسلامه بين رفاقه .

وقابل الدكتور لنجس الكاتبة ، وأخبرها أنه ما كان ينبغي لهذا الشاب أن يعلن إسلامه ، وأن هذا الإعلان سوف يسبب له مضايقات في وظيفته ، وأنه هو نفسه – أي الدكتور لنجس – أوذي لهذا السبب ، وأن بعض أساتذة الجامعة حيل بينهم وبين الترقية لأنهم مسلمون ، وأن المسلم الشرقي قد يحتمل ، أما الإنجليزي الذي يتحول إلى الإسلام بعد مسيحيته فإنه يثقل على الرؤساء جداً ، ويتعرض لكثير من المضايقات (١) .

وأما عن دور المبشرين في الحرب الحاقدة الضارية على الإسلام فما يقال عن المستشرقين يمكن أن يقال عن المبشرين ، يضاف

---

١ – د. عبد الجليل شلبي : صور استشراقية (ص ١٦٩–١٧٠) .

إلى ذلك أنهم كانوا أكثر التصاقاً بعامة المسلمين فكان تأثيرهم مباشراً وخطيراً على بعضهم .

ومع الاستعمار بدأ المبشرون عملهم ، وملأوا أطراف العالم الإسلامي واتصلوا مباشرة بعوام المسلمين وفقرائهم ، وقدموا لهم العون المادي ، والعلاج الطبي المجاني ، وأنشأوا المدارس على أحدث النظم – ما زال بعضها حتى الآن – فاندفع إليها أولياء الأمور من المسلمين لينال أبناءهم العلم الغربي الذي هو السبب في تقدمهم ، وقدم المبشرون كل شيء ، ومع هذا قدموا السم للمسلمين فالعطاء مشروط ، بل ان العطاء أساساً كان للسم .

وهكذا تم حصار الإنسان المسلم ، فهم يستعمرون بلاده ، ويحاولون جهد أيمانهم استعمار عقله أيضاً بالمبشرين ، فبالمال يأسر المبشرون قلوب الفقراء ، وفي المستشفيات تتولى الراهبات الرعاية الطبية بدس السم للمسلمين مع الدواء بأساليب ماكرة وفي المدارس الأجنبية يشوه المبشرون التاريخ الإسلامي ، ويلقنون الأطفال دروساً كلها الحرب على الإسلام ، ويفهمونهم أن أسباب انحدار المسلمين وفقرهم إنما يرجع إلى تمسكهم بالدين الإسلامي ويتزاور الطلبة المبشرون لتكوين الصداقات والمرحلة التي تلي ذلك هي إرسال بعثات إلى أوروبا للطلبة المتفوقين لغسل عقولهم هناك ، وتزويجهم من أجنبيات وكل عائد منهم يتباهى بزوجته الأجنبية .

أما بالنسبة للمرأة ، فللراهبات دور خطير في هذا الأمر ، وتحت شعار الرعاية الإجتماعية ، والمساعدات المادية للفقراء تدس الراهبات السم لفقراء النساء عن تعدد الزوجات في الإسلام ،

ناسين أن الإسلام يبيح تعدد الزوجات لا تعدد العشيقات كما في أوروبا .

وأن تعدد الزوجات فرصة لغرض سام من أسمى غايات الإنسانية والبشرية وكتب في هذا الشأن العديد من الكتب الرائعة .

وأما فقراء المسلمين الذين يعانون من كثرة العيال يتبنى المبشرون بعضاً منهم ويتولونهم بالرعاية تمهيداً لتنصيرهم .

وعلى الرغم من محاولات المبشرين المستميتة في آسيا وإفريقيا لهدم الإسلام إلا أنهم يواجهون بمقاومة كبيرة من المسلمين ، وفي هذا المقام لا ننسى أبداً ما فعله المبشرون في أندونيسيا والهند لزعزعة العقيدة الإسلامية في نفوس المسلمين وعقولهم « وقاوم المسلمون في الهند » القس فندر » مؤلف كتاب ميزان الحق الذي حمل فيه على الإسلام حملة شعواء وقد جرت مناظرة بينه وبين عالم جليل هو الشيخ رحمة الله بن خليل الرحمن الهندي ، وانسحب القس أثناء المناظرة بعد أن هزم شر هزيمة مما يثبت إفلاس كل الديانات أمام دين الإسلام القوي الذي لا يخذل من يتمسك به أبدا ، وكان ثمرة هذه المناظرة كتاب رائع يعتبر مرجعاً أساسياً أصيلا لكل من يعمل في علم مقاومة الأديان ، هذا الكتاب هو : « إظهار الحق » .

دور المسلمين أنفسهم :

منذ بدء التاريخ وهناك حضارات تقوم وحضارات تنحط ، بدأت بحضارات المصريين القدماء ، تلتها حضارات ضخمة مثل حضارة الصين ، وحضارة بابل ، وحضارة فارس ، وحضارة الإغريق ، وحضارة الرومان ، وغيرها وغيرها من حضارات ،

تأتي حكومات وتنقرض حكومات وما أكثر الأمثلة في تاريخ البشرية ، والعالم لا يخسر شيئاً بانقراض دولة ملكت حيناً من الدهر ، وفتحت وغزت كثيراً من البلاد ، واستعبدت طوائف من البشر ، وترفهت وتنعمت على حساب المستضعفين في الأرض ولم يذرف العالم الدموع ، ولم يلبس العالم الحداد ، ولم يتشح بالسواد لانقراض حضارة من تلك الحضارات .

أما الحضارة الإسلامية فشيء مختلف تمام الإختلاف عن تلك الحضارات ولم يكن انحطاط المسلمين وانعزالهم عن قيادة الأمم وانسحابهم من ميدان الحياة والعمل وزوال دولتهم حادثاً من نوع ما وقع وتكرر في التاريخ ، ولكنه تعطيل رسالة جاءت للمجتمع البشري بأسره ، وزعزعة دعامة قام عليها نظام الدنيا والدين .

وما من شك في أن للمسلمين أنفسهم دوراً كبيراً في جزر حضارتهم بعد مد وانحطاط مكانتهم بعد علو ، وبالتالي انحسر وتعطل دور المسجد في قيادة العالم الإسلامي ، ويحضرني في هذا المقام قول للمصلح الإسلامي الإمام محمد عبده عن أعمال المسلمين نصه : « أن الإسلام محجوب عن الغرب بستار كثيف من أعمال المسلمين » وأعتقد ، بل وأجزم أن الفارق بين وضعنا الحالي وبين حقائق الإسلام كبير للغاية ، ولو أننا اتبعنا حقائق الإسلام وتعاليمه كما أسسها لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتركنا كل البدع والأباطيل لكان حالنا اليوم مختلف كل الإختلاف عن ما نحن فيه الآن ، ولأصبح علم الإسلام يرفرف على كل بقاع الأرض ، ولامتلأت الدنيا عدلاً ونوراً .

وما من شك في أن للحروب على الإسلام والمسلمين دوراً

كبيراً في وضع المسلمين الحالي ، ولكن تخلي المسلمين عن روح الإسلام والمسجد هو السبب الأول في وضعهم هذا ـ لأن الحروب على الإسلام في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين الأوائل كانت أخطر وأعتى ، وعلى الرغم من ذلك فرض الإسلام نفسه لقوة إيمان الرجال الحاملين لواءه ، واقتناعهم القوي والتام برسالة الإسلام العالمية متأسين في ذلك بقائدهم الاعظم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

انقسام المسلمين :

كان لانقسام المسلمين لمذاهب وفرق مختلفة أثره السيء والخطير على الإسلام والمسجد ، فالإسلام الموسوم بالسماحة قد تخضب أيدي أبناؤه بدماء بعض وقد ابتدأت دماء المسلمين تسيل أول ما تسيل على يد الخوارج الذين دعوا أنفسهم بالشراة(١).

وقد رأوا أن الإسلام لا يتم إلا بالجهاد وقتل باقي المسلمين الذين لا يعتنقون مذهبهم ومن بعد الخوارج القرامطة التي أسسها حمدان قرمط مستنداً إلى أفكار أستاذه عبد الله بن ميمون القداح ، وأسس حمدان قرمط الطائفة الباطنية التي عرفت فيما بعد باسم القرامطة ، وهي إحدى فرق الشيعة وكان مقرهم تلك الدار التي أسسها حمدان وسماها دار الهجرة على مقربة من الكوفة وكانت هذه الجماعة في أساسها جمعية سرية على نظام شيوعي (٢) .

وكان لا بد من إعداد كل راغب في الإلتحاق بهذه الطائفة إعداداً خاصاً ولقد ذهب حمدان قرمط في تعاليمه إلى حد بعيد ،

---

١ ـ د. مصطفى الشكعة : اسلام بلا مذاهب (ص٤٤٥).

٢ ـ محمد مبروك نافع : تاريخ العرب (ص٥٧٥) .

حتى أنه أباح الاشتراك في الزوجات والمتاع وهو ما سماه بالألفة (١) .

وقد أطلق بعض الكتاب المحدثين على هذه الجماعة لقب « بلاشفة الإسلام » وتطورت حركة القرامطة بنظامها الشيوعي حتى أصبحت قوة مخيفة في الكيان السياسي للعالم الإسلامي ، وكان القرامطة يبيحون دماء المسلمين ويرون ذلك عملا مشروعاً ، وحل شرهم في كل بلد ، وأسالوا الدماء و انتشروا في العراق والشام والحجاز يبثون الرعب في قلوب المسلمين ، ولقد هاجموا كثيراً من حجاج بيت الله الحرام وقتلوهم طمعاً في أموالهم ، ونهبوا أستار الكعبة وهدموها ونقلوا الحجر الأسود إلى عاصمتهم « هجر » وظل الحجر الأسود بعاصمتهم طيلة عشرين سنة ، وهكذا ظل القرامطة في الفترة ما بين نهاية القرن الرابع والخامس الهجري يثيرون الرعب حتى جعلوا الشام و العراق يغرقان في بركة من دماء المسلمين .

وفرقة الحشاشين (إحدى فرق الشيعة الإسماعيلية) الذين كانوا لا يتورعون عن استعمال الخنجر استعمالا منطوياً على الغدر والخيانة في سبيل تحقيق أغراضهم وأطماعهم ، وجعلوا من الإغتيال فناً من الفنون ، وكان نظامهم السري المؤسس على نظام أسلافهم الإسماعيلية يقول بعدم كفاية العقل لفهم الوحي ، واتخذوا هذا ذريعة بها يجعلون المبتدئ يتحلل مما تنهى عنه المبادئ ، ولا يرى داعياً لكثرة الأنبياء ، فيتشجع على عدم الإيمان بشيء ويمتلئ جرأة على الجميع (٢) .

---

١ – المرجع السابق .
٢ – د. عبد الجليل شلبي : صور استشراقية (ص٥٧٣) .

وكان زعيمهم « داعي الدعاة » يلجأ إلى تخدير الفدائيين — الذين أعدهم لتنفيذ أغراضه وأطماعه الشخصية ، باستعمال الحشيش ، من هنا جاءت تسميتهم .

وفرق أخرى ، أغلبها من الشيعة ، لا علاقة لها بالإسلام ، أسست على أطماع شخصية ، دعمها المستعمر للتفريق بين المسلمين ، ذكرنا بعضاً منها (البهائية والقاديانية والأغاخانية) فيما سبق .

جهل بعض المسلمين :

ومن أخطر الأسباب التي أدت إلى تعطيل دور المسجد وانحسار نشاطه، جهل بعض المسلمين بحقيقة الإسلام ، وأدى ذلك بالتالي إلى دخول الكثير من البدع والضلالات التي يرفضها الإسلام رفضاً قاطعاً . . نذكر منها :

١ — دفن الميت في المسجد ، وهذه الضلالة أشرنا إليها وناقشناها في فصل آداب المسجد (الباب الأول) .

٢ — رفع الأصوات أمام الميت بالأناشيد حين دخول المسجد وقبله وبعده .

قال الإمام ابن الحجاج : « ما يفعله القراء الفقراء والمريدون حين إتيانهم بالميت إلى الصلاة عليه في المسجد بدعة ينبغي أن تمنع ، وهي بدعة في غير المسجد ، فكيف بها فيه ، ولأن ذلك يشوش على المتنفل والتالي والذاكر والمتفكر » . وقال الإمام النووي في هذا المقام « هذا منكر ظاهر مذموم فاحش وهو حرام بإجماع العلماء ، وعلى ولي الأمر زجرهم عنه وتعزيزهم واستتابتهم

ويجب إنكاره على كل مكلف تمكن من إنكاره (١) » .

ومن البدع أيضاً تأخير الميت في المسجد ، بينما وردت السنة بتعجيل الصلاة على الميت ودفنه لأن ذلك من إكرامه ، قال ابن الحجاج : « فإذا أريد الصلاة عليه فلا تؤخر لانقضاء جماعة فريضة ولا جمعة أيضاً » وقد كان بعض العلماء ممن كان يحافظ على السنة إذا جاءوا بالميت إلى المسجد صلى عليه قبل الخطبة ويأمر أهله أن يخرجوا إلى دفنه ويعلمهم أن الجمعة ساقطة عنهم إن لم يدركوها بعد دفنه (١) .

وبدعة أخرى كثيراً ما نشاهدها في بعض البلاد الإسلامية ، وهي الجلوس للتعزية في المسجد . قال الإمام أحمد في رواية أبي داود « وما يعجبني أن يقعد أولياء الميت في المسجد يعزون ، أخشى أن يكون تعظيماً للموت » وقال ابن القيم في زاد المعاد : « وكان من هديه السكون والرضـــا بقضاء الله ، والحمد لله والاسترجاع » .

٣ – اتخاذ المساجد تكايات للصوفية يقيمون بها أذكارهم وأورادهم والمساجد لما بنيت له ، إنما بنيت للصلاة والجمعة والجماعة ، فلو أقيم بها تلك الرسوم لتشوش على المصلين ، وهذه محدثة وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار » .

٤ – تخلف الكثيرين عن الجماعة ولهوهم عنها ، قال العلامة القاسمي (٢) : كان يقول بعض اللطفاء : « وجود الفقراء

---

١ – محمد جمال الدين القاسمي – اصلاح المسجد (ص ١٦١) .

٢ – المرجع السابق (ص٢٣٣) نقلت بتصرف .

والبؤساء من النعم الكبرى لإقامة شعائر الدين ، إذ لو كان الناس طبقة واحدة في الثروة والجاه لما رأيت للإحتفالات الدينية شعاراً إلا نادراً » .

وقصدوا التألف على تخلف كثير من الأعيان والأكابر والأمراء عن إقامة الجماعات في الصلوات الخمس ، والحق له ، وذلك لأن القائم بالشعائر الدينية في المساجد في الحقيقة هم من الفقراء والمتوسطين وأرباب الحرف ، وأما أغلب الأكابر فلا يحضرون المساجد إلا في الجمعة والعيدين ونادراً في غيرهما ولكنهم في بعض الدول الإسلامية يأتون المساجد في ليالي المآتم لتعزية وجيه ، نعم . . لا ينكر أحد أن للأمراء والحكام وكبار الموظفين أشغال كثيرة ومهام عديدة ولكن لا عذر لأحد في ترك صلاة الجماعة ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يعذر الأعمى في ترك صلاة الجماعة على الرغم مما يعانيه أثناء سيره بل أوجب عليه أن يجيب الداعي ما دام أنه يسمع النداء ، والعاقل يحذر العواقب ، ويخشى مولاه ليكون ممن نزل فيهم قوله تعالى :

« رِجالٌ لاَ تلْهيهم تِجارَة وَلا بَيعٌ عَن ذِكْر الله وَإقام الصّلاة وإيتاء الزّكاة » .

ولا يكون ممن نزل فيهم قوله عز وجل :

« كلاّ إنّ الإنْسانَ لَيطْغى ، أن رآهُ اسْتَغنى » .

وما أجمل وأبدع من إحياء السنة النبوية المطهرة ، فيلزم أداء الصلوات الخمس مع الجماعة في أوقاتها تدعيماً لشعائر الدين ، ونيل رضوان الله تعالى .

إن ترك صلاة الجماعة بالمسجد تضعف رابطة الأخوة الإسلامية بين المسلمين بعضهم البعض ، ولا يتعرف المسلم بذلك على دينه الحقيقي ، ويضعف بالتالي المجتمع الإسلامي ككل ، وليس هذا من الإسلام في شيء ، فيوم كان المسلمون يتمسكون بعقيدتهم تمسكاً حقيقياً ، ويوم كان المسجد في عقولهم وقلوبهم وروحهم .. تزعزعت أمام الإسلام كل العقائد الأخرى ، تزعزع المسيحي عن مسيحيته عندما شاهد ما أحرزه المسلمون من نجاح منقطع النظير إذ اعتقدوا — بحق — أن نجاح المسلمين هذا دليل قاطع على صدق دينهم ما دام الله تعالى لا يؤتي نصره إلا لعباده المختارين المخلصين » (١) .

٥ — ومن البدع التي أدخلت على المسجد خروج بعض مشايخ الطرق بمريديهم وحلفائهم في مواكب يمتطون ظهـــور الخيل وينشرون الأعلام والرايات ويدقون الطبول ، فيجتمعون في مسجد في إحدى أطراف البلدة أو المدينة ، ثم يرتبون أنفسهم ويســـيرون ، وفي هذا يقول أحد الفضلاء (٢) :

« لا تزال هذه الطوائف تبتدع أموراً تضحك السفهاء وتبكي العقلاء وتحتال لمطامعها البهيمية بما جلب العار على الأمة ، وسلط علينا الأجنبي يهزأ بديننا ، ويقبح أعمالنا ظناً منه أن ما يعمله هؤلاء الجهلة من الدين ، فهلا رجع هؤلاء الجهلة عن بدعهم والتزموا طرق مشايخهم الذين يدعون أنهم على آثارهم وما هم

---

١ — سير توماس أرنولد — الدعوة الى الاسلام (ص٧) ترجمة د.حسين ابراهيم .

٢ — محمد جمال الدين القاسمى : اصلاح المساجد (ص٢٢٢) .

إلا في أيدي الشياطين يلعبون بهم كيف يشاءون ، أين تصفية الباطن التي هي مدار الطريق . وأين الخمول مع هذا الظهور ، وأين التواضع مع ركوب الخيل والبغال يقدمها الطبل والمزمار ، وأين البعد عن الناس في هذه المزاحمة الدنيوية ، وأين الإرشاد مع هذه البدع ، وأين الأشياخ إذا أردنا السلوك » ؟ .

وفي هذه الاحتفالات العجيبة والغريبة عن الإسلام والمسجد ـ يجتمع العامة حول المسجد ، ويهتزون اهتزازات خارجة كلها قلة الحياء ، وترى الدوائر حول من يأكل النار أو يضرب الدف أو الناي أو النقرزان ، وأخرى حول من يضع الحديد في فمه أو الدبوس في ذراعه . . الخ .

هل هذه هي رسالة المسجد ؟ وهل هذا هو الإسلام ؟

وفي رواية للعلامة محمد جمال الدين القاسمي يقول فيها « وقد اتفق أن أحد معتبري الأجانب دخل إحدى الأماكن ، وقد اجتمع بها جماعة من أهل الأهواء فرآهم يرقصون صياح جنون فقال لترجمانه : ما هذه الغوغاء ؟ ونحن نعلم أن صلاة المسلمين في غاية الخشوع والآداب ، وهذه أمور ليست إلا هذياناً ، فقال له الترجمان « إن هذه أكبر صلاة عندهم » يريد تنفيره من الدين الإسلامي (١) . . لا حول ولا قوة إلا بالله .

٦ ـ وبدعة أخرى خطيرة ، بدعة التمسح بكسوة مشاهد القبور لمشايخ الطرق المدفونين بالمساجد .

ولا يصح ـ من الواجهة الإسلامية ، إلا استلام الحجر

---

١ ـ محمد جمال الدين القاسمي : اصلاح المساجد (ص٢٢٢) .

الأسـود ، ويقول الغزالي في كتابه الأحياء : « إن هـذه البـدعة انتقلت إلى هؤلاء من أهل الكتاب ، والغـريب والعجيب حقاً أن بعض الناس يتخذون من يوم تغيير الكسوة عيداً ، وهذه صورة مضحكة ومحزنة ــ وشر البلية ما يضحك ــ أنقلها لأبين مدى الجهل الذي طغى بين بعض عامة المسلمين . ومن أغرب الغريب ــ وما كنت أظن وقوعه ، ولا عاقل يفعله ، وذلك اتخاذ موسم وعيد لكسوة مشايخ الطرق في القرن الماضي (وما زال يحدث للأسف الشديد في بعض البلاد الإسلامية) وذلك الموسم ميعاده ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان ، يجتمع في دار أحد حفدة ذلك الشيخ أو صفوة خلفائه جمع كبير يدعون له كثيراً من أهل الرسوم والمتعالمين والمتفقهة فيحضرون في تلك الدار ، وبعد أن يذكر المعروف على طريقة ذلك الشيخ ــ والكل يتحلقون حول صاحب الحفلة المتوج بطبزة كبيرة وعندما ينتهي وقته يقوم المحتفل بهم ،ويأتي بجبة ذلك الشيخ المنتمى إليه وطبزته ويعرضها على الجالسين مرتباً ، فكل منهم ينزع عمامته ويضعها أمامه ويلبس تلك الطبزة ومن فوقها الجبة ويقرأ ما يقرأ مخمراً بها وجهه ، ويتمسح بها ويدلك بها وجهه ويلصقها ببدنه ثم يعطيها لمن بجانبه وهكذا إلى أن يتم الجمع وينفض المجلس وهم معتقدون أنهم حازوا تمام البركات والخيرات وأن تلك اللبسة من أسعد الحالات(١) .

أين هؤلاء من الإسلام الحقيقي الصحيح ، إسلام لا وثنية فيه ولا شرك بالله بلغ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن قوماً يذهبون إلى الشجرة التي بايع النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه

---

١ ــ محمد جمال الدين القاسمي : اصلاح المساجد (ص٢١٧ــ٢١٨) .

تحتها ، فقطعها . . وقصة أخرى . . أرسل أبوموسى إلى عمر ابن الخطاب رضى الله عنه ، يذكر له أنه ظهر بتستر قبر دانيال وعنده مصحف فيه أخبار ما سيكون ، وأنهم إذا جدبوا كشفوا عن القبر فمطروا فأرسل إليه عمر يأمره أن يحفر بالنهار ثلاثة عشر قبراً ، ويدفنه بالليل في واحد منها لئلا يعرفه الناس لئلا يفتنوا به .

إن مثل هذه البدع — التي ذكرنا بعضاً منها — عندما يشب عليها الأطفال الصغار ، يظنون أنها أصل من أصول الإسلام الصحيح — والإسلام بريء منها فيجب طاعتها والتفنن في عرضها ، ويتسرب بذلك الضعف والتواكل إلى نفوسهم ويصبحون بذلك مثلا سيئاً للإسلام — بل عالة عليه وسبة في جبينه — لا يرجى منهم الخير أبداً .

فصل الدين عن السياسة :

ومن حرب المسلمين على الإسلام ، فصل الدين عن سياسة الدولة عملياً ومن ثم استبد رجال السياسة بالحكم بعيداً عن رقابة المسجد ، وزالت عنهم بذلك رقابة الدين والأخلاق ، وفقدت رسالة الإسلام التي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر سلطانها ، لأنها لا تستند إلى قوة تحميها ، وأصبح الإسلام كطائر مقصوص الجناح والحكام كجمل هائج ترك حبله على الغارب ، وأعرض رجال الحكم عن استشارة رجال الدين ، بل في كثير من الإحيان استخدموا بعضهم في قضاء مصالحهم الشخصية وأصبح رجل الدين بين معارض للحكم خارج عليه ، لا يحظى على رضا الحاكم ، وحائد منعزل مشتغل بخاصة نفسه مغمض العينين عما

يجري من حوله يائساً من الإصلاح ، وآخر منتقد لما يرى ويسمع ولا يملك من الأمر شيئاً ، ورابع متعاون مع الحاكم قريب منه لمصلحة شخصية أو دينية ، ولكل امريء ما نوى .

ومن الآثار السيئة لفصل الدين عن سياسة الدولة ، انغماس الناس في الملذات والشهوات ، وإخلاد عدد كبير من الناس إلى الترف والنعيم ، وتركوا المسجد إلى الملاهي والملاعب ، ويحضرني قول لأحد المستشرقين يقول فيه بدأ الإسلام في الانحطاط لأن البشرية بدأت تشك في صدق القائمين عليه .

أثر الحضارات الاخرى :

ولا يجب أن ننسى تأثر المسلمين بالحضارات التي اتصلوا بها ، فكان المسلمون هم الأقوياء الغازين لتلك الحضارات ، ومن ثم كانوا يأخذون ما شاء لهم ومن أسوأ ما أخذوا الكثير من العادات السيئة والكثير من الضلالات .

وقبل أن نناقش هذا الأمر ، هناك مثل ضربه لنا أسوتنا الحسنة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك ، فبعد أن تم له ما أراد واتفق معهم على الجزية ، تخلف عنها « أكيدر بن عبد الملك النصراني » صاحب دومه ، فندب له رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد في كتيبة من جنده ، ودار قتال وكان النصر للمسلمين ، وعاد خالد بن الوليد إلى معسكر المسلمين ومعه « أكيدر » وقد نزع عنه قباؤه ، وكان من ديباج مخوص بذهب ، وأعجب به بعض الصحابة ، فراحوا يلمسون القباء بأيديهم ويتعجبون منه ، فقال لهم رسول الله صلى

الله عليه وسلم « أتعجبون من هذا ؟ فوالذي نفسي بيده لمنديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا »(١) .

هكذا علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا ننخدع أبداً بما نرى .

وما من شك في أن عهد الخلفاء الراشدين كان عهداً ماسياً للاسلام إذ كانوا رضي الله عنهم جميعاً ، يتبعون سُنَّة رسول الله صلى الله عليه وسلم اتباعاً حسناً ، ولم ينخدع أحد منهم بتلك الحضارات التي ا تصلوا بها ،علي الرغم من أن كل شيء كان تحت إمرتهم وسلطانهم ، ومن أروع الأمثلة التي يمكن أن نضربها في هذا المقام ، حينما أتى أحد فرسان الروم إلى عمر ابن الخطاب رضي الله عنه فسأل عنه ، فوجده نائماً تحت شجرة ظليلة ، فقال الفارسي قولته المشهورة حكمت فعدلت فآمنت فنمت يا عمر .

وبعد الخلفاء الراشدين دخل الإسلام الكثير من الأشياء التي نهى عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبعد أن كان المسجد مقراً للحكم أصبح القصر هو المقر الرئيسي لهذا الحاكم ، وعرف الحكام القصور ، وانتقلت المغنيات والراقصات والمحظيات إلى تلك القصور ، وانقلبت حياة الزهد والتقشف التي كان عليها حكام المسلمين إلى حياة ترف ونعيم .

وانتقلت العدوى إلى عامة المسلمين وأصبح الترف والنعيم هدف من أهدافهم ، وبدأ أغنياء المسلمين في صرف أموالهم في بناء القصور والتنافس على إمتلاك الجواري والمغنيات والمحظيات

---

١ ـ د. بنت الشاطىء ـ مع المصطفى (ص٢١٨) .

حتى ألفت القصص والروايات على هذا النوع من التنافس – بدلا من صرفها على أوجه الجهاد في سبيل الله . وأما عن الحكم والخلافة على المسلمين ، فبعد أن كانت انتخابية تتم في المسجد على أحدث النظم الديمقراطية الحالية في العالم أجمع ، أصبحت وراثية ، ولم يبق للمسجد من هذه المراسيم إلا خطبة الخليفة على منبر المسجد الرئيسي بعد توليه الخلافة ، والدعاء لهذا الخليفة الجديد على منابر المسجد، في أنحاء البلاد في خطبة الجمعة .

وتمر الأيام والسنون ، وتنتقل إلى الإسلام الكثير من العادات الجاهلية السيئة والبدع ذكرنا بعضاً منها قبل قليل – وغيرها .

وإذا ما انتقلنا إلى العصر الحالي الذي نعيش فيه الآن ، نجد أن المسلمين انخدعوا ، بل أقول انبهروا انبهاراً كبيراً بالحضارة الأوربية المادية وقلد المسلمون الأوربيين تقليداً لا يصح ولا يليق حتى فيما يتعارض مع العقيدة الإسلامية الصحيحة ، فخرجت أصوات غير واعية تنادي بأشياء هي الجاهلية الأولى بعينها ، على أنها قمة الحضارة والتقدم .

أول هذه الأشياء وأقساها بل أتعسها . . بناء الملاهي الليلية وغير الليلية والتوسع فيها ، وفيها يحتسي المسلمون الخمر جهاراً ، بلا حياء أو خجل وهم يشاهدون المغنيات والغانيات شبه عاريات يتمايلن بخلاعة ووقاحة لا مثيل لها ، وفتحت لهن وسائل الإعلام أبوابها على المصاريع حتى أصبحت أولاء الخليعات المثل الأعلى لكثير من الفتيات وأصبحن يقلدنهن في ملبسهن ومشيتهن . . الخ وليس غريباً على أصحاب هذه الملاهي التفنن في ابتكار العاب القمار واستيراد أحدث الأجهزة من الغرب لهذا السبب حتى

يسرى المرتاد لهذا الملهى على أشده ، ومع الأسف البالغ أن نرى هذا التنافس على أشده في الكثير من البلاد الإسلامية .

ومن أخطر الأصوات تلك التي تنادي بتحرير المرأة ، كأن الإسلام سجن يقيد المرأة بالأغلال والقيود ، وبدأت ـ في كثير من البلاد الإسلامية ـ ملابس المرأة في الانحسار حتى أصبحت تكاد تكون عارية فكيف لمثل هذه المرأة أن تحث أبناءها على الذهاب إلى المسجد والتمسك بالصلوات الخمس بعد أن أدخلوا في عقلها أنها تحررت من الإسلام . . تحررت من عصر الحريم . . تحررت من السجن الإسلامي ؟. ألا ساء ما يصفون . . وساء ما يصنعون .

خـاتـمـة

لقد كان لي الشرف أن أسند إلى منصب الأمين العام المساعد لشئون المساجد ، والتزمت بحكم هذا العمل بزيادة الاتصال ببيوت الله عملياً وفكرياً فزرت مئات المساجد في شتى البقاع بالعالم الإسلامي وأسهمت في إنشاء بعض المساجد وتحسين البعض الآخر بما يحقق الأهداف المثلى للفكر الإسلامي كما قرأت عن المساجد مجموعة كبيرة من المصادر والمراجع والدوريات ، وسرعان ما أحسست أن بنفسي أفكاراً واتجاهات تحتاج للكتابة فاتجهت لكتابة مجموعة من البحوث حول المسجد ورسالته ، ثم نقحت هذه البحوث وجمعتها في هذا الكتاب راجياً أن يكون فيه خيراً وبركة للإسلام والمسلمين .

وإني اتجه إلى الله بهذا العمل وأطمع في ثواب منه كما أرجو من القاريء أن يصفح عن هفوات القلم التي لا يخلو منها كتاب غير كتاب الله .

وبالله التوفيـــق . .

على محمد مختار

صدر من هذه السلسلة



للطباعة بجدة
٥ / ٤ / ١٣٩٣هـ

دَارُ الأصْفهَانى للطبَاعَة بجَدة
رقم الترخيص ١٨ ص - ١٣٩٣/٤/٥هـ